جامعـــة الجـزائـر
كليـــة العلــوم الإنسانيـــة والاجتماعيـــة
قســم الفلسفـــة

التوظيف السياسي لليوتوبيا القديس أوغسطين نموذجا

مذكـرة مقدمـة لنيـل شهـادة المـاجستير في الفلسفـة

إعـداد الطـــالب: عفيـــان محمـــد

إشـــــــــــراف: د – عبد المجيـد دهـــوم

السنـة الجامعيـة
2009/2008

جامعــة الجزائــر
كليــة العلــوم الإنسانيـــة والاجتماعيـــة
قســم الفلسفـــة

التوظيف السياسي لليوتوبيا القديس أوغسطين نموذجا

مذكـرة مقدمـة لنيـل شهـادة المـاجستير في الفلسفـة

قائمة أعضاء لجنة المناقشة

الدكتور:علي زيكي ....رئيسا
الدكتور:عبد المجيد دهور .... مقررا
الدكتور:شكار الميلود.. عضوا
الدكتور: مطاري عبد الوهاب .... عضوا

إعداد الطــالب:
عفيـــان محمـــد

إشـــــــــــراف:
د – عبد المجيـد دهـوم

السنــة الجامعيـة
2009/2008

كلمة الشكر

قد يكون البحث جمع وتحليل من كل مكان ويتكلم فيه كل إنسان، ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الأعصار والتباعد ما بين الأمصار ولنا شكر خاص إلى الأستاذ الدكتور - عبد المجيد وهوم - الذي قبل الإشراف على هذا الموضوع كما لم يبخل بنصائحه وتوجيهاته وعونه طيلة مدة انجاز العمل وكان سندا لي بكل ما استطاع إليه سبيلا وللأستاذ - علي تايري - جزيل الشكر على سبيل توجيهنا إلى المنهجية العلمية الدقيقة رغم تعدد وتراكم مهامه البحثية كما لا ننسى الأستاذ - تمجي علي - والأستاذ - أيدير فوضيل - على إرشاداته ونصائحه القيمة.

محمد عفيان

الإهداء

إلى كل من أدرك العلم بلسان مسؤول وقلب عقول، وكان
إذا لقي باحثا اخذ منه وبادله المعرفة.
إلى كل من يعي أن أول العلم الصمت ويليه الاستماع
والثالث الحفظ والرابع العقل والخامس نشره.
تحية فلسفية خاصة لمن تقاسمت معي أول خطوة في الدخول إلى جامعة الجزائر ودامت في مساندتي مثلما بدأت والشكر
لها مهما كثر يبقى في عيني أقل فجميلها يبقى دوما أجمل.

أختي الأستاذة - عفيان فاطمة -

حفظها الله

أهدي لها هذا العمل المتواضع

محمد عفيان

مقدمة

مقدمة:

ضمان استقرار المجتمع إضافة إلى البحث عن تامين سر الحياة الرغيدة للراعي والرعية على حد سواء، همٌ تقاسم التفكير فيه كل باحث في الفلسفة السياسية سواء في صورتها التقليدية الكلاسيكية أم المعاصرة، فكان البحث في هذا السياق يطل على مشارف متنوعة كلها لا تحيد عن روح الحضارة وبناء أمجادها، هذا ما انطبق على المؤلفات السياسية التي بدورها تسن نواميس الحفاظ على المدن، أو الدول أو الإمبراطوريات ومن ذلكم أنموذج الإمبراطورية الرومانية التي ودون منازع كانت حضارة القوة وبلغت مستوى العالمية ميدانيا، لكن لم تشهد هي الأخيرة الثبات بمفهوم الواحد البارمينيدي الذي لا يعرف التغير، فكانت روما شانها شان الجسد ينتقل من صبا إلى كبر، أما الصبا والنشوء تجلى في الحركة التوسعية التي امتاز بها الرومان، وأما الكبر فهو ضعف لحق بها ولن يرتفع حتى أحرقت روما في ظرف وجيز، وهذا ليس طفرة ولا نشاز لكنه كان محرك للفكر السياسي مثلما حرك تفنن الأفراد في تبرير سقوط الإمبراطورية وبدى تعبيرهم عن الخيبة.

فتدهور روما تطير منه كل وثني من المسيحية التي عمت في طور تراجع الحضارة الرومانية واكتمل الجانب المادي بالروحي داخلها، بل وأكثر من هذا أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية، وسهام الاتهام نسجها كل وثني خاب أمله بعد ما كان دوما هو الغالب أصبح في موقع المغلوب، وأما المجني عليه هي المسيحية ومهمة الدفاع من وراء هذه التهم التي تتجاوز الهزال السياسي والاجتماعي والتناحر بين المسيحي والوثني الذي اعتقد أن لعنة آلهته التي تخلى عنها ما زالت تطارده.

في المقابل نجد المسيحي يرجأ النصر والمجد إلى غد في الحياة الباقية الروحية ويبين انقسام الحضارة بين ما هو مادي فان وبين ما هو روحي خالد، وهذه كانت مهمة تبناها القديس أوغسطين* وحركت فكره السياسي، ومن التنقل لكثير من المدن طلبا في إدراك الحقيقة، إضافة إلى أصول فلسفية متنوعة أفلاطونية وافلوطينية ومانوية ورومانية كان ذاك هو القديس أوغسطين الذي بدوره دافع على المسيحية بأسلوب حجاجي وعقيدة إيمانية

* القديس أوغسطين: (354 – 430م) SAINT AUGUSTIN ولد في طاجستا بسوق أهراس حاليا في منتصف القرن الرابع ميلادي درس بمدينته وانتقل إلى بعض المدن مثل: قرطاجة تعلم الأدب والخطابة كان أبوه رجل وثني وأمه قديسة مسيحية نشا على المانوية ثم ارتد عنها واهتدى إلى المسيحية من وراء نصح أمه وأستاذه القديس أمبرواز كان متشبعا بالأدب اللاتيني وكرس نفسه لخدمة المسيحية ومن أهم مؤلفاته: الاعترافات وكتاب مدينة الإله.

خالصة ودعوى إلى التعقل والتعفف والعدول عن الشهوات، إضافة إلى إحياء الكتاب المقدس والدعوى إلى انتظار مملكة المسيح المفارقة للمدن الأرضية عالم الفساد وبطلان الملة، وبعد دراسة كلفته سنوات يكتب مؤلفه الموسوم بمدينة الإله الذي يتكون من اسطقسات متنوعة، وان عبر مفهوم الاسطقس عند الفلاسفة الطبيعيون الأوائل على العناصر التي منها يتكون العالم، ومكوناته داخل مدينة الإله هي توازن بين الفلسفة السياسية واللاهوت وفلسفة التاريخ والعناية الإلهية، وفيها الناس فريقان الأول يسال عن طلب الخيرات المادية ومحبته تميل إلى تقديس الذات وقوته ظرفية ورمزه الإمبراطوريات السابقة والإمبراطورية الرومانية وخلوده ظرفي وعالمه ارضي.

أما الفريق الثاني يسال عن طلب الخيرات السماوية ومحبته وقوته جوهرية تكتمل بنزول المسيح ورمزه أورشليم المقدسة وخلودها سرمدي، وكل فريق يجد صورته الأولى في تنظيم عشيرة الملائكة بعد أن شقوا عصا الطاعة وانقسموا إلى طائفتين منهم الأخيار ومنهم الأشرار وكل طائفة تتجسد في مدينة وبينهما صراع وحروب يفصل فيها المسيح ليغلب الحق السماوي للمدينة الإلهية على طيش وبطش المدينة الأرضية، فكانت بذلك مدينة الإله بالقدر الذي هي بحث عن تجاوز ما هو كائن جراء انهيار روما والنزاع الديني القائم، فهي تطلع ونظرة لما ينبغي أن يكون عليه الوضع فصار أوغسطين ينتهج قيما معيارية ترفعه إلى عالم المثال المفارق للواقع فسار على نهج أفلاطون في تصوره للحياة الفاضلة واتصل بعالم اليوتوبيات، وإيديولوجيته تنطلق من الواقع لتنفتح على التاريخ العالمي في صورة سياسية واجتماعية تقتبس من اللاهوت وتسير وفق مخطط العناية الإلهية.

لذلك كان توظيف اليوتوبيا عند أوغسطين له ما يبرره خصوصا وانه يمس جوانب فلسفية تعود إلى صراع الخير مع الشر داخل التعاليم الأخلاقية وسياسية تحيي موقع المدينة الفاضلة بين التأمل لتجاوز الواقع وبين تهميش الواقع والإبحار في الخيال لذلك لاقت اليوتوبيا انتقادات، ويعود إلى الجانب الروحي الذي ينطلق من الخطيئة ويمر بطريق الالم ليحقق في الأخير الخلاص.

لذلك فالكثير من سبب يدفع بنا إلى اختيار البحث خصوصا الإسقاط اليوتوبي على مدينة الإله فمن ناحية نحاول تسليط الضوء ولو بالقدر القليل على فلسفة أوغسطين السياسية،

وكيف استخدمت فيما بعد لتبرير التيولوجيا لتظهر الأوغسطينية السياسية فيما بعد، ومن ناحية أخرى نحاول ربط الفيلسوف بعصره فان كانت مدينة الإله تعبير عن تجاوز الأوضاع القائمة داخل روما فلن توجد إذا استمرت سلطة الإمبراطورية، أما إذا كانت هي انتقاد للوثنية وإحياء للمسيحية فنبحث في هذا المشروع البديل الذي كان مثاليا في ذهن صاحبه فقط وهل حقيق التغيير تكون بالميدان أم بالطموح النظري؟ وهذا ما يزيح المدينة الإلهية في سلسلة اليوتوبيات التي تقفز من المكان إلى اللامكان، كما يدفع إلى اختيار البحث هو الكشف على نمطية العلاقة بين مسار التاريخ والفكرة الروحية الدينية المرتبط بالخلاص وهذا يعيد الأقلام للحديث عن فكرة شعب الله المختار، فكل امة تنتظر الخلاص وتخفي ضعفها وراء حياة تنتهي إلى الزهد والتصوف جاعلة علة الفساد هي من الشر.

ومن دوافع اختيار الموضوع توضيح علاقة السلطة الزمنية بالدينية عند القديس أوغسطين وكيف يحضى الأبرار بالسعادة في نهاية التاريخ ويستسلم أهل المدينة السماوية لضربات وقهر أهل المدينة الأرضية الأمر الذي يجعل أنصار المدينة الطوباوية أما من القلة المستضعفة المتزهدة في الدنيا ولم تساندها الظروف فوجدت خلاصها وملجاها الامين في الجانب الروحي، وإما العودة إلى القوة للقضاء على الخطيئة، وبين المدينتين زمن من العذاب والصراع وما على الرعية من سكان المدينة السماوية إلا الصبر ومن وراء هذا نبين أثر الفكر الأوغسطيني في القرون الوسطى.

وبما أن اكبر الفلسفات ذات الشأن ليست تلك التي أجابت بل التي أحسنت وضع السؤال والإشكال ونعود من وراء هذا التمهيد وأسباب واختيار الموضوع مثلما تبدأ الفلسفة بالتساؤل حول التوظيف السياسي لليوتوبيا عند القديس أوغسطين هذا التساؤل يصل بنا عند حدود الإشكالية التالية:

إذا استمرت حضارة الإمبراطورية الرومانية في توسعها وبلوغها مرتبة العالمية فهل كان القديس أوغسطين يكتب مؤلفه مدينة الإله ؟ أم يعتبر روما هي المدينة الخالدة وهي كل متكامل بين الجانب المادي والروحي؟ وهل سقوط روما الذي لم يقبله كل وثني كان أم مسيحي حتى أوغسطين نفسه هو الذي دفع به إلى ميدان الفلسفة السياسية؟ أم اتهام المسيحية هو المحفز وراء التبرير الاوغسطيني؟

وإذا كان اتهام المسيحية والدفاع عنها هو ما نجده بين طيات فكر أوغسطين السياسي الذي يرتكز على الجانب الروحي، فهل نصنف المؤلف إلى جانب الفكر الديني أم داخل ميدان السياسة؟ وكيف فسر أوغسطين مسار التاريخ الذي ربطه من خلال الصراع بين المدينتين؟ وروح هذه التساؤلات الفرعية تصب في قالب واحد نعبر عنه من خلال الإشكال الجوهري:

هل تجاوز الواقع وإعادة بناءه على مختلف المستويات وتأسيس الدولة يكون بالاهتمام بالمكان ومدينة الإنسان أم نجده في مدن خيالية طوباوية؟ وعليه الجهد الذي تكلفه التصورات الفاضلة للمدينة لو اتجه نحو الواقع لأحرز التقدم وهذا ما يعاب على أصحاب المدن الفاضلة التي تهمش الواقع وتصور إنسان خارق في مجتمع مثالي معقم من كل الشرور وعليه لا غرابة من موقف الوضعية الذي ينتقد الإسراف في التصورات الفاضلة والإعراض عن الواقع، إضافة إلى أن القول بنهاية التاريخ والترويج لفكرة الخلاص هل هذا فيه تخدير للرعية ودعوى إلى تبرير السلطة الدينية ريثما يحل المخلص؟ ام يجب العمل للتحرر ريثما يحل زمن الخلاص؟ وهذا ما نجده مع مختلف التصورات الروحية والمعتقدات التي تجد الدين مأوى ومنفى لسد الضعف.

ولإيجاد تفسير للإشكالية على الأقل وللبحث عن حلول لها في دراستنا للتوظيف السياسي لليوتوبيا عند القديس أوغسطين تطلب منا هذا البحث اعتماد مناهج متعددة للوصول إلى غاية واحدة، فاعتمدنا على المنهج التاريخي بما يناسب لدراسة تاريخ الرومان وضبط حقيقة المدينة قبل أوغسطين الذي نجده يعود إلى الاستشهاد بالحضارات السابقة التي عدها نماذج بمدن أرضية خلت.

مثلما اعتمدنا على المنهج التحليلي والنقدي لتحليل الخطابات الاوغسطينية، والكشف عن ما تخفيه وراء رموزها وتبيان أبعاد مدينة الإله وتجليتها على المستوى الديني، والتاريخي والسوسيولوجي والسياسي.

كما اعتمدنا على المنهج المقارن لا سيما وان المدينة الاوغسطينية تستلزم مقاربتها مع المدن الفاضلة والويوتوبيات سواء السابقة للكشف عن الإرهاصات، أم اللاحقة للكشف عن حضور و تجليات إيديولوجية الفيلسوف، إضافة إلى المقارنة بين أوغسطين وغيره من

الفلاسفة وكيف مزج التصورات الأفلاطونية مع الافلوطينية، والمانوية وأسفار العهد القديم والبشارى الجديدة مع الإنجيل.

وتطبيقات هذا المنهج الذي من خلاله نحاول السير للإجابة على الإشكالية المطروحة في بدء الكلام تطلبت منا من ناحية المحتوى الهيكلة التالية: فمن حيث العموم ينقسم البحث إلى ثلاثة فصول، وتحت كل فصل تندرج مباحث فرعية، والمباحث بدورها تشتمل على مطالب للتوضيح أكثر، أما **الفصل الأول** يدور حول مفهوم اليوتوبيا وإرهاصاتها عند القديس أوغسطين وفيه ضبطا واصلنا مفهوم الطوباوية لغة واصطلاحا وفي العلوم الاجتماعية والإنسانية وفلسفيا، كما بينا تاريخ المدينة الفاضلة قبل القديس أوغسطين وتأثيره على مدينة الإله من خلال الحديث عن اليوتوبيات في الفكر الشرقي وعند اليونان وفي العصور الوسطى المسيحية.

ثم انتقلنا إلى توضيح الإرهاصات الفلسفية للمدينة الفاضلة عند القديس اوغسطين والمتناثرة بين المنطلق الفلسفي، والمنطلق الديني بين العهد القديم والجديد، والصراع بين الوثنية والمسيحية إضافة إلى مسالة التوفيق بين الحكمة الفلسفة اليونانية وبين تعاليم المسيحية، لنصل إلى المنطلق الأدبي الفني لمدينة الإله من خلال الحديث عن التحولات التي يعرفها الإنسان ومدى حضور هذه التحولات داخل المدينتين الأرضية والسماوية وكيف أن إتباع الشهوات والشيطان يمسخ الإنسان والعودة إلى الحقيقة تتطلب الألم وإحداث قطيعة مع الشهوات، ثم بينا المنطلق الواقعي الذي يوضح فيه القديس قيام الإمبراطورية الرومانية وتوسعها وكيف آلت إلى التراجع كل هذا اثر في بناء روح المدينة المثالية لنصل من وراء هذا كله إلى توضيح إيديولوجية الدفاع عند أوغسطين المزدوج بين الدفاع عن المسيحية والدفاع عن سقوط روما.

أما **الفصل الثاني** فنعالج فيه جوهر الصراع بين المدينتين الأرضية والسماوية ويحتوي على ثلاث مباحث، الأول نذكر فيه المدينة والتاريخ، وكيف بدء القديس أوغسطين بالتنظير لمدينة الإله إضافة إلى تزامن سقوط روما مع وانتشار المسيحية لنصل إلى ضبط مفهوم المدينة وحقيقتها عند أوغسطين، والمبحث الثاني نعالج فيه بنية المدينة الإلهية انطلاقا من محاكاتها لعشيرة الملائكة وصولا إلى البنية الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، ووضحنا

النزاع والصراع بين المدينتين، والمبحث الثالث يدور حول تجليات ومستقبل المدينة الإلهية ويشتمل على المطالب التالية، أولا نذكر مستقبل المدينة الإلهية ونصرتها على المدينة الأرضية، ثم نبين خلاص المسيح وسعادة الأبرار لنصل إلى غائية التاريخ المسيحي ونبين كيف تحولت العناية الإلهية إلى تيولوجيا أو ما يعرف بالاوغسطينية السياسية Augustinisme Politique لاحقا واتخذنا لهذا نموذج السلطة الروحية عند القديس غريغوري Grégoire والقديس توماس الاكويني Saint Thomas D'Aquin، وبعد هذا نتجاوز اليوتوبيا بالنظرة الواقعية وانتقينا لهذا نماذج بين كل من ميكيافلي Machiavel Nicolas وتوماس هوبز Thomas Hobbesواسبينوزا Baruch Spinoza .

<u>والفصل الثالث</u> نبين فيه تجليات ومستقبل المدينة الإلهية الاوغسطينية وكيف تجدد القول باليوتوبيا رغم ما لاقته من انتقادات واخترنا لذلك نموذج السلام العالمي الذي روجت له كانط Kant Emmanuel وبرتراند راسل Bertrand Russell ، لنبين كيف تتحول اليوتوبيا إلى أفيون يخدر الشعوب إذ يرفع أنظار الضعفاء من القوم إلى السماء لانتظار المخلص والنصر ومثل هذا الحال هو قبول غير مباشر بالضعف وقابلية للانقياد روجت لها المسيحية بالقطيعة الابولونية مع الشهوات الديونيزيوسية.

أجل هذا ما أفاض انتقادات الفلاسفة للأخلاق المسيحية التي صورت الإنسان النبيل الذي يفضل أن يقع عليه الظلم بدل من أن يظلم الآخرين، وأورثت الضعف وجلبت الهزال السياسي وزادت في خدمة الكنيسة التي طغت وحجبت نور الحقيقة عن العصور الوسطى الأوروبية، بالقدر الذي يجعل الفلاسفة ينعتونها بعصور الظلمات، وهذا ما وضحناه من خلال فلسفة الانتظار عند الأفراد.

والبحث في فلسفة القديس أوغسطين سواء من الجانب الديني أو السياسي أو فلسفة التاريخ أتى أكله وكان قبلة لمختلف الدراسات السابقة سواء من خلال المؤلفات الفلسفية أو الرسائل والبحوث الأكاديمية، لا سيما وان للفيلسوف حظه من الإقليم هو انتماءه إلى الجزائر، وله نصيبه من القداسة فقد كان أسقفا في الكنيسة الكاثوليكية، كما يعتبر مرجعا في البحث عن علاقة السلطة بالدين وتفسير مسار التاريخ، أو ما يعرف بلاهوت التاريخ السياسي، فاهتم اندريه موندوز بالفلسفة الاوغسطينية مثلما اهتم بها اتيان جيلسون Etienne

Gilson وعلي زيعور Ali Ziaaor إضافة إلى تطرق الرسائل والبحوث الأكاديمية لجوانب عدة لفلسفة أوغسطين سواء الأخلاقية، أو نظرية المعرفة وفلسفة التاريخ والسياسة.

وفي بحثنا حول التوظيف السياسي لليوتوبيا عند القديس أوغسطين من خلال مدينة الإله اعترضتنا بعض الصعوبات خصوصا أمام تداخل الجانب الديني والفلسفي عند القديس فهو أميل إلى الدين وله صلة وثيقة بالفلسفة والسياسة مما يجعل البعض يعتبرونه رجل دين والبعض الآخر ينعتونه بالفيلسوف، وتشابك فكره يستدعي التخصص في جزء معين، إضافة إلى مزج أوغسطين بين الفلسفة والسياسة والتاريخ يجعل البحث عرضة للانزلاقات من الفلسفة السياسية إلى فلسفة التاريخ وأيضا فلسفة الأخلاق لان مؤلف مدينة الإله كل متكامل لا يجزأ.

وعلى العموم فمدينة الإله عند القديس أوغسطين وان انطلقت من تبرير المسيحية فإنها انتهت إلى العالمية وعالمية الفكر اشد وقرا من عالمية الاستعمار التي بلغتها إمبراطورية روما فأعمال الفيلسوف تطل على فلسفة الحضارة والتاريخ والسياسة، إضافة إلى ادلوجتها الواقعية التي تكتسي ثوب الطوباوية من خلال بحثه عن الإنسان الأخلاقي الذي ينتصر على الشرور ويجعل إرادته تذوب في الله ليظفر بخلاص المسيح، لكن هذا الخلاص كان بمثابة السم في العسل إذ استخدم لمقاصد تخدم الكنيسة الكاثوليكية التي طغت باسم العناية الإلهية والقول بالتفويض الإلهي.

الفصل

الأول

المبحث الأول: مفهوم اليوتوبيا

1- لغة

2- **اصطلاحا**

3- مفهوم اليوتوبيا في العلوم الاجتماعية

3. 1: في علم الاجتماع السياسي

3. 2: في العلوم السياسية

4- المفهوم الفلسفي لليوتوبيا

المبحث الثاني: المدينة الفاضلة عبر الفكر السياسي

1- يوتوبيات الحضارة الشرقية

2- اليوتوبيات في الفلسفة اليونانية

3- يوتوبيات العصور الوسطى

المبحث الثالث: إرهاصات اليوتوبيا عند القديس أوغسطين

1- المنطلق الفلسفي

1. 1 : الموروث الأفلاطوني

1. 2: الموروث الشيشروني

1. 3: الموروث الافلوطويني

1. 4: الموروث المانوي

2- المنطلق الديني

2. 1: البعد اليهودي المسيحي

2. 2: الصراع بين الوثنية والمسيحية

2. 3: التوفيق بين الفلسفة والمسيحية

3- المنطلق الأدبي والفني: التحولات عند ابوليوس

4- المنطلق الواقعي

4. 1: قيام وتوسع الإمبراطورية الرومانية

4. 2: التراجع الروماني ونمو فكرة المدينة الفاضلة
المبحث الرابع: إيديولوجية الدفاع عند القديس أوغسطين
1- السياق الديني والواقعي للتبرير الاوغسطيني
2- السياق التاريخي للتبرير الاوغسطيني

المبحث الأول: تأصيل المفاهيم

مفهوم اليوتوبيا:

4- لغة:

الطوباوية مصطلح دخيل، ونقول طوبى وطوباوية من طوبيا في اليونانية يوتوبيا وهو ما معناه اللامكان، وفي لسان العرب لابن منظور، نجد مفهوم الطوبى من الطيب حيث كان أصله طُيبي فقلبوا الياء واو للضمة قبلها، ونقول طوبى لك وطوباك، وتقول العرب طوبى لك ولا تقول طوباك، وطوبى شجرة في الجنة، وفي القرآن الكريم يقول تعالى: "طوبى لهم وحسن مآب"* وجاء في التفسير عن النبي (ص) أن "الطوبى شجرة في الجنة وقيل طوبى لهم أي حسن لهم"[1]، كما نجد الطوبى فُعلى من الطيب، ولذلك نقول استطاب الشيء أي وجده طيبا، ومصطلح يوتوبيا دلالته هي اللامكان "حيث استخدمه أول مرة توماس مور TOMAS MORE في مؤلفه حول مدينة خيالية"[2] وهذا الاستخدام يدل على الجنة التي بشر بها الفلاسفة.

"وطوباوي الجمع طوباويون، وفي المنجد تدل الطوبى على الغبطة والسعادة والتطويب احتفال كنسي يمنح للبابا وبنيه اللفظ متكونة من شقين لا، ومكان ومن ثم فاليوتوبيا تعني ما ليس بمكان"[3]، وجوهر الخيال واستعمال اللفظ كان واسعا داخل اللغات الأوروبية ليصور بين طياته صورة المجتمع المثالي الذي فيه تتحقق كل القيم، ولا وجود للشرور والأنانية والدسائس أو بعبارة اقرب يغيب فيها طبع الذئاب الذي طالما تحدث عنه توماس هوبزTOMAS HOBBES "ومثل هذا المجتمع لا يوجد في بقعة معينة من بقاع الأرض، والفكرة الأساسية في هذا النوع من الكتابات هي اقتراح للنظام الأمثل للحكم إذ يوفر ويضمن العدالة للجميع"[4]، وتدل الطوبى في اللغة على الذين يرسمون المدن الفاضلة اللامكانية

---

* سورة الرعد، الآية 29.

[1] ابن منظور، لسان العرب (ط 1؛ بيروت: دار صادر، 2000) مج 9، ص 168.

[2] وهبة مراد، المعجم الفلسفي (دط؛ مصر: دار قباء للطباعة والنشر1998) ص 425.

[3] حنفي عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة (ط 3؛ مصر: مكتبة مدبولي 2000)، ص 498.

[4] لالاند اندرية، الموسوعة الفلسفية، تر: خليل احمد خليل، (ط 1؛ لبنان: منشورات عويدات، 1996)، ص 1519.

"ومنها الطوباوي بمعنى ما هو غير متصور بمكان لعالم اجتماعي وسياسي"[5] والمفهوم معرب يصور لنا مجتمع خيالي فيه ما ينبغي أن يكون وداخله تطيب الحياة للجميع.

5- اصطلاحا:

اليوتوبيا هو لفظ أريد به التعبير عن كل ما ليس بمكان، ولا يشغل حيزا ملموسا، واستعمل توماس مور اللفظ للتعبير عن الأرض الخيالية، ويطلق المصطلح أيضا على المثل السياسية والاجتماعية التي يتعذر الوصول إليها لبعدها عن أرض الواقع شأنها شأن الأفكار الكثيرة المفارقة للواقع، مثل السلام العالمي، وفكرة المشاعية، والمساواة "والطوباوية هي تعبير عن رؤى وتطلعات الشعب الاجتماعية ضمن الفكر السياسي قصد تحقيق النهوض الهادف إلى وضع نظام جديد"[6] وجوهر هذا النظام هو اللامكان وعالم المدن الفاضلة والخيال السياسي.

6- مفهوم الطوباوية في العلوم الاجتماعية:

1/3 الطوباوية في علم الاجتماع السياسي:

تطلق كلمة الطوباوي في ميدان علم الاجتماع السياسي "على المجتمع الخيالي الذي يعيش أفراده دون دون نزاع أو صراع كما تستخدم الكلمة اليوم للدلالة على مشروع النهوض الذي يستحيل تطبيقه الهادف إلى وضع نظام لم يوجد بعد"[7]، وكل مجتمع في قيمه يسعى إلى تامين شروط الاستقرار حتى وان كانت خيالية بنوع من السحرية تتجاوز دسائس وشرور الأفراد لتجسيد عالم القيم أخلاقيا وسياسيا واجتماعيا.

2/3 مفهوم الطوباوية في العلوم السياسية:

هي عبارة عن هدف ورغبة ليس في المقدور ولا في الإمكان تطبيقها، لا الآن ولا حتى بعد الآن "وتطلق التسمية على الفلسفات المثالية لبعدها عن طبيعة البشر وعدم اطرداها واتفاقها مع مجمل شروط الحياة"[8] والفكر الطوباوي مضاد للفكر الواقعي، وهي تصور ينحو نحو إقامة مشروع لحياة سياسية أفضل وتوسع استخدام وتوظيف اللفظ عند أكثر من مفكر

---

[5] L'Affite Jacqueline et des autres, dictionnaire de philosophie, (2ème ed ; Paris : ARMOND COLIN, 2002), p 302.

[6] بدوي عبد الرحمن، ملحق موسوعة الفلسفة، (ط 1؛ بيروت: المؤسسة العربية للنشر، 1996)، ص 374.

[7] بدوي عبد الرحمن، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، (د ط؛ بيروت: مكتبة لبنان، د س)، ص 437.

[8] المرجع نفسه، ص 498.

وفيلسوف، ومن ذلكم تصور القديس أوغسطين، لمدينة الإله، تصورا مثاليا فاضلا همه إبطال سهام الاتهام للديانة المسيحية كونها لعنة عجلت بتدهور وأفول الحضارة داخل الإمبراطورية الرومانية، وبذلك فالطوباوية هي تجديد سياسي أراد به القديس أوغسطين إرجاء القوة والنصر في نهاية التاريخ، أما الحضارة الأرضية ما هي إلا حالة عرضية تغلب كفة الشيطان عن محبة الله، فوعد أوغسطين بالخلاص لتجاوز نكبة سقوط روما.

7- المفهوم الفلسفي لليوتوبيا:

اما من الزاوية الفلسفية فيطل مفهوم اليوتوبيا على مشارق ودلالات عديدة، فنجدها ترادف كل كلمة لمختلف النقائص البشرية، إذ الحياة الفاضلة والقول باللامكان هو تجاوز لتدني الحياة فتأمل بذلك مثل هذه التصورات إلى إيجاد البديل من القيم الاجتماعية والأخلاقية.

كما أريد بالمصطلح أيضا التعبير عن الفلسفة التي لا تتصل بالواقع، وتتجسد فقط من خلال مدن لا وجود لها إلا في وجدان وذهن صاحبها، وان كان لتوماس مور مؤلف اشتهر به في هذا الشأن، فان المستقرئ لتراث الفكر السياسي يألف صورا عديدة لأضرب اليوتوبيا والمدن الفاضلة عبر التاريخ، ففي الفلسفات الشرقية برع الحكيم كونفيشوس (489 – 551 ق م) Confucius ثم بعده تلميذه مينيشوس في سن نواميس الحياة الفاضلة بعيدا كل البعد عن الاحتقار والصراع، وبذلك كانت المدن الفاضلة ومنذ مهد الحضارة الشرقية بحثا عن الاستقرار والعدالة العذراء ولو في مدن لا مكانية "فاختار الحكيم الهندي بوذا موضعا أطلق عليه اسم حديقة الغزلان رأى فيه ضالته المنشودة والمدينة الفاضلة أهلها أشبه بسوبرمان كأنهم معقمون طبيا"[9] ومع الفلسفة اليونانية استطاب الحديث عن اليوتوبيا كانفلات أراد به أفلاطون (347 – 427 ق م) Platon من خلال مؤلفه الموسوم بالجمهورية عن فساد تدبير السوفسطائين حيث نعتهم بالرعاء، كما تحدث لاحقا الابيقوريون والرواقيون عن العصر الذهبي وفيه يسود القانون الطبيعي. وفي حديث ماريابيرني لويزا عن تاريخ المدن الفاضلة في العصر اليوناني حيث يتميز هذا الفكر فلسفيا وسياسيا بقدر كبير من الثراء والتنوع يجعله

---

[9] عبيد إسحاق، المدينة الفاضلة، (ط 1؛ مصر: دار الفكر العربي، 2000)، ص 3.

من أهم المصادر التي ألهمت الكتاب اليوتوبيين طوال العصر"[10]، وفي العصور الوسطى نجد كثيرا من التصورات عن الحياة الفاضلة ومن ذلك تعبير القديس أوغسطين في مدينة الإله عن وجود حياة فاضلة أبدية وما الحضارة الرومانية سوى مدينة أرضية مآلها الانحطاط والتدهور واستعار أوغسطين هذا من أصول أفلوطينية تجعل الحضارة شانها شان الجسد منتقلا من صبى إلى كبر فبعدما كانت روما هي إمبراطورية عالمية أصابها الهزال في ظرف وجيز على يد الهمجي ألاريك*، وأراد أوغسطين بالمدينة الفاضلة أن تكون تاريخا متجاوزا لتاريخ الانقسام الروماني وتبرئة الديانة المسيحية المتهمة، غير أن الأمر يختلف ولا يتعلق البتة بتفكير مجرد شبيه بالذي نجده عند الفارابي "أو توماس مور الذي يحملنا في رحلة نحو جزيرة خيالية بحثا عن المدينة المثلى"[11]، وخلاصة ما تقدم من كلام أن حقيقة التاريخ عند القديس أوغسطين تبدأ من الله وتنتهي إليه "وأصول الفكر الطوباوي في العصور الوسطى تعود إلى تصورات العهد القديم"[12]

وعند فلاسفة الإسلام نجد حديث الفارابي في آراء أهل المدينة الفاضلة مثل مؤلف تدبير المتوحد لابن باجة والغربة الغربية للسهر وردي، وعند الغرب نجد كامبانيلا يكتب قصص أخرى ذات طابع خيالي تتضمن أفكار تتعلق بالحقوق الطبيعية والسلم[13] وشاع المفهوم أواسط الفلاسفة فكان اللامكان حتمية لتجاوز ما هو كائن قصد إحداث تغييرات على المستويات الأخلاقية والاجتماعية والسياسية لتبرر بذلك المدن الفاضلة نواميس القيم العليا في مدن لا مكانية يتعذر أن نجد مكانا خاصا بها نظرا لطبيعة الإنسان، ومثل هذا انطبق على أوغسطين، حيث حاول في مدينة الإله الانسلاخ من الشر وتحقيق البديل السياسي الذي من خلاله عوض سقوط الإمبراطورية الرومانية، ووضح بان التراجع كان مقابل التقدم والانهماك في محبة الذات لدرجة احتقار الله لذلك يفصل المقال أوغسطين معتبرا أن المدن تشيد بأهلها وليس بالحجارة وكل فرد هو في صراع بين محور الشر والخير ودوما بعد

---

[10] بيرني ماريا لويزا وآخرون، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، تر عطيات أبو السعود، (د ط؛ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون ، 1998)، ص 25.

* ألآريك طاغية همجي تزعم قبائل القوط التي دوما شنت هجومات على روما وفي المرة الأخيرة وبالضبط في حدود 410 م احرق ألاريك جيشه روما في ظرف ثلاثة أيام، وهو زعيم قبائل القوط الجرمان الغربيون: انظر عبد الرحمن بدوي ص 38.

[11] فاطمة الزهراء بوعياد ، أوغسطين افريقية وعالمية، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى ج 2

[12] Jean Servier, histoire de l’utopie, (France : Gallimard, 1967), 67.

[13] صليبا جميل، المعجم الفلسفي، ص 498

نكبات متتالية للخير فان الغلبة في النهاية هي حليفة محبة الله في المدينة السماوية المتعالية عن دنس المادة وبذلك روجت مثل هذه الأفكار إلى إرجاء الخلاص وتغذية الفكر بمدن خيالية لا مكانية، وجودها فقط في دهن صاحبها و إيديولوجيتها هي تبرير للواقع.

المبحث الثاني: المدينة الفاضلة عبر الفكر السياسي

المطلب الأول: يوتوبيات الحضارة الشرقية

سر تامين الحياة الرغدة والعيش مع ومن اجل الآخرين في مجتمع مثالي ثابت ثبات القيم الإنسانية بين الأفراد. كان هذا الشغل الشاغل في المجتمعات الشرقية عبر تعاقب الحضارات، سواء في الهند أو الصين أوفي مصر الفرعونية، بذلك تجلت أشكال عديدة للتنظير السياسي على أيدي الحكماء، وعلى بساطتها تطمح إلى تحقيق العدالة أو فيما أسماه أهل الاختصاص بالماعت*، فنجد بواكير الفكر السياسي الطوباوي الفاضل حيث يملأ كل فرد قلبه بالمودة أثمن من أن يملأ خزانته بالذهب، كان هذا ما أوصى عليه الحكيم المصري ابتاح حوتب وإرهاصات المدينة الفاضلة تحدث عنها الحكيم كونفشيوس مثلما استلهمت فكر بوذا وزرادشت، وغيرهم في تصوراتهم للحياة الخيرة الفاضلة التي يكفيها من شروط الاستقرار أنها لا تحتاج لا إلى طبيب ولا إلى قاض، فالعدل متوفر وصحة الجسد هي من التغلب على الشر وتحقيق الاطمئنان النفسي.

"فأهل المدينة الفاضلة كما تصورهم بوذا معقمون طبيا"[14] أي لا غل بينهم. وبالطبع فالبحث عن الحياة الفاضلة حقيقة حولها قد لا يختلف اثنان "فمنذ القديم كان الإنسان يحلم بنظام مثالي يكون فيه كل فرد حر و مسؤول عن نفسه، حرية تامة ومسؤولية مترتبة عن تلك الحرية، وان يكون المجتمع منظما تنظيما رفيعا"[15]

وخلاص المجتمع لن يتحقق إلا من خلال الانتقال غالى الحياة الفاضلة، وجسد بوذا صورة الخلاص باكتمال النفس الزكية التي تهتدي إلى الحب والى الغفران وتتجاوز الشر حتى تفلح الذات الإنسانية في هزيمة ذاتها واستئصال الشر ، وهزيمة الذات تؤسس للأخلاق والتسامح وتوفر الحياة المثالية في عالم الأخر الاجتماعي بعيدا عن الغدر الفوضى وعلى هذا النحو من التصورات الفاضلة للحياة في الحضارات الشرقية نجد القديس أوغسطين،

---

* الماعت: أبدع الإنسان المصري مفهوم الماعت بمعنى العدالة والقسط والنظام بين الأفراد ليكون هو أساس الاستقرار السياسي بين الأفراد وساد في الدولة المصرية ولا يجوز للإنسان المصري الخروج عن الماعت الموجود في كل مكان انظر: مقدمات في السياسة المدنية – عبد القادر بوعرفة دار الغرب.

[14] عبيد إسحاق، المدينة الفاضلة، ص 03.

[15] طالبي عمار، مدخل الى علم الفلسفة، (د ط؛ الجزائر: دار القصبة، 2006)، ص 82.

يمنح الأولوية لمحبة الإيمان وهو القائل في الاعترافات، أن وزني هو حسب حبي وهو الذي يبعدني عن دنس المادة.

كما ورد في بدء الكلام فاليوتوبيات في زاد الفلسفة لها من القدم ما تتطلبه الحاجة الملحة الى حياة متكاملة، فعلى غرار تصور الحكيم بوذا لليوتوبيا نجد كونفشيوس في فلسفته السياسية همه الوحيد إيجاد الإنسان الكامل الذي يحقق كمال المجتمع وانسجامه، إذ بفضل الوداعة نتغلب على الشدة "فكان كونفشيوس على اقتناع كامل ويقين بالإنسان الذي يعمل على إيجاد المجتمع المنظم القائم على أساس القيم الأخلاقية الفاضلة"[16] وجوهر الفلسفة السياسية عند كونفشيوس طبعا هو البحث عن تجاوز اختلال سلوك الجماعة لا سيما على مستوى التدبير السياسي، والداء من وراء هذا كله هو الانغماس في الملذات والدواء يكون بتطهير النفس وتجاوز الطغيان، ويسير مينشيوس على خطى كونفشيوس في بنائه للحياة الفاضلة قصد تامين توازن القيم، "وتجسيد الدولة في شكل مثالي لإيجاد الحاكم العادل والحياة الاجتماعية والأخلاقية إنما هو تصور كل فرد واتضحت المعالم لاحقا مع أفلاطون في الفلسفة اليونانية"[17].

وخلاص المجتمعات من الشرور يتحقق داخل الحياة الفاضلة فحسب كونفشيوس "فالحاكم المثالي يستطيع وضع النظم الفاضلة بمراعاة مصالح العامة من الناس"[18] ومثل هذه الأقاويل وحديث الألسنة على أئمة الحكمة والتنضير في الحضارات الشرقية كانت الزاد الكافي وأمل المستضعفين من الرعية في السماء دوما في انتظار المخلص الذي يحقق الإنصاف داخل المجتمع، واتصلت هذه النظرة أكثر بفلسفة التاريخ حيث أصبح له غاية لها ومن اجلها وجد لتحقيق حياة عذراء في النهاية حتى وان قيل عنها أنها في مدن من صنع الورق وغذائها تحرر من الواقع وحيزها هو اللامكان ألا أنها تطمح إلى تحقيق حياة تضمن إنسانية الإنسان وهذه كانت مهمة موكولة لحكماء الشرق ممن اتخذ على عاتقه مسؤولية رعاية العامة ومصالح الناس بعيدا كل البعد عن أشكال الصراعات وهكذا بني كونفشيوس، السياسة على أساس الطاعة جاعلا بذلك القيادة بالفضيلة وليست بالقوة، وبذلك يسوس

---

[16] عمر عبد الحي، الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة، (ط 1؛ لبنان: المؤسسة الجامعية، 1999)، ص 180.
[17] النشار مصطفى، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، (د ط؛ مصر: دار قباء 1998)، ص 41.
[18] عمر عبد الحي، مرجع سبق ذكره، ص 218.

الإنسان نفسه بالأخلاق النبيلة، والثقة، إضافة إلى تصورات اقرب منها إلى اليوتوبيا من الواقع نجد فكرة العدالة العذراء والمشاعية، ومن حاد عن هذه النواميس فقد انسلخ عن الفضيلة وإرادة السماء حساسة لهذا مما يثير الأمر غضب الآلهة.

والمستقرئ لتراث الفكر السياسي في الحضارات الشرقية على تعدد اضربها يجد من التصورات الفاضلة ما يراد فها في أكثر من موضع فمحبة الأخر عبر عنها القديس أوغسطين من خلال التسامح والبحث عن الإنسان الفاضل يكون مرهون بمحبة الله ودوما في نهاية التاريخ ما زال حبل الوريد ينبض في هذه الحضارات ليربط صلته بالمخلص الذي يرفع الشرور والجور عن الناس، وصفوة القول فإن بين بنود الفكر السياسي في الحضارات الشرقية إرهاصات الحياة الفاضلة التي تطورت بشكل منهجي في عصور لاحقة هدفها تجاوز ما هو كائن وهذا ما نراه عند حكماء الإغريق في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: يوتوبيات الفلسفة اليونانية

ليس ضربا من العبث أو من قبيل المبالغة نجد المركزية الغربية تزعم في حديثها عن الفلسفة والحضارة مسلمة بأن: الديانة من فلسطين والصناعة من مصر أما الفلسفة فهي من نصيب اليونان من وراء هذا لسنا نهدف إلى تأكيد المركزية الغربية التي ترجع جذور كل معرفة إلي الإغريق، مثلما لا ننوي التأريخ للفلسفة، وإنما كل حديث عن تراث وبذور اليوتوبيا يأتي أكله مع جهابذة الفلسفة اليونانية، في رحلة أعدها الفلاسفة من مدينة الإنسان والنسق إلى عالم المثال والمخيال لتجاوز ما هو كائن وتكون هي المدينة الفاضلة عند الإغريق نوع من السحرية للفرار من حكم الدهماء أو الرعاء مثلما نعتهم أفلاطون فمشهود لفلاسفة اليونان نحت المدن اللامكانية بزمن قبل تصور توماس مور لها، فكان الشغل الشاغل لأفلاطون هو تأسيس مدينة فاضلة في جغرافيا بعيدة مع نشئ جديد يتولاها الفيلسوف الذي أهلته المراحل التربوية وزودته بالحكمة والتجريد وبهما ينفرد عن الغير ويتجاوز سقم المجتمع السفسطائي الذي حول الحرية إلى تصور بهيمي ينذر بقيام الفوضى ويفتح باب الشك والنسبية إلى القيم، وأيضا اهتم أبيقور (341 – 270ق م) EPICURE بالبحث عن الحياة السعيدة من خلال بإشباع الملذات والرغبات الإنسانية.

كما نجد الفلسفة الرواقية تمهد لليوتوبيا من خلال القول الصريح بالعودة إلى الحقوق الطبيعية وتأسيس دولة عالمية تتميز بالشمول وعن هذا كان التنوع في الفكر السياسي اليوناني الأمر الذي جعله من أهم المصادر التي ألهمت الكتاب اليوتوبيين طوال العصور "فقد كان لأساطير العصر الذهبي، وتصورات الدولة المثالية الخاصة في الماضي الأسطوري أو المستقبل البعيد والكتابات النظرية عن فن الحكم تأثير عميق على مؤسسي الدول والمجتمعات المثالية"[19].

بذلك استهلت اليوتوبيا فجرها من البحث عن التنظير للعصر الذهبي قصد تجاوز الفوضى وهذا أهم مطلب احتوته الفلسفة السياسية لتغيير الواقع "فالفلسفة السياسية لا تخرج في نهاية المطاف على احد الاحتمالين: وهي إما أن تكون في حصادها النهائي تبريرا للواقع وللأوضاع القائمة أو أنها دعوى صريحة لرفض هذه الأوضاع وهذا ما ساد مع

---

[19] ماريا بيرني لويزا وآخرون، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ص 25.

أفلاطون"[20]. كما ضمن الكلبيون في فلسفتهم تصورا مثاليا عن بساطة العيش وهذا كله من خلال اللامبالاة والإعراض عن الواقع لبلوغ الحياة الفاضلة، وكانت هذه التصورات أرضية خصبة لتجسيد خيوط اليوتوبيا في العصور الوسطى لكن بهجر الغير وترك الدنيا من خلال الزهد والتعفف،أيضا ترفع القديس أوغسطين عن تقدم الحضارة العرضية مقابل طلب الخلاص في المدينة الجوهرية السماوية موطن الخلود، مثلما ترفع أفلاطون بمعدن الفيلسوف الذهبي وحكمته عن تدبير الفوضى زمان السفسطائيين، بذلك ورث الرومان أفكار وفلسفة الإغريق فلم يكن للرومان فلسفة أصيلة كما يذكر يوسف كرم قائلا: "لكنهم كانوا عالة على اليونان تمذهبوا بالرواقية والابيقورية واقتبسوا بعض الآراء من المدارس الأخرى"[21].

بذلك الفلسفة السياسية عند الرومان هي امتداد لإعمال اليونان بما فيها من انساق للحياة الفاضلة قصد تجاوز الواقع ومن خلال مدينة الإله رفع القديس أوغسطين غل المستضعفين وأرجأ الخلاص إلي صورة روحية تكتمل بنزول المسيح والكنيسة هي الوسيط بين الشعب وإرادة الله، فكان لا بد إذا من التعويض لتجاوز هزيمة روما الإمبراطورية العالمية، إما عن يوتوبيا أفلاطون فقد كان ينتمي إلى أسرة تؤهله إلى استلام الحكم يوما ما بأثينا "لكن الأحوال السياسية والاجتماعية قضت بان يبقى بعيدا عن الحكم لذلك ألف كتاب ضخم اسماه الجمهورية عرض فيه أهم مبادئه السياسية"[22].

واتضحت بوادر الحياة الفاضلة جليا بالشكل المنهجي مع أفلاطون من خلال ثنائية المثل والواقع، عالم الحقيقة وعالم الظل، قصد البحث عن العدالة ولو في صورة مثالية، وإذا كان سؤال أرسطو (322 – 384 ق م) ARISTOTE في مؤلفه "السياسة" ما المدينة؟ فان سؤال أفلاطون ما العدالة؟ "فالعدالة تسوية قضت بها الضرورة الاجتماعية للوصول إلى المدينة السعيدة وقد مدح الشعراء العدالة لذاتها"[23]. والتعبير عن المدينة الفاضلة واحد لكنه اكتسى دلالات متنوعة متعددة داخل منظومة الفلسفة اليونانية، فأراد بها أفلاطون بحثا عن مواصفات وشروط الحاكم المناسب مثلما نوى الكلبيون من وراءها الانسلاخ عن المجتمع

---

[20] اطوني دي كريني وكينيت مينوج، اعلام الفلسفة السياسية، تر نصار عبد الله، (د ط؛ مصر: الهيئة المصرية للكتاب،، 1988)، ص 8.
[21] كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط، (د ط؛ بيروت: دار قلم، د س)، ص 15.
[22] خليل الجر، حنا الفاخوري، تاريخ الفلسفة العربية، (ط 3؛ لبنان: مقدمات في الفلسفة الإسلامية، دار الجيل، 1963)، ص 70.
[23] أفلاطون، الجمهورية، تعريب حنا خباز، (د ط؛ لبنان: دار القلم، د س)، ص 43.

والعيش حسب الطبع البهيمي بعيدا عن دسائس وعدوان الآخرين وتحقيق الحياة الفاضلة، وبحث أبيقور عن درب الحياة السعيدة في عصرها الذهبي، كما كان هم الرواقيون الوصول إلى وحدة عالمية تحقق كمال القيم الإنسانية والرقيب هو التعقل والحكمة فهذا أفلاطون يجعل "المواطنين تحت رعاية الحكمة الفلسفية داخل الجمهورية في تفكير أسطوري من اجل نحت القيم والفضيلة"[24] وعلى العموم أيا كانت نواميس المدينة الفاضلة مع اليونان فقد نهل منها الرومان ما استطاعوا إليه سبيلا وهذا ما نتصفحه من حضور أفلاطوني قوي داخل مدينة الإله لصاحبها القديس أوغسطين وقد ساهمت فتوحات الأسكندر في نشر الثقافة اليونانية "فقد أدت توسعاته الإقليمية إلى انتشار الثقافة اليونانية والفلسفة اليونانية في الشرق والغرب على حد سواء"[25].

فامتدت الدعوى إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية من اليونان إلى الرومان قصد استئصال الشرور وهذا السبب الرئيسي في فساد و بطلان الملة عند أوغسطين وبذلك يكون الداء في الانغماس داخل الملذات والدواء هو من تحقيق التعفف وإعطاء العقل حق الكلمة وحق التأمل للبحث عن مدينة مثالية معقمة من دنس الشرور وخالية من طبع الذئاب مثلما شخص هذا لاحقا توماس هوبز في كتابه التنين.

وإشكال اليوتوبيا التي نشهدها في الحضارات الشرقية أو مع اليونان وغيرهم من الأمم سوا السابقة أو اللاحقة دوما تكرر نفسها لتجاوز ما هو كائن وتبحث عن تحقيق القيم السامية للعيش في حياة اجتماعية متراصة متوازنة في مدينة تنهل شيئا من الأسطورة وآخر من الخيال وفي بعض الأحيان تتصل بالعناية الإلهية وتمر على مسار التاريخ العالمي، فاليوتوبيا تصور ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع حيث تطيب الحياة للجميع دونما استثناءات عارضة جراء الفوارق، ودونما نزاعات فبذلك عبر الكلبيون بان الدولة ليست بمكان معين ولا قانون فحسب "فحيث يوجد الحكماء يؤلفون جماعة واحدة هي المدينة العالمية، فاليوتوبيا

---

[24] Jean Servier, histoire de l’utopie, p 17.

[25] كامل محمد عويضة، اوغسطين فيلسوف العصور الوسطى، (ط 1؛ بيروت: دار الكتب العالمية، 1994)، ص 15.

تجلت أيضا مع اليونان في نظرية الكلبيون السياسية الفاضلة وهي عبارة عن دولة مثالية ترسم خطوط السياسة من خلال نوع من الشيوعية،و المثالية أو ربما نوع من الفوضى"[26].
لذلك تجاوز الواقع جعل حكماء المدرسة الكلبية يعيشون حياة بدائية وفق الطبيعة بعيدا عن القوانين البشرية التي تقيد الحرية عند الإنسان، فنقمتهم على المجتمع تحولت إلى البحث عن بساطة الحياة وقلصت من آفة الطموح المادي فكان ديو جينوس الكلبي ليس له من الدنيا سوى برميل يقضى فيه وقته وزاد زهيد يقتات منه.

أما الشكل الأخر للمدينة الفضيلة أراد به الرواقيون كما ورد في بدء الكلام وهذا من خلال بحثهم عن الدولة العالمية تجاوز الفوارق الإقليمية وتوحيد الفكر ليحيا حسب الفضيلة التي هي قانون ثابت للعالم،فبحثوا عن هذه الدولة التي تتجاوز تباعد الأمصار "وهذه الدولة غذتها أكثر روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط فالمدينة العالمية عند الرواقيين كانت في طريقها لان تصير مدينة الله في الفكر المسيحي"[27]. وهذا الفكر المسيحي يدعوا إلى الشمولية الروحية من خلال التسامح ورفض التفرقة والعداوة والدعوى إلى المساواة لضمان الحياة الأبدية الخالدة في مملكة المسيح.

[26] سباين جورج، تطور الفكر السياسي، تر حسن جلال العروسي، تقديم عثمان خليل عثمان، (ط 4؛ مصر: دار المعارف،الكتاب الأول، 1971)، ص 176.
[27] المرجع نفسه، ص 222.

المطلب الثالث: يوتوبيات العصور الوسطى

وللمعتقدات والتصورات الدينية نصيبها في تغذية روح اليوتوبيا في غائية مرهونة بفلسفة التاريخ أين يعود الحق لكل من ظلم في الحياة الدنيا بقدوم المخلص الذي يعتق مجتمعه من الشرور، ومثل هذا التصور طالما تداول على الألسنة عبر مختلف المعتقدات، فانتظر الزرادشتيون عودة زاردشت، مثلما يرتقب أصحاب الديانات الفارسية رجعت ماني، ومزدك * من اجل تغليب كفة العدل ورفع الأذى عن أتباعه.

وصورة أخرى لمفهوم اليوتوبيا ذات الصبغة الدينية المرهونة بالخلاص نألفها ونلمس توظيفها في المسيحية إبان فترة العصور الوسطى اقترنت باللاهوت وفيها يكون النصر هو حليف محور الخير حسب أوغسطين وهذا ما يبشر به الإنجيل* ويبث تعاليم التسامح ويوتوبيات الفلسفة المسيحية هي امتداد للعهد القديم جوهرها متميز بإدخال مفهوم السعادة بعد الموت "فانتشرت ثنائية القول بالثواب والعقاب وربطتهما بالحياة الدنيا والثقة بالله فالمسيحية أولت الاهتمام بنعيم الآخرة لذلك أحتلت مكانة الرفعة والسمو لطلبها الزهد والتقشف"[28] ففي إتباع المادة والنفس تكالب على الشهوات يكفي لظهور الشرور لذلك يجب الزهد عنها وعلى هذا المنحى يسير القديس أوغسطين شانه شان آباء الكنيسة ممن جعل التعقل يلي الإيمان، وجعل المدينة الفاضلة هي ارض الميعاد ليست كما توقعها الوثنيون مجسدة في الإمبراطورية الرومانية أو الإمبراطوريات السابقة كالإمبراطورية الأشورية فما هي إلا مدن أرضية والخلود ليس من نصيبها بل يكون للمدينة السماوية المتمسكة بالدين والإيمان "فالحضارة تحتاج إلى دين وان موتها وحياتها يتوقفان على ذلك، إذن الحضارة تسقط إذا فقدت دينها وتنتعش إذا تمسكت به"[29]، والتمسك بالوازع الديني هو أساس استمرار المدينة

---

* الانجيل: كلمة الانجيل هي احدى مفردات اللغة اليونانية التي وضعت بها الاناجيل وتعني البشارى الصارة وقد وضعت هذه الكلمة اصلا للدلالة على الرسالة التي كلف اليسوع بتاديتها لشعبه وقوام هذه الرسالة ان يرسخ المسيح يسوع ملكوت الله بين بني البشر فهي اذا ملازمة للمسيح ومدلول كلمة انجيل لم يتسع الا في القرن الثامن في العهد الجديد ليشتمل على الكتب الاربعة المختصة بحياة المسيح وموته وقيامته فالاناجيل اعلان لرسالة المسيح يفم وقلم كل من مرقص ومتى ولوقا ويوحنا فعدة هذه الكتب كلام الله المكتوب وهذا الكلام يكشف عن حقيقة يسوع كلمة الله الحية. انظر الانجيل.

[28] حنفي حسن، يحي هويدي وآخرون، تطور الفكر الفلسفي، (د ط؛ الكويت: مطبوعات جامعة الامارات،1991)، ص 192.

[29] السامري نعمان عبد الرزاق، اضواء على تفسير التاريخ، ط 1؛ الرياض: مكتبة لمعارف، 1994)، ص 11.

السماوية وهذه الرؤيا تقترب إلى العهد القديم* ويوضح أوغسطين انقسام التاريخ بين المدينتين الأرضية والسماوية، فالأرضية رمزها الإمبراطورية الرومانية والسماوية رمزها أورشليم (القدس) وفي مؤلفه الموسوم بمدينة الإله "نلمس أصول للفكر الإسرائيلي حيث يعود إلى حديث مطول يؤكد فيه فكرة الخلاص الأخروي"[30]. جاعلا بذلك الكنيسة الراعي الرسمي لشؤون البشر ريثما تحل فترة الخلاص ونهاية التاريخ فالسعيد فيها هو من عاش وروض نفسه حسب سلم الفضيلة الأخلاقية كون العالم السفلي يحط من رتبة صاحبه فوزن الإنسان هو من حبه على حد تعبير أوغسطين فإذا أحب شيئا مقدسا سما وإذا مال إلى المدنس دنا وفي هذا المنطق توظيف لنظرية الفيض الأفلوطينية التي تجعل المادة سبب الشرور لذلك ففي النهاية تدوم الحياة الفاضلة، وتتلاشى الحضارة الأرضية، فالديانة والعدالة باقية "فالحضارة هي مثل الإنسان تموت لكن ماذا يبقى؟ فقد يبقى الخير الخلاص الأخروي بين البشر"[31].

وما المدينة الأرضية سوى مشهد ظرفي، ومع بداية ذيوع الديانة المسيحية وما تحمله من أسفار تبشر بالعدالة والخلاص فقد نالت إعجاب الضعفاء من الرومان حيث حاولوا تجاوز الحروب وتبديد الذخائر أمام إقدام وطموح الشباب عند روملوس الذي وضع صوب عينيه تحقيق العالمية من خلال التوسع والغزو مما أدى إلى حتمية ضعف وتدهور القوة الرومانية وتأزمت الأحداث السياسية والاقتصادية داخل روما،فليس إذا من الطفرة أو من النشاز أن يتزامن سقوط الإمبراطورية مع انتشار المسحية ففي هذا الوقت عرفت روما طور الأفول فأخر آباء الكنيسة خلاص المستضعفين إلى نعيم الحياة الأخروية ليعوضوا لهم الشقاء في العالم الأرضي وبالتالي تغذت الفلسفة السياسية بروح الحياة الفاضلة، ومقولات الانتظار والدولة المخيال "وهكذا شاعت خطابات المسيح ويذكر أوغسطين أن المسيحيين يتعلقون بحب الإله لتحقيق نموذج المدينة الإلهية الخالدة"[32] وطبعا الخلاص والنصر لا يقدم هكذا بدون جهد وهو ثمرة المكابدة والتألم، وأيضا نصرة محور الخير ومدينة الإله تتطلب

---

* العهد القديم هو الصورة العتيقة للانجيل القائمة على مذهب اليهود، والعهد القديم يشمل التوراة التي تستند إلى عدة كتب منها التوراة وكتاب الأنبياء ولليهود كتاب التلمود يستخرجون منه الأصول والفقه والشرائع انظر: ابن النديم الفهرس، ص 116.

30 Jean Servier, histoire de l'utopie, p 74.
31 Kebir Ammi, THAGASTE ROMAN , (Marsa, de lube 1991), p 141.
32 Ibid, p 142.

محاربة الذات والشهوات وبلاط العصور الوسطى على المستوى الفكري كان وثيق الصلة بالجانب الديني الذي يصور الحياة الأبدية في النهاية الدينية أما الحياة في المدن الأرضية تبقى مسرحا للصراع والنزاع بين الرغبات، بذلك تبرز معالم اللاهوت المسيحي من خلال التقاء تقليدين الأول يوناني خالص يستمد صورة الحياة الفاضلة بالحكمة والعودة إلى عالم المثل مثلما صوره أفلاطون أما التقليد الثاني فهو من إتباع الكتب المقدسة، أي العهد القديم والجديد "فمدينة الإله هي عبارة عن قراءة جديدة لهذا التاريخ لكنها بالتأكيد قراءة موجهة من قبل اللاهوت المسيحي"[33] حيث الفضيلة تمييز بين سبب الهلاك وسر الحصول على مكانة جديدة تعطي لها من القداسة ما يكفي لخدمة المسيح والمماثلة مع مجتمع وعشيرة الملائكة الأخيار" وفي داخل عشيرة الملائكة المقدسة جدا والجليلة هذه الجمهورية السماوية التي يكون فيها القانون تعبير عن إرادة الله والبشرية كلها وبأسرها، خاضعة للحكم الإلهي"[34]. ومن ثمة كان لا بد من وساطة بين الله والبشر وتدخل الكنيسة.

واقترن مفهوم الخلاص والنهاية الدينية في العصور الوسطى بتجسيد الحياة الفاضلة عن طريق علم لاهوت التاريخ السياسي "حيث يستمد هذا اللاهوت إطاره العام من تعاقب ستة عصور من آدم إلى الطوفان، ومن الطوفان إلى إبراهيم، ومن إبراهيم إلى داوود، ومن داوود إلى النفي لبابل، ومن هذا النفي إلى ميلاد المسيح وأخيرا من هذا الميلاد إلى نهاية الأزمنة"[35]. فارتبط التاريخ بالعناية الإلهية في تفسير العالم وتدبير المجتمع حيث وجد الخطاب اليوتوبي متنفسا له وسط الأصول اليونانية الوافدة وأمام الرافد الديني المقدس في العصور الوسطى والفلسفة المدرسية مع آباء الكنيسة.

وان اعتمد بناء الحياة الفاضلة عند اليونان على رمز الأسطورة واقترب البشر من الآلهة فان التصور الوسيطي ذو أصول دينية ربطت السياسة بالدين مثلما ربطت الدين بالدنيا لتحقيق الإنسان الكامل الذي يجسد الخلاص ويجعل الدول تابعة للكنيسة.

---

[33] شاتليه فرونسوا واخرون، معجم المصطلحات السياسية، ص 112.
[34] المرجع نفسه، ص 113.
[35] المرجع نفسه، ص 117.

المبحث الثالث: إرهاصات اليوتوبيا عند القديم أوغسطين

1- المنطلق الفلسفي:

من زاوية الفلسفة ووراء ميل أوغسطين السياسي الذي اتخذ أسلوب دفاعي أكثر يرد على المسيحية المتهمة أمام الوثنيين كونها سبب سقوط الإمبراطورية الرومانية، ومن خلفية عاد بها القديس أوغسطين إلى تراث الفلاسفة، كان هذا كفيلا لبناء مدينة فاضلة بمثابة تاريخ متجاوز لتاريخ ووزنها لا يقل أهمية عن أعمال أفلاطون وغيره فعاد أوغسطين إلى المثل أفلاطون مثلما حذر من إتباع الملذات المادية وهو أمر يقترب إلى المرتبة الدنيا للمادة عند أفلوطين كونها سبب الشرور، دون أن ينسلخ الفيلسوف كل الانسلاخ عن الموروث المانوي الذي شب عليه وعدل عنه وتركه لاحقا وهذا ما يقر به في اعترافاته إذ تجاوز المانوية واهتدى إلى المسيحية،وفي ما يلي نوضح أهم إرهاصات اليتوبيا السياسية عند القديس أوغسطين من الناحية الفلسفية:

1/1 الموروث الأفلاطوني:

سيرورة الفكر السياسي والفلسفي وان صادفت في تطورها بعض القطائع التي السابق عن اللاحق، فإننا في أكثر من موضع نلمس حضور نواميس العصر السابق بقوة في فلسفة أوغسطين، فبين طيات مدينة الإله نتصفح حضور الفلسفة الأفلاطونية بالقدر الذي يجعل صاحبها أفلاطون من مرجعيات أوغسطين خصوصا ما تعلق بثنائية المثل والواقع، عالم الظل وعالم الحقيقة، النفس والبدن، الخير والشر "فالدولة برجالها والأمة بآحادها على هذا المحور يدور القسم الأكبر من مباحث الجمهورية والتاريخ كله شاهد على هذا"[36] فكان توجه أفلاطون يهدف إلى رسكلة رجال عظماء وإعادة تربية الأطفال مثلما توجه نظيره القديس أوغسطين الى توجيه الرجال العظماء على محبة الله وصرف النفس على الشيطان لتفادي النزاعات، ومن مال إلى نفسه فقد عد مواطنا في مدينة الأرض عالم الشيطان التي رغم تقدم عمارتها إلا أنها دولة فانية ومن مال إلى محبة الله فهو من أهل المدينة السماوية وقبل أوغسطين وضح أفلاطون مخاطر العيش وفق الجسد حيث قال في جمهوريته: "إن كل فوائد الجمال والغنى والثروة والقوة الجسدية وكل ما ينتسب إلى هذه الأشياء فانه يفسد النفس

---

[36] أفلاطون، الجمهورية، نقلا عن المقدمة، ص 05.

ويدمرها"[37] وكل تحرر من النفس وتصور للمدينة المثالية لا يمر هكذا دون التوقف عند فلسفة أفلاطون إذ يحذو أوغسطين حذوه في فلسفته السياسية ويستلهم أفكاره من التقاء الثقافة اليونانية بالرومانية وتقليد الكتب المقدسة "فمن العصور القديمة اليونانية وقف القديس أوغسطين عند صورة أفلاطون من بين الآخرين إذ بين في أعماله <u>الجمهورية</u>، <u>السياسي</u>، <u>القوانين</u>، مخطط المدينة الفاضلة"[38].

ومقابل الإفراط في استباحة الملذات الجسدية وتوجيه الإرادة لمحبة الشيطان التي سرعان ما تتلاشى يجب توجيه الأنظار إلى عالم الثبات والحقيقة عالم المثل والفضيلة الأخلاقية لا موطن الأوهام والأوثان المزيفة، ووظف أوغسطين هذا المبدأ مبيننا أن التحرر لا يكون في العيش حسب النفس وإنما هو مرهون بالانعتاق من كل الشرور، ودسائس الشيطان خصوصا وان المسيح يعد البشرية بالخلاص الذي لا يقدم هكذا على طبق ذهبي بل الأمر يتطلب التضحيات من اجل إفناء الذات في محبة الله والوصول إلى التعقل وإدراك كمال الحقيقة الإلهية .

والتجربة الحياتية عبارة عن جملة من التحولات فالأرجح استثمارها لحيازة رخصة المواطنة لضمان العضوية في المدينة السماوية لا لتقديس الجسد الذي ينتقل من صغر إلى كبر، فإمبراطورية روما انتقلت من نمو إلى انحطاط وعرفت طور الأفول لذلك سقطت، أما أورشليم المقدسة فهي مطلب روحي ترعاه عناية الإله فهي إذا عالم الخلود .

ويتضح لنا الحضور الأفلاطوني حيث إن أفلاطون تحدث عن حكم الفيلسوف، كما نجد أوغسطين يولي الحكم للكنيسة المسؤولة على شؤون البشر وتربية النفس لترويضها على الطاعة ريثما ينزل المخلص فالجسد حسب أفلاطون مقبرة تعاقب الآلهة فيه النفس التي ارتكبت خطيئة، حتى تعود إلى طبيعتها الأولى ويأخذ بنفس الرأي أوغسطين إذ يقول في الكتاب السادس عشر من مدينة الإله مبديا رأيه في طبيعة العلاقة بين النفس والجسد فرأي أفلاطون أكثر قبولا عنده من رأي المانويين فيقول: "نجد الإنسان دوما يمتدح النفس الخيرة، وينبذ طبيعة الجسد وكأنها شر، وهذا يعني أن أفلاطون يحب الواحدة ويهرب من الأخرى

---

[37] المصدر السابق نفسه، ص 183.

[38] شاتليه فرنسوا وآخرون، <u>معجم المؤلفات السياسية</u>، ص 112.

جسديا حسب ما تراه المخيلة البشرية لا كما هي الحقيقة الإلهية"[39] فلا مفر من القول بان الجسد سبب الشرور والمادة هي مثل كرة الثلج الساقطة من فوق فبمقدار هبوطها تزيد سرعتها ويتضخم حجمها مما يعيق إيقافها، و الشهوة تحجب الإرادة الإنسانية لتحيد بها عن الفطرة الخيرة، فالإنسان يسمو إذا ارتفع إلى المستوى المقدس ويدنو إذا طلب المدنس وتكدست الشرور داخل روما مما عجل في انحطاطها ولا دخل للمسيحية في ذلك وعالم الأشباح المادي هو ما يسعى أفلاطون دوما إلى التحرر منه،مثلما عالم الشيطان الأرضي هو ما يسعى أوغسطين إلى التحرر منه لا سيما بعد كثرة تقديس الأوثان، ففي مدينة الإله يكون بلوغ المرتبة العليا بإرادة الله الذي خلق الإنسان كاملا وهذا الإنسان يختار إما درب الخير أو الشر، وليس الله مصدر الشر لأنه كامل،عكس ما يزعم المانويين بان الله مصدر الخير والشر،فقد دحض أوغسطين قولهم بالحجج والأدلة العقلية والايمانية.

ومثلما حول أفلاطون الأنظار إلى ما وراء عالم الأشباح وعلقاها بعالم الحقيقة "فيجب علينا حسب ما يذكر أفلاطون أن نحول أنظارنا من عالم الظواهر الذي هو عالم الظلال إلى عالم المثل الذي هو عالم الجواهر، ومن اضطراب الحياة الدنيا إلى ملكوت السماوات"[40]. أيضا دعا أوغسطين إلى تحويل الأنظار من المدينة الأرضية موطن الحسد، إلى المدينة السماوية وبدد التهم التي ألصقت بالمسيحية وزاده في هذا عودة إلى التصور الأفلاطوني الخالص إضافة إلى مرجعيات ومشارق متنوعة فمن جمهورية أفلاطون، الله خير وخال من كل حسد بذلك أراد أن تكون جميع الأشياء شبيهة به وأوغسطين يوضح هذا ويعود إلى الكتاب المقدس "فالإله قد نظر إلى كل ما خلقه فرأى ذلك حسنا وخلق الله الموجودات بكلمته ولم يخلقها إلا حسنة"[41]، وحسن الخلق يتبعه أوغسطين بالبحث عن حسن الخُلق لتربية النفس على الإيمان وتحقيق العدالة والعفة والكرامة لتجاوز الشرور، وبهذا يعود أوغسطين إلى جمهورية أفلاطون وبالضبط إلى قصة هبوط النفس والبحث عن سبيل عودتها وهذا ارتبط بالتربية عند أفلاطون التي هي مهمة موكولة إلى الدولة، أما التربية عند أوغسطين ترعاها

---

39 القديس أوغسطين، مدينة الإله، تعريب الخوار أسقف يوحنا الحلو، (ط 1؛ بيروت: دار المشرق، 2002)، الكتاب السادس عشر، ص 164.

40 سلمى حمزة الخنساء، تاريخ الفكر السياسي في العصور القديمة، ص 146.

41 المرجع نفسه، ص 145.

الكنيسة الوصي الشرعي على شؤون البشر لتحقيق السلام الأبدي الدائم للوصول إلى اتحاد البشر مع الرب مثلما اتحد المسيح في أول تجل لهم.

لهذا فمثالية أفلاطون تحضر بقوة وان انتهج صاحبها أسلوب النقد أكثر يعيب من خلاله الفيلسوف دبيب الفساد وسط المجتمع اليوناني ممتطيا بذلك سلم الجسد الصاعد جاعلا التجريد سلاحه الوحيد للتحرر من عالم الأطياف والظلال المزيف،ناقما وصول الشخص الغير مناسب إلى السلطة.

وهذه المثالية تحضر عند القديس أوغسطين حيث انتهج صاحبها سياسة دفاعية عن المسيحية المتهمة كلعنة في سقوط روما،في الوقت نفسه تبنى مبدأ الهجوم على المدينة الأرضية اقرب إلى الطرح الأفلاطوني فهي ليست موطن الحقيقة لذا يجب التحرر منها وعلى سكان المدينة السماوية أن يعدوا العدة لمحاربة واستئصال شرور المدينة الأرضية.

2/1 الموروث الشيشروني:

امتاز شيشرون Cicéron * بالخطابة، وكان وريث التراث اليوناني فتحدث عن سبل الحفاظ على الإمبراطورية الرومانية، وكيف يتم التشريع على وجه صحيح، ومهارته وحنكته في هذا الميدان كانت قبلة للقديس أوغسطين، فنجد حضوره داخل مدينة الإله من خلال الخطابة والتدبير السياسي "ويتضح حضور تأثير إعمال شيشرون ، على فكر أوغسطين خاصة في تعريف العدالة والقانون، وطبيعة هذا القانون ومصدره وأيضا صفاته"[42]. وان كانت صفات الناموس حسب شيشرون تخدم التدبير الزمني داخل المجتمع لضمان التوازن والعدالة، فإنها عند أوغسطين من روح الله وعنايته، فالسلطة تكون بادئ ذي بدء دينية، وتنتهي أيضا روحيا بالخلود في مدينة الإله و انتظار المخلص على غرار شيشرون الذي كان "يطمح إلى إيجاد نظام سياسي يقوم على الدستور ويوفر لروما ويؤمن لها الاستقرار السياسي"[43] هذا الاستقرار حسب أوغسطين سره يكمن في طبيعة الحب وإتباع ملة معينة إما بالانصياع إلى الذات والأوثان، و إما إتباع مخطط العناية الإلهية،فالأول

* شيشرون: Cicéron كاتب وخطيب وفيلسوف لاتيني ولد في 106 ق م بقرية ارينيوم ومات بها 43 ق م أرخ في البلاغة وامتهن المحاماة له مؤلف في الجمهورية، يوضح في فلسفته القانونية وأفكاره السياسية بان الدولة المثلى هي التي تجمع بين أحكام ثلاثة الملكية والارستقراطية والديمقراطية انظر: طرابيشي جورج، معجم الفلاسفة، ص 378.

[42] زيعور على، اوغسطينوس، مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية، (ط1؛ بيروت: دار اقرأ 1983)، ص 241.

[43] بحوش عمار، تطور النظريات والأنظمة السياسية، (ط 2؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984)، ص 108.

يعجل سقوط الدولة،أما الثاني يثبت قوة الحضارة ماديا وروحيا فروما هي مدينة أرضية لاقت نفس المصير الذي عايشته الحضارات الأرضية السابقة، كونها ليست خالدة، وأهلها ما أعطوا الإله حقه، لذلك يجب الانتماء إلى مجتمع المدينة السماوية، عالم الخير النابع من الله.

والاستمرارية السياسية حسب شيشرون تكون بالسير على هذا النحو الدستور هو الذي يضمن العدالة والمساواة بين الأفراد، وفكرة المساواة جوهرية في التعاليم المسيحية، التي نجدها دوما تبشر بالتسامح ومحبة الآخر والعيش معه من اجل الظفر برضاء الإله، فيدور حديث شيشرون السياسي في بحثه عن المساواة والعدالة بين الأفراد بما يؤهل روما إلى النهوض السياسي والاجتماعي بعدما عرفت تقدما عسكريا ملحوظا مكنها من اجتياح غالبية المعمورة لذا يتوجب الأمر العودة إلى القانون "الذي ينبثق من واقع حكم العناية الإلهية للعالم كله، كما ينبثق من الطبيعة العقلية والاجتماعية للبشر، تلك الطبيعة التي تجعل الجنس البشري ادني ما يكون إلى الله، وفي هذه النظرة تكمن فكرة دستور دولة العالم أي دستور واحد في كل مكان لا يتغير ولا يتبدل في يلزم جميع الناس وجميع الأمم بإحكامه"[44].

وفكرة الدستور الواحد تسود في الطرح الاوغسطيني عندما ينتهي التاريخ أين يفصل المسيح في نزاع المدينة الأرضية مع السماوية، لكن هذا الدستور يأخذ منحى آخر فهو روحي تزيده قداسة عناية الله،وجد لأهل المدينة المتعالية عن شرور الشيطان،ومن مبادئه التسامح والمساواة،فهي أمور مفروغ منها في المسيحية لأنها من البديهيات، وعمل أوغسطين أيضا على التبشير بخلاص المدينة السماوية المقدسة، فأورشليم هي مدينة الرب، تعرف كمال التدبير، وعلى نحلة المساواة أيضا سار شيشرون، وفي حديثه عن المجتمع والدولة يجعل الناس سواسية في ضوء القانون، فيؤكد خصوصية المساواة في بإصرار وتصميم إذ يذهب إلى التسليم "بان الناس ليسوا سواء في المعرفة والعلم وانه لا يطلب من الدولة أن تسوي بين الناس في الملكية، ومع ذلك فهي مطالبة بالتسوية بينهم في الملكات والملكيات العقلية، وفي مقومات شخصياتهم النفسية، وفي اتجاهاتهم العامة المتصلة

---

[44] سباين جورج، تطور الفكر السياسي، الكتاب الثاني، ص 239.

بمعتقداتهم فيما ينبغي أن تكون عليه مجمل القيم"[45] فالركن الأساسي الذي تسهر عليه السلطة هو مراعاة قسطاس العدالة من خلال العمل على إيجاد صيغة للمساواة بين الأفراد، وهذه المساواة روجت لها الكنيسة كثيرا، والإنسان يجب عليه أن لا يضطهد الأخر ويستعبده ويتعدى على حقوقه،فللإنسان أيضا سيد في السماوات فشيشرون لا يميز بين الطبقات الاجتماعية ويدعو إلى إلغاء الهوة وتأصيل الدستور لدوام مجد الإمبراطورية دونما خلافات، مثلما يوضح القديس أوغسطين ويضيف شيشرون مبرزا أهمية العدالة فلا تمييز بين الطبقات الاجتماعية لكن نميز بين المواقف الثقافية، التأمل، الحياة المحبة، والإرادة المختلطة قصد إحداث التوازن وهذا يجب أن يتماشى حسب المتطلب الإلهي الهادف إلى خلاص البشر الذين يخضعون للعناية ألإلهية"[46] كون العدالة ثمرة الاجتهاد الطويل جراء البحث عن الحقيقة الإلهية الخالدة وتجاوز كل ما له صلة بأسباب الفناء التي تخرج الفرد من المدينة السماوية الخالدة ويصبح حليفا لمحور الشر في المدينة الأرضية، هذا فيما يخص العدالة وتجاوز الطبقية كما يعود أوغسطين إلى فن الخطابة التي هي إلى جانب أسلوب شيشرون وسينكا SENEQUE صنوان لا يفترقان،انتهجا الخطابة كغيرهم من الرومان وبذلك يكون صاحب الدور الأساسي هو الدستور في الحفاظ على سلامة الحياة الاجتماعية رغم أن الطرح الاوغسطيني لا يحيد عن طاعة الدولة والدستور لكنه يبقى دوما في الدرجة الثانية فالسلطة الزمنية تلي سلطة الكنيسة الروحية التي هي فوق كل تدبير لان مصدرها ألاهي خالص وليس انسي يكون عرضة للنقص.

ورغم تقدم السلطة الزمنية فتبقى عوامل النقص تطاردها "ورغم احترام السلطة القانونية التي هي فريضة لم يتنكر المسيحيون لها إلا أن هناك حقيقة هامة، هي أن المسيحي كان دوما خاضعا لنوع من الالتزام الثنائي الذي لم تعرفه الأخلاق في العصور الوثنية القديمة، فلم يكن المسيحي مطالبا بإعطاء ما لقيصر لقيصر فحسب، لكنه كان مطالبا أيضا باعطاء ما لله لله"[47] وهذا لتفادي النزاعات بين الدولة والكنيسة خصوصا وان الوقت ليس مناسب لمثل هذا الصراع لا سيما بعد اتهام الوثنيين بالمسيحية وندمهم على ترك الأوثان بل

[45] جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ص 240.

[46] Jean servier, <u>histoire de l’utopie</u>, p 66.

[47] المرجع السابق نفسه، ص 267.

الوقت نستثمره في البحث عن خلاص الرعية من الهزال الذي لحق بروما وهو خلاص في مرحلة أولى مرتبط بالفرد الذي يجب أن يضبط التوازن بين الروح والجسد ويبرمج الإرادة وفق محبة الله ويأمل في العمل على تجاوز كل عوامل القلق لان المدينة السماوية تنتظر أهلها الصابرين والمتميزين بقوة الإيمان الروحي.

3/1 الموروث الافلوطيني:

المادة هي أدنى مراحل التراتب الوجودي الأمر الذي يرفع عنها طابع القداسة ويجعلها من مسببات الشرور، وهذا ما تجمع عليه مختلف المعتقدات الروحية الهادفة إلى التعفف خصوصا مع المسيحية، وقبل هذا اعتبر أفلاطون أن الرذائل والأمراض كلها تنشا في النفس نتيجة اتصالها بالمادة والبدن وهذا يحجب الخير عن طبيعة النفس العاقلة التي موطنها الأصلي بجوار الآلهة.

وبمنطق الافلوطينية المحدثة* فمصدر الشرور كلها هو من تقديس الماديات ولا مفر إلا العمل على الانسلاخ من هذه الشرور وتحقيق الخلاص، اجل هي الفكرة ذاتها نجدها في فلسفة القديس أوغسطين السياسية، إذ يدعو إلى التحرر من المادة ولكن لا نعني بهذا انه يرفضها كلية بل تستفيد المدينة السماوية من خيرات المدينة الأرضية لكن النصر يكون بالزهد والتعفف الروحي في أورشليم الخالدة وهنا يعود أوغسطين إلى الافلوطنية خصوصا نظرية الفيض أو الصدور إذ الموجودات في تراتبها تصدر عن العقل الأول وتدنو من الأعلى نحو الأسفل لتصل إلى المادة التي هي اقرب من الطبيعة الإنسانية هذه الطبيعة تحيا وفق تقديس الذات "وسبيل الخلاص يكون بالتطهير والعودة إلى الله بالتعفف، والنجاة بالنفس في هذا العالم المتناهي عالم الوهم والخيال، عالم المادة ومصدر الشر"[48] فالتاسوعيات عند أفلوطين* شخصت الداء بالمادة والخلاص بالعرفان وهذا ما يوضحه أيضا فيلون الاسكندراني، ونفس التوظيف يقوم به أوغسطين في مدينة الإله إذ غاية كل شيء ومآله دوما

---

* الافلوطينية المحدثة: néoplatonisme هي إحدى الموجات الفكرية التي انطلقت من الإسكندرية في القرون الأولى للميلاد حيث كانت الإسكندرية عاصمة الفكر والعلم التي خلفت أثينا بعد أن خبا نورها وزال عنها المكانة يشد الرجال إلى الرحيل إليها وسماها العرب مذهب الاسكندرانيين وكان لموقع الإسكندرية بين الشرق والغرب إسهام في ظهور مذاهب فلسفية متعددة.

[48] عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، ص 225.

* أفلوطين (205 – 270 ق.م) Plotin: هو فيلسوف وزاهد صوفي تعلم في مدرسة الإسكندرية وتأثر بأفلاطون وهو مؤسس الأفلاطونية المحدثة نسميه الشهر الثاني في مؤلفه ملل ونحل بالشيخ اليوناني ويستخدم أفلوطين كثيرا الرموز والأمثال. انظر الشهرستاني الملل والنحل، ص 135.

في نهاية المطاف هي الخير الذي يقوم عليه كل شيء، إننا نعلم بأنه يؤول إلى خير لمن يحبون الله"[49] أما محبة الذات وتاليه الشيطان هي وراء التدهور فعاد أوغسطين إلى الشيخ اليوناني أفلوطين إذ وجد أن تامين السعادة لا بد أن يتطلب المرور بتجارب وتضحيات قصد إحداث القطيعة مع الشهوات والشرور، فكان مع الأفلاطونية المحدثة إنتاج مذهب فلسفي شامل يلبي مطامح الإنسان وحاجته العقلية والدينية والأخلاقية وذلك بتقديم صورة شاملة للكون متسقة منطقيا وعن هذه الصورة يقول أوغسطين: "إنها تضمن للإنسان الخلاص في الحياة العادلة والنجاة في الدار الباقية"[50] والحياة العاجلة هي حياة الإمبراطورية الرومانية داخل مجتمع اقل ما يقال فيه انه بالغ في استباحة الملذات وطلب الغزو الاستعمار فكانت القوة اله جديد عند الرومان، أما الحياة الباقية هي من محبة الله وترويض النفس لتخطي الأخلاق الدنيئة.والقوة فيها تكون بالإيمان.

أما المعرفة فان كانت مع أفلاطون من اختصاص الفيلسوف فإنها إشراق وفيض عند أفلوطين، وهي حسب أوغسطين وراء الإيمان فالذي يؤمن يتعقل والإنسان لا يعرف وبالاحتكام إلى محبة الله تقذف المعرفة في الإنسان بحيث تمكنه الحقائق المستنيرة من الانعتاق عن ظلام الهيولى أو المادة ومثل هذا المطلب تعجز عن تحقيقه المعتقدات الوثنية لذلك في اعتراف صاحب الاعترافات يبين أوغسطين انه وجد ضالته المنشودة بعدما ارتد عن المانوية ودرس الافلوطينية التي أرشدته إلى جل انشغالاته "بل إن لم نقل أرشدته إلى كل انشغالاته فأصبح فكره متأثرا بها إلى درجة الثمالة ففيها إرضاء لنزعته العقلية الباحثة عن التعقل وإدراك الحقيقة والتي تنصرف عن المجون واللذة"[51] فبذلك تطاول الأفراد على الأخلاق وانحيازهم إلى المجون هو سبب تلاشي القيم وعن سقوط روما الإمبراطورية فما حدث قد حدث، فلا نفع للبكاء و لا للندم و لا لتبادل التهم فهذا ليس أمر مهم وإنما الأهم هو البحث عن الإيمان في الحياة الأخروية لا ذريعة لتبرير الضعف ورده إلى المسيحية، والأمر يتطلب تجديد الإيمان لضمان غلبة مدينة الإله فهناك تشرق المعارف على الأخيار وعن إشراق أوغسطين فهو ليس عشوائيا مثلما الأمر عليه عند أفلوطين بل تشرق أنوار الحقيقة

---

[49] القديس أوغسطين، مدينة الإله، ص 23.
[50] المصدر نفسه، ص 218.
[51] سلمى حمزة الخنساء، تاريخ الفكر السياسي في العصور الوسطى والقديمة، ص 145.

على النفس التي انتصرت على الشهوات وترفعت عن الماديات وخلدت في مدينة الإله السماوية،فالذي يؤمن يتعقل.والذي يتعقل يدرك الخلاص.

لذلك الترف المادي هو من مسار التاريخ العالمي بينما الجانب الروحي يبرر غائية التاريخ المسيحي فروما مدينة الماديات أحرقت ليس إلا لكونها مدينة أرضية خاضعة للفساد، وإعادة المجد مرهونة بالإيمان المسيحي فلا مجد لمن قل إيمانه ولا إيمان لمن مالت نفسه إلى محبة الشيطان وتقديس الأوثان "فيتعين على الدولة فيما يوصي القديس أوغسطين بان تكون مسيحية تخدم مجتمعا تربطه العقيدة المسيحية المشتركة وبفضلها ينحو هذا المجتمع نحو تشييد حياة روحية خالدة"[52].

والمدينة الروحية الخالدة لا غبار عليها ولا غشاوة الشرور تعكر صفائها ومن اجل توطيد هذا عمد أوغسطين إلى أسلوب الحجاج للرد على الوثنيين فكان هو الخصم والحكم أمام ادعاءاتهم، وبلاؤه مزدوج بين اتهام المسيحية واعتبارها لعنة ويرجع الشر إلى النفس ويبحث عن إعادة المجتمع، وبين سقوط روما في الوقت الذي أصبحت المسيحية ديانة رسمية داخلها لذلك سن نواميس في مجتمع فاضل "فاليوتوبيا هي اكتشاف لكيفية تطور الهيئات الاجتماعية من خلال العودة بنية جديدة للقيم"[53]. في ذلك يجب تجديد البنية الاجتماعية والقيمة الأخلاقية والإيمانية فيصبح الإيمان والأخلاق صنوان لا يختلفان في مجتمع لا صراع فيه ولا تزاحم على الأشباح المادية ولا تقديس فيه للأبراج التي هي من اختصاص أهل المدينة الأرضية وهذا ما يوصل إلى سبيل التعقل ويجب أن يكتب في قلب كل مواطن مسيحي.

ومن خلال أفلوطين استقى أوغسطين نهجه في التوفيق بين النص الديني والتأمل الفلسفي ليصل الإنسان إلى مرحلة التعقل وكل من يخرج عن الإيمان يتخبط في تيه وعماء الجهل ويقتاده الشيطان،أما بناء مجتمع النخبة الإيمانية الذي ينوب عن صعود المسيح ريثما يحل ليرفع الجور لا بد أن يجعل الدولة تابعة للكنيسة.

فالحقيقة ممكنة شريطة التعقل والتعقل ممكن شريطة التعفف والانتصار على الذات وتحقيرها وهذا ما أراده أوغسطين الذي تأثر بأفلوطين رغم انه رد على ادعاءاته خصوصا

---

[52] حاروش نورالدين، تاريخ الفكر السياسي، (ط 1؛ الجزائر: دار الأمة، 2004)، ص 131.
[53] الصايغ نوال العراف، المرجع في الفكر السياسي، (د ط؛ لبنان: دار الفكر العربي ، 1988)، ص 158.

قول أفلوطين وأتباعه بخلود العالم فلو كان كذلك لخلدت الحضارة الرومانية لذلك مدينة الإله هي تاريخ متجاوز لتاريخه، كما خالف أوغسطين أفلوطين في طبيعة الشر والشياطين والزمن رغم مخالفة أوغسطين ورده على أفلوطين إلا انه تعلم منه، إن الحقيقة ممكنة التعلم وقابلة لان تعرف. وان الله هو الكائن الاسمي الروحي اللامتناهي الأبدي. والمتوحد مع الحقيقة الابدية، والنفس عقل، وترك ما وراء العالم المادي للأشياء أي عالم الأفكار المعقول "والعقل هو الكلمة وان الكلمة هو الله، وكل شيء صنع به ولا شيء صنع بدونه. إن الله هو النور الحقيقي وينير كل إنسان قادم إلى هذا العالم، وبهذا النور ترتفع النفس إلى تأمل الحقيقة الخالدة، أما الشر فهو ليس جوهرا بل عرض"[54].

وتراتب الأشياء الذي شكله أفلوطين يضع المادة في الأدنى، ففيها من الخراب الذي يلحق بالفضيلة ما يكفي أن يكون سببا للشرور، أما الحب عند أوغسطين إذ دنا واقترب من المادة فانه يلازم المدينة الأرضية الشيطانية. كذلك نور الحقيقة تفيض على القديسين الذين بلغوا ذروة التعقل فلا بدلهم من دور الهرمسية والوساطة في إرشاد الرعية إلى الحقيقة الأبدية التي ترعاها الكنيسة ريثما يحل اليسوع ويمسح خطايا البشر، إذ يولدون من جديد. فالولادة الطبيعية معبأة بالخطيئة، ويفصل في النزاع بين المدنيين لصالح محبة الله. التي تتعالى عن الخيور المادية وتطلب المعطى الروحي، وقد أشار أفلوطين إلى بعد المادة والتصاقها بالشر، "فالشر موجود وبسببه المادة والمحسوس ويكون الإفلات حقه بالرجوع إلى الوجود فوق المحسوس ... والعقل شرير لأنه ادني من الواحد"[55] فالموجودات في ترابها تنطلق من العقل الأول لتصل إلى أدنى مراتب الوجود وهناك تعيب الفضيلة وتطغى الظلمة رمز للرذيلة وللشهوات المادية. فعندما مالت النفس في تيه المدينة الأرضية التي هي في نهاية مدينة غايته فناء الجسد أما الخلود فهو لصالح محبة الله لدرجة احتقار الذات، ونفس الحديث عن النفس نجده في تاسيعات أفلوطين عندما يذكر المميز الأول للنفس، "فهي ليست جرم ولا تموت ولا تفسد ولا تفنى بل هي باقية دائما ونريد أن نفحص عنها أيضا كيف

[54] زيعود على، اوغسطيبوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية، ص 106.
[55] برهييه اميل، تاريخ الفلسفة الهلنستية والرومانية، تر: جورج طرابيشي، ط1؛ بيروت: دار الطليعة، 1982)، ص 257.

فارقت العالم العقلي وانحدرت إلى هذا العالم الحسي الجسماني فصارت في هذا البدن الواقع تحت الكون والفساد"[56].

أما خلود النفس فهو تحرر من البدن، وأما غائية التاريخ عند القديس أوغسطين فهي ولادة طبيعية للإنسان مطهر من كل الخطايا يعيش حياة القديسين والإبرار الخالدة دونما شقاء ولا فساد.

وتوفير أقاليم الفضيلة من إيمان وتسامح وقانون مدني يرعى شؤون الأفراد، وتوفر هذا في دولة الرومان التي امتازت بإحكام التنظيم الإداري، وقبضة النظام العسكري، ونواميس النظام السياسي، وباعتناق روما المسيحية أصبحت مدينة الرب محمية من طرف العناية الإلهية لكن أحرقت، فبدت العديد من التساؤلات، كيف يمكن إن يكون هناك مدينة للرب؟، وهل المسيحيين أخطا والتأويل؟، فوجد أوغسطين نفسه أمام إشكال فلسفي من خلاله يبحث عن كيفية التوفيق بين المسيحية والفلسفة، وآخر سياسي فحواه البحث عن نظام يتضمن السعادة، وإشكال ديني يود به التهم على المسيحية، من هنا الفلسفة والمدينة تقوم على حركة ثنائية، وهذا موجود في ثنائية النور، والظلمة مع المانوية، فالأفكار لها بنية عددية واستخدام البنية العددية مشهود له في التراث الفلسفي، فالأعداد تحكم العالم عند الفيثاغوريين، واستخدم أرسطو المقولات العشر، أما أوغسطين يعود إلى الثنائية المانوية والمدنية هي مدينة سماوية، فالسماء هي اللامكان، أما مدينة الأرض هي مجرد محاكاة وهنا يتجلى التوظيف السياسي لليوتوبيا مع القديس أوغسطين، في هذه المدينة يكون الخلاص "فيخاطب أوغسطين الناجين من سكان روما بعد أن نهب آلاريك مدينتهم وخربها، بأنهم لم يفقدوا أي شيء أساسي بالنسبة لحياتهم، وإنما خلاص الشعب الروماني يتمثل في المدينة الإلهية، وليس في مدينة الشيطان"[57].

فجسد أوغسطين بحق الرؤية المانوية للنفس، والجوهر، والعالم، والحيز، بين التصور الثنائي للكونيين والعالمين الأرضي والسماوي على التوالي، وبعد صراع قوى الخير مع الشر، وبعد خسائر عديدة للمدينة السماوية، فان المعركة الحاسمة تحسب لصالح

---

[56] غالب مصطفى، في سبيل موسوعة فلسفية، أفلوطين، (د ط؛ بيروت: دار مكتبة الهلال، 1983)، ص 44.

[57] دودارو روبار، أوغسطين الهبوني بين المدينة الدنيوية ومدينة الله، اعمال ملتقى القديس اوغسطين، الفيلسوف الجزائري، ص 54.

الإيمان، والغنيمة حليف المنتصر داخل المدينة السماوية، بقوة التعقل وهناك يكون كمال الإيمان الذي يتماشى مع كمال التدبير السياسي ويتحاب الناس، وبالتالي يتناصفوا ويكون العدل فناموس مدينة الإله يتكامل بإقليمه بين الإيمان، والمحبة، والتسامح، والقانون.

4/1 الموروث المانوي:

مدينة الإله في الصورة التي أراد لها القديس أوغسطين، تتسم بتلاحم اللاهوت مع السياسة، والتاريخ مع العناية الإلهية، فلها مرجعيات متنوعة ومتعددة، بتعدد الإرهاصات الفكرية والدينية ويعود بنا جوهر التقسيم الثنائي داخل المدينة بين محور الخير والشر، إلى الثنائية المانوية التي عليها شبّ القديس أوغسطين قبل تحوله إلى المسيحية، ورغم اعتراف صاحب الاعترافات بارتداده عن المانوية وإقباله على المسيحية البشارة الجدية، فقد شغلته سبل تامين الحقيقة فوقع تحت تأثير المانوية، حيث زعموا أنهم اهتدوا إلى الحقيقة، وقالوا بوجود جوهري هو الخير والشر، النور والظلمة وليس بمقدور الإنسان التخلص منهما "وزعم الحكيم ماني مؤسس مذهب المانوية أن العالم مركب من أصلين قديمين، احدهما النور والأخر الظلمة، وهما أزليان لم يزالا، ولن يزالا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم"[58] وكان أوغسطين نفسه لم يتحرر من هذا التصور الثنائي الذي نألف تداوله في العقائد الثنائية كالمانوية والمزدكية والزرادشتية.

فتتأرجح مدينة الإله بين محورين بين النفس الخيرة تقابلها النفس الشريرة، وبين المدينة السماوية، وتقابلها المدينة الأرضية، وبين الصفات الطاهرة المقدسة والصفات الذميمة المدنسة، وبين محبة الذات، ومحبة الله، وفي الكثير من موضع داخل المدينة الإلهية نجد حضور هذا المفهوم الثانوي وكما يذكر الشهرستاني في مؤلفه الملل والنحل "هم أصحاب الاثنين الأزليين، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث العالم وذكروا سبب حدوثه"[59] وفي مرحلة الشباب اتبع أوغسطين هواه وفي اعترافاته صرف ذاته عن الانغماس في الملذات "رغم انه من المكونين والمؤسسين للمانوية

---

[58] الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي،(د ط؛ بيروت: المكتبة العصرية، 2005)، ص 209.
[59] المرجع نفسه، ص 277.

في شمال إفريقيا وفي تاغست وهيبون فقد عدل عن هذا الميل ووهب نفسه للاهوت المسيحي"[60].

ورغم تحرره من المانوية، فحضور ثنائية التقسيم بين محوري الخير والشر تنعكس، تأثيرها في فكر أوغسطين "الذي تبع هواه في مرحلة الشباب الصاخب، ثم ارتد عن المانوية بتأثير من أمه، فتحول إلى اللاهوت فصار أسقفا في مدينة هيبون"[61] يؤمن بالخلاص الروحي بعد القضاء على الشر، والقول بنهاية التاريخ وبشارة الخلاص فهذه الفكرة وان روجت لها كثيرا المسيحية أمل الضعفاء من الذين زهدوا وقُهروا في الدنيا بالتعويض في الحياة الأخروية، أيضا المانوية والمزدكية* تقول بعودة ورجعة المخلص لينشر العدل في الأرض بعد طغيان الجور، يماثل أوغسطين نفس الصورة ويعد أصحاب المدينة السماوية بالخلاص والغلبة على شرور مدينة الأرض، فدوام الحال من المحال، إذ بعد الظلمة يأتي النور والفيلسوف هنا متشبع كل التشبع بالديانة المانوية بين قوى الخير والشر وهذا ما اتضح في تقسيم المدينتين، وبينهما علاقة صراع، أما غِربالة ومعيار الفصل بين المدينتين هو موضوع الحب "وهكذا فمن اجل رؤية ما يكون عليه كل شعب يجب النظر إلى موضوع حبه ... والشعب يكون أفضل بمقدار ما يتفاهم حول أشياء أفضل، وممقوتا أكثر بمقدار ما يتفاهم حول أمور ممقوتة"[62].

وما قد اعتبره أوغسطين أنموذج القوة ودولة الحضارة مع الرومان لا سيما بعد اكتمال قوة الحضارة مع العقيدة المسيحية، وإعلان الديانات المسيحية الديانات الرسمية للإمبراطورية لم يعمر طويلا، فالأمور لم تكن بهذه البساطة فقد أحرقت روما والإمبراطورية فأصبحت حديثا عابرا وليس حدثا يصنع الأمجاد والبطولات كما كان، فيحاول أوغسطين إعادة بناء الواقع والتنظير السياسي الذي ينتهل من بلاط العصور

---

[60] Saint augustin, <u>ouvres de saint augustin</u>, tr. Gafinanert, (Paris : contre national de la recherche scientifique, bibliothèque augustinienne, 1963), p 84.

[61] اليوسفي على محمد، <u>مقال حول الحياة في منتهى القصر من تاريخ الأفكار إلى تاريخ الممانعة</u>، (جريدة الأسبوع الأدبي)، العدد 961، 11.6.2003، ص 18.

* <u>المزدكية</u>: أصحاب مزدك داعية فارسي بشر باشتراكية الأموال والنساء ظهر أيام انشروان فاطلع على افترائه وأعدمه، قول المزدكية مثل قول المانوية في الكونين والأصلين النور والظلمة، والخلاص، وقد نهى مزدك عن المخالفة، والمباغضة والقتال ولما كان أكثر ذلك بسبب الأموال والنساء، فأباحهما، وجعل الناس شركاء فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلاء.
انظر: الشهر ستاني: <u>الملل والنحل</u>، ج 1، ص 213.

[62] شاتليه فرانسوا وآخرون، <u>معجم المؤلفات السياسية</u>، ص 114.

الوسطى المرتبط باللاهوت والعناية الإلهية، لينتقل إلى الثنائية مع المانوية، وبين أعراض الهزال السياسي وتلاشي المجتمع بين إتباع الذات والشهوات، وبين تمسك الرومان بالأوثان التي لا نفع لها، فتقديس الأنا والنفس لا يفيد قوة التدبير، وإنما يزيد في تأليه الشيطان، ويشبع الملذات فقط، لذلك تدعو المسيحية إلى التعفف والطهارة من الدنس فقال السيد المسيح في الإنجيل: "ما جئت لأبطل التوراة بل جئت لأكملها، قال صاحب التوراة، النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجراح قصاص، وأنا أقول إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر"[63] وجوهر التسامح يعم داخل مدينة الإله ويعود بنا إلى إسفار العهد القديم، فمنها استوحى القديس أوغسطين القيم الروحية في مجملها في نظرة ابوكاليبسية تجعل نهاية العالم أمرا محسوما لصالح النفس التي تغلبت بالزهد وحياة التقشف على الشيطان، فالوازع الروحي والثقافي تلقاه أوغسطين في العقيدة المسيحية، فيذكر الدكتور علي زيعور في مؤلفه حول الفلسفة الوسيطية "فحسب سفر الخروج تلقى العبرانيون من الله قبل ترك مصر بان يسرقوا من المصريين أواني من ذهب ون يحملوها معهم وذاك ما يتوجب على الفكر المسيحي أن يفعله.

فيجب أن يأخذ من الكتاب القدامى الحقائق التي تضمنتها العقيدة والفلسفة لأجل إدخالها في الحكمة المسيحية، وهذا ما فعله أوغسطين، فعندما أصبح أسقفا لم يتخلى عن القيم"[64] فغاية الإنسان هي الوصول إلى الله، أما ما يذهب هذا يخدم الشيطان من شهوة، وأخلاق رديئة،وغضب، ويوجه الأنظار للتأمل في العمارة الأرضية المزيفة عالم الأشباح، أما الخلاص مثلما هو منصوص عليه في اليهودية ووضحته أكثر الديانة المسيحية، حيزه التسامح وأقاليمه داخل مدينة الإله التي هي تاريخ متجاوز لتاريخ تكون بقتل الجسد بالزهد وتذليل المرح بالسكون، ورياضة النفس بمحبة الله حتى تصبح مطية ارتاضت لطلب العليات ومحبة الله وهجر المدنس والديانات، وما البشر في نهاية المطاف سوى أفراد زاهدون من اجل غاية أسمى لا تزول وهي أن يؤدي ملكوت السماء، والديمومة المتدفقة باستمرار وإنما هي تحصيل حاصل جراء صحبة الله والإقرار بالغاية السامية قصد تحقيق مدينة الإله السماوية المتعالية عن دنس المادة وشرور الشيطان، وتؤمن بنصرة الضعفاء قانونها الإلهي

---

[63] إنجيل متى، الإصحاح الخامس (18/17).
[64] زيعور علي، الفلسفة الوسيطية، (ط 3؛ بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1983)، ص 32.

وحكمها بين التدبير والإيمان، وغايتها تحقيق السعادة فالتدهور والانحطاط والاندثار وان إرتبط بتاريخ الحضارات فهذا يرجع إلى عدم توازن القيم، فالحياة الأرضية هي تمهيد للراحة الأبدية المقدسة.

وللوصول إلى هذه القداسة، وإعطائها مصداقية، فقد قطع أوغسطين أشواطا تاريخية وأهلته تجربته ليرى نور الحقيقة ويحاجي المانويين ببطلان معتقداتهم، وكما يذكر الدكتور اندريه مندوز "بأن أوغسطين عرف التحولات، فمن شيشرون إلى ماني، ومن ماني إلى أفلوطين، ومن أفلوطين إلى المسيح، أما عن المانوية فقد عكف عنها معتقدا لكن في المقابل أبقاها قسمة ثنائية، فمجتمع الخير يقابله مجتمع الشر فما من شك انه ليس من الصدفة أن ينتقل أوغسطين من ثنائية مجسدة إذ لم تكن مادية مثل ثنائية المانوية إلى أخرى روحية النزعة أصلا، وواضح أن الثنائية الثانية ساعدته مساعدة قوية على التخلص من مادية المانوية[65]، وألبس هذا التصنيف الثنائي ثوبا روحيا قِوامه اعتدال الإيمان. وفي هذا يعود إلى أصل التقسيم منذ أن شق الملائكة عصا الطاعة، وانقسموا إلى أخيار وأشرار، ويتخذ لكل مدينة رمز بين قبيل وهبيل، ورملوس وريموس فكل منهما على التوالي يعده معلما لتأسيس مدينة، إما للشيطان نواميسها تشريع من تسلط الجسد على النفس بما يبيح الترف وحياة الملذات، وإما حسب سيطرة الروح بالفضيلة على الجسد قصد الوصول إلى الحياة الأبدية على حقيقتها وليست كما تعتقد المدينة الأرضية التي خدعت الرومان وآلهتهم وسقطت دون سابق إنذار.

وعليه الإنسان يتأرجح دوما بين طبيعتين "وهو في نظر المانويين يملك نفسين احدهما خيرة وهي جزء لا يتجزأ من طبيعة الإله السامية، ومصدرا للنور وللخير، والأخرى شريرة منبعها الظلمة وتتعايش وتختلط النفوس الخيرة مع الشريرة التي في بدايتها وجدت منفصلة"[66]. ويبحث أوغسطين عن معيار الانفصال الذي هو الحب وفي ذات الوقت طبيعة الحب هي محرك المجتمع ومحرك التاريخ الذي يسير وفق العناية الإلهية، لذلك يعود أوغسطين في مؤلفه مدينة الإله إلى الفلسفة القديمة التي تجعل بالضبط حيز الملل والنحل

---

[65] منذور اندريه، أوغسطين من أفلوطين إلى المسيح، الملتقى الدولي الأول حول القديس أوغسطين، الجزائر، عنابة، افريل 2001، ص 16.

[66] Saint augustin, oeuvres de saint augustin, les deux âmes anti manichéens, TR. R Jolivet, et Mjoutjon (Belgique, Descaleé de brouwer, 1961), p 95.

متعارضا بين قوى الخير والصفاء والإيمان والخلاص وقوى الشر والعذاب والرذيلة وعلى سنة القدامى يحذو القديس أوغسطين في التقسيم، ومنذ بداية الخلق إلى غايته الأخيرة، وقد أهلته أيام الشباب مع العقيدة المانوية بان يحكم على ما قضاه مع المانويين بالتيه والفساد وهذا عن خبرة ميدانية، وكل هذا يورده مؤلفه الاعترافات الذي يروي من خلاله مسيرة حياته حول اهتدائه إلى الحقيقة، والسلام والراحة النفسية وسبيل المعرفة. بعدما انتقل من الخطأ إلى الكهانة، وتحرر من الكبرياء واللذات البدنية، فقط أبقى على التصنيف الثنائي أما عن فساد هذه النحلة وغيرها من المعتقدات الوثنية فيعود إلى سفر التكوين "فهو ذا الإنسان صار كواحد منا عارف الخير والشر"[67] وأما عن جوهر الثنائية فقد عمل أوغسطين تمييزا لفهم التاريخ البشري، وهذا التاريخ يخضع باستمرار لاحتكاك هاتين الجماعتين والتنافس بينهما، فتقف مدينة الأرض من ناحية تدفع مجتمعها الأرضي الحوافز الدنيا التي تستهدف التسلط والتملك، في حين تقف من الناحية الأخرى مدينة الإله، بمجتمعها الذي ما وجد إلا التماسا للسلام السماوي والخلاص الروحي"[68].

2- المنطلق الديني:

إلى جانب المنطق الفلسفي، فحصة المعتقد الروحي داخل مدينة الإله قد لا يمكن إنكارها فتارة يعود الفيلسوف إلى العهد القديم، وطورا أخرى يفيض مسألة التوفيق بين الفلسفة والدين وفي غالب الأحيان يذكر الصراع القائم بين المسيحية والوثنية، وكيف تأصلت عبادة الأوثان في قلب الإنسان الروماني لدرجة أن كل فرد بقي يتخذ موقف الحذر من الديانة المسيحية الجديدة، التي تزامنت مع تاريخ سقوط الإمبراطورية، فلا ريب من أن ينفر الرعية منها لهذا يبحث أوغسطين عن الأفضل الروحي المتفضل بالعودة إلى أصول دينية قحة.

1/2 البعد اليهودي المسيحي:

في أوائل القرن الخامس الميلادي اعتمد المسيحيون على سبعة وعشرين سفرا، فيها الأسفار التاريخية وهي إنجيل متى، ومرقس، لوقا، ويوحنا، والأسفار التعليمية وتمثلها وسائل الرسل، والرؤيا التي تتعرض لنهاية العالم، لقد سميت هذه الأسفار بالعهد الجديد للمقابلة بينهما وبين ما اعتمد من أسفار واليهودية التي أطلق عليها اسم العهد القديم، وهذه

---

[67] سفر التكوين الإصحاح الثالث / 4.3، 2005،.
[68] سباين جورج، تطور الفكر السياسي، ص 276.

الأسفار تتعرض إلى ظروف نشأة وميلاد السيد المسيح، وتوضح الصراع بين التوحيد والشرك، وجوهر هذا الصراع نحت شخصية القديس أوغسطين وفي مؤلف تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، يقسم الدكتور يوسف كرم حياة القديس إلى ثلاث مراحل، مرحلة الطيش والانهماك في الملذات، وفيها الجانب الروحي مستمد من الثنائية المانوية، ومرحلة التكوين والتعليم في تاغست بسوق أهراس، ومرحلة الصراع النفسي ليهتدي إلى الدين المسيحي، وقد طُبعت هذه التحولات داخل مدينة الإله إذ في غالب الأحيان يعود بنا إلى أصول يهودية، وثيقة الصلة بالعهد القديم، "والغاية التي ترمي إليها الاوغسطينة هي ربط السابق باللاحق، وذلك بان ترسي بصفات نهائية أسس حضارة روحية، وهذه الحضارة تستلزم المعارف الإلهية والدنيوية"[69]، فلاهوت القديس أوغسطين، وصورته الثنائية ضمن مدينة الإله بين كفة الإيمان والكفر أبدا ما جاءت لتبطل الأصول اليهودية بل لتكلمها، وتأخذ ما استطاعت من أفكار عن العالم والتاريخ.

وكل هذه المعتقدات إشتمل عليها الفكر اليهودي "في بحثه عن العدل والإنصاف، وانتظار النجاة زمن المخلص"[70] وأيضا وضعت المسيحية غاية الإنسان فيما وراء الحياة الأرضية، وفي الوقت ذاته كل شيء لا يخرج عن مخطط العناية الإلهية، وهذا الشرط الأول لكل تدبير هدفه تأمين القيم العليا، فعلى هذا النحو كان تصور تاريخ العالم، فتاريخ العالم يعني التقدم نحو غاية هي بمثابة حد أو نهاية لهذا التطور والإنتكاس قسمه القديس "بوجود مدينتين، مدينة الله، ومدينة العالم، تطرح فكرة التاريخ الكلي عن العالم"[71]

فأصبحت العصور الوسطي التي عبر عنها آباء الكنيسة تربط الفلسفة باللاهوت كما تربطها بالتاريخ وهذا طبعا عِماده الوازع الديني الذي يقتبس منه أوغسطين غالبية أفكاره إن لم تقل كلها خصوصا ما ارتبط بنهاية العالم والتاريخ، والخلاص، وصراع الخير الدائم مع الشر، فمثلما ورثت الفلسفة المسيحية أفكارا عديدة من الفلسفة اليونانية، فأصالتها هي أيضا امتداد للعهد القديم،فمعرفة الجسد دوما مرهونة بالنفس، ومعرفة الجسد هي من إدراك الكون،

---

[69] برهيية اميل، تاريخ الفلسفة في العصر الوسيط، تر. جورج طرابشي،(ط 2؛ بيروت: دار الطليعة، 1983)، الجزء 2، ص 19.

[70] Jean servier, l'histoire de l'utopie, p 75.

[71] جيلسون اتيان، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة (ط 3؛ لبنان: مدبولي، 1996)، ص 444.

الذي الجسد جزء منه، ولا شك كما يذكر جيلسون في مؤلفه روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط: "إنا نعرف ذلك كله لكي نبشر بالخلاص، أو على الأقل نتلقاه، لكنه لازم لإنشاء علم الخلاص،علما للاهوت" [72]ومثل هذه الأفكار هي امتداد للرؤى الدينية السابقة في العهد القديم مع نظيرتها اللاحقة في الإنجيل، وأخذ أوغسطين ما استطاع إليه سبيلا لبناء فلسفة متشبعة باللاهوت المسيحي هدفها تحقيق التسامح والتبشير بنهاية التاريخ أين تطوى صفحة الشرور ويتحقق الإيمان على صورته العذراء دون نزاعات.

2/2 الصراع بين الوثنية والمسيحية:

بمعزل عن الجانب الروحي المقدس، قد لا يوجد إنسان مثلما بمعزل عن الآخر في المحيط السوسيولوجي قد لا يوجد إنسان بمفرده حقيقة قد لا يختلف حولها اثنان وهي ان معتقدات الإنسان تصور أشكالا عديدة للجانب الروحي الذي هو رجاء وأمل ومصدر قوة الأفراد وسبيل الخلاص، والمستقرئ لتراث البشرية وتاريخها الديني دوما يجد أضربا متنوعة للديانات وللملل والنحل، حسب تعدد الثقافات وتنوع مراتبها ففي الحضارات الشرقية، نجد تقديس القوى الخارقة الطبيعية والنباتية والحيوانية، مثلما عند اليونان نألف تعدد الآلهة، الذي يتيح تعدد المراتب والخوارق، ومثل باقي الحضارات فقد طغى تقديس وعبادة الأوثان داخل الإمبراطورية الرومانية قبل ذيوع وانتشار المسيحية، فنجد عبادة ايزيس الشرقية التي دافع عنها أبليوس* في مؤلفه المسوخ، الذي نقل إلينا باسم الحمار الذهبي**" فكانت رغبة أبليوس دوما تميل إلى جعل نفسه حليف العبادة الشرقية همه الوحيد من الدنيا الانعتاق من الترف والعودة إلى الزهد"[73] فكان تمجيد العبادة الشرقية حاضرا داخل الإمبراطورية الرومانية، بالقدر الذي يجعل كل فرد متمسكا بتعاليمها.

واغلب الظواهر في تفسيرها أرجعت أساسا إلى قوى لاهوتية، وعندما امتدت الديانة المسيحية وانتشرت تعاليمها بين الأفراد، وحتى القديس أوغسطين نفسه كان في البداية

---

[72] المرجع السابق نفسه، ص 474.

* لوكيوس اوبوليوس: ولد عام 124 أو 125 بعد الميلاد في مدينة مدوار التي يطلق عليها اسم مدوارش وكانت مستعمرة رومانية، كان ذو طبيعة متنوعة، اهتم بالبلاغة والفلسفة من أهم أعماله: التحولات.

** الحمار الذهبي: عرفت الرواية أيام أوغسطين باسم الحمار الذهبي، وقد يكون هو من أطلق عليها الاسم الذي اجتاز فترة العصور وعرفت باسم التحولات في الأدب الأوربي، وترجمها البعض إلى العربية باسم تحولات الجحش الذهبي، والمسوخ والحلوليون، انظر ابو العيد دودو.

[73] ابوليوس لوكيوس، الحمار الذهبي، ترجمة: أبو العيد دودو، (ط 3؛ بيروت: الدار العربية للعلوم، 2004)، ص 30.

مانوي العقيدة، ويوضح هذا في الاعترافات قائلا: "خطا كبير، يوم فضلت الترهات على المؤلفات المسيحية النافعة، أو بالأحرى كما يذكر، يوم كرهت هذا، وتعلقت بذاك، من الثابت والأكيد أن واحد وواحد يجمعان اثنين، إنني كرهت هذه الأمثولة"[74] فتحول من العقيدة الثنائية، إلى المسيحية التي تضع خط فاصل بين الإيمان والشيطان، وعندما أعلن بان المسيحية هي الديانة الرسمية للإمبراطورية، وتراخت علاقة أوغسطين بالمانوية حتى قطع صلته بها بعدما ظل تابعا فيها طوال تسع سنين.

وبقي كل فرد ومواطن روماني يحن إلى تقديس الأوثان ونجده دوما يتخذ موقف الحذر من تعاليم الديانة الجديدة التي استبدلت هذا الترف والمجون بمحبة الإله، وصورت السعادة في المؤسسة الكنسية، ووعدت الضعفاء بالخلاص والإنصاف، في ذات الوقت لم يتحرر الفرد الوثني كليا من معتقداته، فكان التعارض لا يكاد يدس بين الوثنية والمسيحية التي تهتم بالحياة الأخروية، وها هو هذا التعارض بين العقائد داخل روما يخرج من المظمر إلى العلن تزامنا مع سقوط الإمبراطورية على أيدي قبائل القوط، وبعدها خرج هذا الصراع الخفي المستتر إلى بلاط تبادل التهم، لا سيما وأن المسيحية اعتبرت لعنة جلبت سخط الآلهة بعد التخلي عن تقديم القرابين وتقديس الأوثان، حيث أن المجتمع الروماني من قبل عرف تعدد الآلهة، وتمثلت آلهتهم بكل ما يخطر على البال، واختلطت بالعقائد الطوطمية "إذ كان الرومان يؤمنون بالطيرة، والفال، والخوارق، والمعجزات، فكان كبير الإلهة جيوبتر Jupiter وسيدها يمثل السماء وإرادة السماء وأشعة الشمس "[75] ومارس هو اله الحرب آب روملوس مؤسس روما، ومينيرفا ربة الحكمة والصناعة.

وكل طرف سواء المسيحي أو وثني يبرر التدهور بفساد الطرف الآخر، وعدم تماشيه مع الملة الصحيحة فاعتبر أوغسطين أن إتباع الملذات تهوي بالإنسان إلى رتبة الفساد، لذلك يجب ترويض النفس وجعلها تطلب المعالي المقدسة وهذا من شروط استمرارية الدولة، فالأوثان لا تراعي شؤون البشر فيقول: " إن التمثال لم يكن أبدا حارسا على الناس، وإنما الناس هم الحارسون عليه، وكان المواطنون بحكم طقوسهم العامة في حماية الإلهة العاجزة

---

[74] القديس أوغسطين، الاعترافات، تعريب الخوري، أسقف يوحنا الحلو، (ط 3؛ بيروت: دار دمشق، 1986)، ص 21.
[75] العربي محمد، المناهج والمذاهب الفكرية، (د ط؛ بيروت: دار الفكر اللبناني، 1994)، ص 19.

عن حماية حراسها"[76] فالأوثان لا نفع لها وسبيل الخلاص متشبع بالإيمان المسيحي والاعتقاد الصريح بالعناية الإلهية ومرتبط بالعمل على محاربة الشهوات وصرف الرعية عن التمسك بالمدن الأرضية الفانية والارتباط بالمسار الروحي، فالتاريخ مسرحية ألفها الرب ويمثلها البشر، في مقابل هذا يرد الوثنيون بان سبب فساد الملة واندثار حضارة روما ناجم عن غضب الآلهة ونتيجة للجُبن الذي جلبته أخلاق التسامح العمياء بين الناس إضافة إلى ترك الأوثان التي تحمي الإمبراطورية الرومانية وتزامن سقوطها مع انتشار المسيحية ليس من قبيل الطفرة أو النشاز والشذوذ الذي لا يقاس عليه.

وإنما تصادف وتزامن هذا، مع اعتبار المسيحية البشارة الجديدة في حين هي سبب النكبة وأفول الحضارة، ومقابل هذا مهمة رد التهم وصرفها عن المسيحية تبناها أوغسطين القديس، الذي خصص حياته لتنظيم الكنيسة الإفريقية وللتأليف الديني، وقد ترك للمسيحيين مؤلفات لا تزال مرجعية أساسية، وكما ورد في بدء الكلام فتقوية شوكة المسيحية على حساب الانغماس في عبادة الأوثان عمل يتطلب المكابدة والتضحيات وتوعية العامة من الناس بعدم نفع وجدوى الأوثان والقرابين، وحتى إن غزو ألريك لروما لم يدمر فيه الكنائس وإنما دمر آلهة الرومان "حيث أن بلاء ومصيبة روما قد جاءت نتيجة للترف وإتباع الملذات والانحلال في الشهوات والفساد الذي تخبطت فيه الوثنية والدليل على هذا أن الغزو والتدمير والتخريب كان للأوثان ولم يكن لجميع المعابد، ولم يمس الكنائس"[77] وفي الرد على الوثنيين "يعود القديس إلى أعمال ارنوب النوميدي الملقب بارنوب الأكبر الذي بدد حجج الوثنيين المختلفة من خلال مؤلفاته خصوصا ضد الوثنيين الذي كتبه بطريقة شعرية، وبين فيه أن عبادة الله هي سبيل الفوز وضمان حسن الآخرة، وقد صنف ارنوب النوميدي في الكتابات الدينية المسيحية من آباء الكنيسة"[78].

ونظرا لجموح روملوس في الغزو واستظهار القوة بالقدر الذي أرهق كاهل الرعية، وبدد الاقتصاد وزج بالمواطنين في حروب ليس لهم فيها من ربح سوى الخسائر البشرية، فقد أصبحت جميع الفئات المغلوب على أمرها تفضل الانحياز إلى صالح التعاليم المسيحية

---

[76] القديس أوغسطين، مدينة الإله، ص 18.

[77] القديس أوغسطين، مدينة الإله، ص 38.

[78] شفيق محمد، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الامازيغ، (ط 1؛ الرباط: دار العلم، 1989)، ص 77.

وما تبشر به من أخلاق، وتسامح، وحقوق الإنسان بدل عبادة الأباطرة الرومان، وتوجيه الحياة إلى صفحة جديدة تبعدهم عن دموية الغزو والبحث عن العالمية، إلى حاضر الإيمان، والتسامح، والبحث عن الخلاص والحياة الأبدية والعالمية في مملكة المسيح، وهذا بالضبط ما جند له القديس أوغسطين مجموعة الاثنين وعشرين كتابا الموسومة بمدينة الإله. في صورة تنذر بنهاية التاريخ، الأمر الذي يسهل على الرعية هجر عبادة الأوثان والتمسك بالزهد ومحاربة الشهوات.

3/2 التوفيق بين الفلسفة والمسيحية:

طالما كان العقل والنقل فريقان، احدهما مسؤول والآخر يسال، فالعقل مسؤول عن معرفة سبيل الحكمة وإدراك علل الأشياء، أما النقل ممثلا في الأيمان المسيحي دوما يسأل عن التعفف والخلاص وقمع الشهوات بالزهد، وبين هذا اللوغوس اليوناني، وذاك الدين المسيحي وقف أوغسطين متخذا لنفسه موقع الوسط الذهبي قصد تحقيق كمال التدبير في مجتمع نواميسه تهدف إلى الاستقرار إرساء الحياة الرغدة بين الأفراد، فبذلك أتت مدينة الإله لصاحبها تبرر الديانة المسيحية، وتبعد الشخص الروماني المسلوغ في تقديس الأوثان، فهي إذا تبرير للتواجد المسيحي داخل الإمبراطورية. خصوصا بعد الهزال الذي لحق بروما في طور التراجع وأفول نجم القوة فلجا أوغسطين إلى الإيمان كسبيل وحيد وأوحد للتعقل والخلاص، لا إلى السب والشتم أو الندم الذي لا يشيد الحضارة، بل الإيمان والحكمة الفلسفية أعظم بكثير من هذا فعاد إلى الوافد اليوناني وهذه دون ريب هي السمة التي اتسمت بها العصور الوسطي بحيث يجب أن تخدم الفلسفة اللاهوت، فالشائع هو أن الحياة الفكرية في أوروبا الوسيطية طغى عليها اللاهوت المسيحي.

"والفلسفة وجدت سوى لكونها خادمة للدين أو بعبارة أخرى فالفلسفة كحقل معرفي قائم بذاته، يحظى باستقلالية نسبية ولا يقبل إلا الحقائق القائمة على أساس العقل"[79] هذا العقل هو أساس النقل حرر الإنسان من أوهام الفكر الخرافي والأسطوري، فالإيمان مرهون بالعقل، والإنسان لا يعرف، وبعد الإيمان تقذف فيه أنوار المعرفة، ومثل هذا الكلام يعود بنا عند مفهوم الإشراق مع الشيخ اليوناني أفلوطين كما يسميه الشهرستاني في مؤلفه الملل

[79] بلعزوقي محمد، الفكر السياسي لدى مارسيليو، مجلة دراسات فلسفية، السنة الثانية، العدد الرابع السداسي الثاني، الجزائر، ص 59

والنحل، فالمؤسسة الكنسية في العصور الوسطى هي الراعي المسؤول عن تحصيل المعارف، لذلك يجب تامين الأسس الفلسفية لتبرير المسيحية المتهمة، وتقويتها بدعائم فلسفية خالصة" إذ مع نهاية العصور القديمة نلاحظ البحث والحديث عن الأسس الكافية لبناء فلسفة مسيحية تمهد الطريق للعصور الوسطى "[80]وهذه هي الغاية التي يرمي إليها القديس أوغسطين قصد تأسيس حضارة روحية ومادية غير خاضعة للتدهور، وخالدة بالقيم والتعقل والفلسفة والإيمان عكس القوة المادية عند الرومان التي تلاشت مع الزمن واحرقها القوط. بكل همجية "وفي بناء الحضارة على ركن معنوي روحي فالأمر بالضرورة يستلزم نوعين من المعارف، أما المستوى الأول مرتبط بالإلهيات، وأما المستوى الثاني تضمنه المعارف الدنيوية من مختلف الفنون التي هي تمهيد للفلسفة."[81]

فالتمهيد الفلسفي إضافة إلى الوازع الروحي بعيدا كل البعد عن الانغماس في الملذات وتقديس الأوثان العاجزة حتى عن حماية نفسها من الغزو من شأنهما أن يهذبا العقل إلى الكف عن الشهوات، ولتوجيه النفس إلى محبة المعالي وصرفها عن السقوط في فخ الماديات كل هذا لتامين قسطاس العدالة، والوصول إلى محبة الله، والزهد والتحرر من عمارة مدينة الشيطان فجعل العقل أساس للرافد الديني المسيحي إذ يبشر الرعية بالخلاص من شرور المدينة الأرضية.

وطريق الخلاص مرهون بدور الكنيسة كوسيط بين الله والبشر،بحيث يتعرض القديس أوغسطين إلى مشكلة جوهرية، ومنهجية وهي مشكلة العقل والسلطة، أو كما يسميها فلاسفة الإسلام العقل والنقل" فالعقل عند أوغسطين لا يتنقل بذاته في إدراك الحقيقة المطلقة بل لا بد له في ذلك من سلطة أخرى في الغالب هي سلطة الكتاب المقدس"[82] والمسيح هو المعلم الوحيد والحقيقي للمعرفة.

[80] بيتر كوزمان،بيتر جوركار وآخرون، أطلس الفلسفة، ترجمة: جورج كتورة، (ط1؛ لبنان: المكتبة الشرقية، 2001)، ص69.

[81] برهيية إميل، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، ص 23.

[82] حنفي حسن، نماذج الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، أوغسطين أنسلم، توما الاكويني، (د ط؛ بيروت: دار التنوير، 1981)، ص13.

3- المنطلق الأدبي الفني:

قد يكون هو الزحم والمنتوج الأدبي والفني، قِبلة للتسلية، وفضاء لبث مختلف صور الخيال أو ترويحا عن النفس وهذا بالعودة إلى الروايات والأساطير التي لا تخلو عن مشاهد البطولات، إضافة إلى صور التراجيديا، والكوميديا، لكن الأمر ليس بهذا المغزى فالكتابات القصصية، والشعرية والروائية لها من الدلالات ما يكفي ليؤهلها بان تكون أرضية خصبة لتنمية وتغذية الروح النقدية والفلسفية والسياسية، فكان القديس أوغسطين بدوره ينهل ما أستطاع إليه سبيلا من هذا القبيل، إذ مزج الفن والأدب بالحكمة الفلسفية كوصفة ممتاز للوصول إلى سر الحياة الرغيدة، وهذا ما نلمسه من خلال عودة القديس إلى أعمال لوكيوس ابوليوس صاحب رواية التحولات، أو بعبارة أخرى المسوخ التي نقلت إلينا باسم الحمار الذهبي فالرواية في النهاية عبارة عن تحولات عايشها شخص زار مشعوذة واسشهوته روح المغامرة، فطلب منها أن تحوله إلى طير جميل، لكنه أخطأ وخالف الوصفة المطلوبة وتحول إلى حمار، ولكن ليس أي حمار.

فالغرابة انه نعت بالذهبي لأنه يحمل ويحبس نفسا بداخله، ومعدنها نفيس، وهذه النفس تبحث عن الخلاص وتأمل في العودة إلى النشأة الإنسية الأولى، لكن الأمر ليس بهذه البساطة فالعودة تكلف التضحيات والمكابدة، واللامنطوق من وراء الرواية هو أن الاهتداء إلى الديانة الصحيحة يتطلب العمل، وبدوره الأمر أعجب القديس أوغسطين"ولعل حديث ابوليوس الشاب عن نفسه وتجاربه الخاصة هو الذي أوحى لأوغسطين بكتابة اعترافاته، وبوضع مؤلفه بمدينة الإله، الذي يدافع فيه عن الديانة المسيحية مقابل دفاع ابوليوس عن العبادة الشرقية"[83] فهذه العبادة كانت هي الوصفة المطلوبة بخلاص ابوليوس الحقيقي من الطبع البهيمي.

فطابع النزاع من اجل الخلاص والوصول إلى التعقل، نفسه تعبير صادق عن الواقع التي عايشها أفراد المجتمع الروماني، بين الرغبة في الرهبنة مقابل تقديس الأوثان بتعاليمها ومبادئها، وتستمر مغامرة ابوليوس في البحث عن سبيل الخلاص والعودة إلى الصورة الآدمية، بعدما وعدته الساحرة في الصباح بتوفير الوصفة المناسبة، وينسلخ من ثوب

[83] ابوليوس لوكيوس، الحمار الذهبي، ص05.

الحمار، وبقي يسرع في الصبر على إماتة ساعات الليل داخل إسطبل الذي اختارته له الساحرة لقضاء ليلته لكن لسوء حظ ابوليوس في الليلة ذاتها يسطو اللصوص على المنزل ويأخذوا معهم الحمار بسره الذي يحمله داخله قصد بيعه في السوق، وهنا أصبح ابوليوس الشاب نفسها مسجونة في جسد حمار، وسلعة موجهة للبيع، إذ تداول بين مختلف المنازل وعايش صورا مختلفة حسب طبيعة الأفراد إذ ذاق التعذيب، وأبشع طرق الاستغلال، والأسر، والجوع، والقسوة بما يكفيه لعقاب نفسه.

كما استخدم في الألعاب البهلوانية، ريثما سمحت له الفرصة بالفرار، فذهب إلى شاطئ البحر، وترجى ايزيس، بحيث مكنته من العودة إلى خلقته الأولى بعدما استقام الشاب واكتشف سر الخلاص في الوازع الديني الروحي المستتر في القلوب، والذي دوما تتربص به قوى الشيطان قصد تضليله بغشاوتها ودنسها فكان خلاصه بالرهبنة لا بالشعوذة، مثلما يأمل أوغسطين بان الخلاص يكون بالتدين المسيحي وتبديد محور الشرفي المدينة الفاضلة، لكن الأمر يتطلب شيئا من الصبر و آخر من التضحيات للانسلاخ من تبعية الأوثان لا سيما وان غالبية سكان روما مسلوغين في تقديس كبير الآلهة جوبيتر، ومثلما وجد ابوليوس الشاب مفتاح الخلاص في العبادة الشرقية، فمفتاح الخلاص عند أوغسطين موجود داخل المؤسسة الكنيسة وبإتباع تعاليم التسامح، لا الانصهار في الندم، خصوصا بعد أفول حضارة روما التي بلغت العالمية قبل أن تخلص إلى مرحلة الانحطاط والهزال، لذلك يعد أوغسطين الرعية بالخلاص، ويشخص صورة الحمار في عمارة المدينة الأرضية الشيطانية.

وتكون النفس الذهبية المحبوسة هي ذاتها الإيمان المسيحي الذي يفني ذاته من اجل محبة الله، والترفع عن ترف الحياة المادية، والخلاص من الأوثان التي لا ترد الأذى حتى عن نفسها فكيف لها أن تحمي أسوار روما ! إذا فتحولات الحضارة الرومانية، لا بد لها من بلوغ زمن الانفراد والانسلاخ عن الشيطان، كما من خلال الرواية ومغامرة ابوليوس ونقده للظروف الاجتماعية في زمانه، ومعانات ابوليوس تبدو بسبب النهاية غير العضوية بمثابة تجارب حياتية، تجد حلها في الأسرار المقدسة "فحطمت الرواية الوحدة الفنية المألوفة في مثل هذه الصنعة، وجعلت شخصية البطل متذبذبة بين الرغبة في الزهد والرهبنة حبا في

القداسة، وبين الاستقامة لممارسة الحياة العادية"[84] وأيضا في اعترافات أوغسطين يتضح لنا مدى عدوله عن المانوية، التي شب عليها وتركها مقابل إفناء حياته في خدمة اللاهوت المسيحي، والمستقرئ لتراث الأدب والفلسفة يجده غنيا بمختلف الأساطير والأفكار التي تشخص السقم في الجور وإتباع الملذات وأهواء النفس الشهوانية، فبسبب هبوط النفس من جوار الآلهة فهذا عقاب لها وسجن داخل البدن، فبعدما عايشت النور هي تتذكر فقط وتتخبط في ظلمة البدن وسط عالم الطيف والأشباح المزيفة، وما الجسد ألا مقبرة، مثلما تكون هي مدينة الشيطان عند أوغسطين القديس مقبرة لدفن حقيقة الإيمان.

وعند فلاسفة الإسلام يتحدث ابن سينا، الشيخ الرئيس عن هبوط النفس من المحل الأرفع ووصولها مكرهة إلى الجسد في قصيدة النفس* فإجماع الحكماء والفلاسفة ينص بان الجسد مقبرة، وصورته عند ابوليوس تمثلت في حمار، عايش البؤس والمعاناة، مثلما يذكر أفلاطون بان البدن عقاب للنفس ريثما تترقى إلى المطلق وتجتاز مراحل تربوية تؤهلها لقنص الحكمة والخلاص، والجسد هو عالم الرذيلة والأوثان عند أوغسطين، وما الإمبراطورية الرومانية في النهاية سوى مدينة أرضية قدرها المحتوم هو الزوال والاندثار، ومن خلال رواية المسوخ أو الحمار الذهبي نجد التحول هو الحدث الرئيسي فيها، هو التحول وفي الفكر الإغريقي نجد شيء من هذا القبيل فمع فيثاغورس نجد القول بتناسخ الأرواح ،وهدا ما انتشر واسعا مع العقيدة الأورفية، بحيث أن الجنة و النار في البدن.

فمن أحسن نفسه تحل في إنسان خير، وإذا كان الفرد شرير نفسه تحل في حيوان واستبعد ابوليوس في البداية الخير مقابل تقريبه للملذات فتحول إلى حمار ريثما في النهاية يدرك حقيقة العبادة الشرقية ويعود آدميا زاهدا في الحياة، والأصل كله في هده التحولات يرجعه أوغسطين إلى انحراف الأفراد عن التعاليم الإلهية التي تتحول إلى غشاوة تقلص بصيرة الأيمان وتحد من محبة الله ، فوزن كل فرد هو من طبيعة حبه، من أحب الشيء المقدس يسمو ومن انهمك في حب المدنس يسفل دوما ويدنو، ومن أحب قوة روما فعليه أن يسلم بزوالها وسقوطها، ولا يحمل الديانة المسيحية عبء ذنب لم تقترفه قط.

---

[84] ابوليوس لوبيوس، الحمار الذهبي، ص 30.

*قصيدة النفس لابن سينا: وفحوى هذه القصيدة يدور حول علاقة النفس بالبدن، وهي قضية فلسفية لطالما تداولت على الألسنة.

فلا اتهام المسيحية يعيد أمجاد روما التي أحرقت بوحشية ، ولا التضرع للقرابين والأوثان، يضمن وحدة الإمبراطورية، بل هذا كله هو مرهون بالإيمان الذي هو ركن التعقل، بحيث أن مفتاح الحياة المستقرة الفاضلة يكون بإرادة الله و محبته ، فدوام المجد والحضارة لا يضمنها البحث عن أكسير الحياة، ومثلما أدرك غلغامش في الفكر الشرقي بعد الكد والعناء بأنه لا جدوى من البحث عن عشبة الخلود، وبعد عنائه وتعبه وحزنه على افتقاد أكسير الحياة، قالت له عجوز تقدم بها السن مما يؤهلها بأن تكون حكيمة ، يا غلغامش لا تقلق ولا تيأس إن الخلود هو حليف الآلهة ، فعندما خلقت الإنسان احتفظت لنفسها بالخلود، ونصيب الإنسان هو الموت، ومن أراد الخلود يوفره ويحققه بأعماله و أفكاره. وبالنسبة لأوغسطين فالخلود ليس من نصيب المدينة الأرضية وإنما هو لصالح المدينة السماوية ،ومعيار الفصل هو مقدار الحب والإيمان، والتسامح وما المدينة الأرضية وحضارتها سوى حالة ظرفية، شأنها في التطور شأن الإنسان المنتقل من صبا إلى كبر، وأما في نهاية التاريخ فيكون الخلاص، وهنا نلمس تداخل اللاهوت بالفلسفة السياسية والتاريخ عند القديس أوغسطين.

ومثلما عايش أبوليوس تجارب الشقاء والألم إبان تحوله ومسخه إلى حمار، ومعاناته جراء اختلاف معاملة أفراد المجتمع الروماني، ليظفر أخيرا بالخلاص بعد إيمانه، أيضا في معارك عديدة تتغلب مدينة الشيطان الأرضية على المدينة السماوية ،النصر والخلاص لكن في النهاية هو لصالح مدينة الإله، وملازم لمحبة الله أين تتحقق أقاليم التسامح والعدالة، وتحاكي المدينة السماوية تنظيم عشيرة الملائكة الأخيار، و الحديث عن مسألة التحول التي يعقبها في النهاية الخلاص وظفها أفلاطون، مثلما هي سارية مع تحولاتها أبوليوس، الذي أدرك حقيقة الأيمان .ويوضح أوغسطين أيضا تحولاته، وتدبدب شخصيته بين المانوية والمسيحية في اعترافاته ليختار الديانة المسيحية، ويجعل نفسه خادما لها ومدافعا عنها وعن قيمها، ويعكف عن ملذات الجسد.

والتقاء ثقافة أوغسطين، بتحولات ورواية أبوليوس، لم يكن هكذا ضربا من العبث وإنما له ما يبرره كون أبوليوس شخصا عايش الانسلاخ، فالحمار هو الرمز الحقيقي للانسلاخ، والجسد عبارة عن مقبرة، أما معدن الحمار هو الذهب، وبالطبع هو رمز للصفاء، وللحكمة، والتعقل وأشار أفلاطون في جمهوريته بأن المعدن الخير هو الذهب، والفيلسوف هو أحق به

كونه يدرك الحقائق ولا يخدعه الزيف، عكس السذج من الدهماء حيث ينبهرون بالمظهر ولا يفقهون الجوهر، يخدعهم الحِس، الشمس أما في العالم العقلي نجد الخير، والذهن وصورة النماذج الأصلية. عالم المثل، ويمكننا أن نصف الفكرة بأنفسنا وصفا أكثر دقة على النحو التالي "يوجد عالمان، أما العالم المنظور فيتناوله البصر، وأما العقلي فهو حكر على البصيرة"[85] وأبوليوس خدعه عالم البصر، مثلما خدع الرومان بمظاهر القوة، وأسرفوا في عبادة الأوثان، ومحبة الذات، فكانت حتمية هذا السقوط والإنحطاط.

ويعود أوغسطين ليبشر بسبيل الخلاص. والوصول إلى اللوغوس قصد بداية مسيرة الإيمان وصرف التهم عن المسيحية، والمغزى من عودة أوغسطين إلى رواية الحمار الذهبي .هي أن الحياة شقاء وتتطلب المقاومة ،والذي لا يدرك حمار، ويدرك الحمار حقيقة الله، ويرضى الإله عن الشاب، فيعود الشاب من جديد إلى طبيعته الأصلية فمهمة الرعية إذا هي البحث عن الخلاص، و جسد أوغسطين هذا بالعناية الإلهية وضرورة إتباع مخططها "فالتاريخ مسرحية ألفها الرب و يمثلها البشر"[86] وعلى هذا البند يسير أباء الكنيسة و تبرير أوغسطين يمضي على أن الرومان أخطأوا التأويل فوقعوا في الإستعمار، والهزال لذلك الانسلاخ من هذا يكون بالإيمان المسيحي، والتحرر من طغيان الأوثان والأساطير على الفكر.

---

[85] أفلاطون، الجمهورية، ص 176.

[86] صبحي احمد محمود، في فلسفة التاريخ،(د ط؛ لبنان: دار النهضة العربية، 1994)، ص 166.

4- المنطلق الواقعي:

ومن مرجعيات فكرية وفلسفة عديدة، يؤسس القديس أوغسطين دعائم مدينة الإله التي لا تخلو من تبريراتها للواقع الذي عايشته الحضارة الرومانية بالقياس إلى أي حضارة من الحضارات الأخرى، فإنها تشهد أطوارا عدة وفي نموها نجدها لا تخلو من ملامح الأسطورة والقداسة، لتصل الإمبراطورية إلى مستوى العالمية، لكن ليست عالمية الفلسفة الرواقية الطوباوية، وإنما عالمية ميزها إقدام الشباب مع رومولوس الذي احتل واستعمر غالبية المعمورة بالقدر الذي بدد وشتت موازين القوى.

لتعرف الإمبراطورية الضعف بعد القوة، وتحرق بهمجية على أيدي قبائل القوط، وهذا ما اتخذه القديس أوغسطين تبريرا واقعيا للسقوط، وليس تفننا في نسج الحجج من قبل الوثنيين إذا ارجعوا العار كله إلى تعاليم الديانة المسيحية الجديدة، وبذلك من الميدان الاستعماري وواقع القوة تصبح الإمبراطورية حديث على الألسنة، وهي الدولة المخيال التي يسعى كل فرد إلى إعادة مشعلها، وهذا ما نوضحه من خلال الحديث عن قيام وتوسع إمبراطورية روما، ثم يليه تفصيل حول أسباب سقوطها وتحولها من ميدان الواقع إلى عالم المدن الفاضلة.

1/4 - قيام وتوسع الإمبراطورية الرومانية

على قدر ما تأخرت الحضارة الرومانية في الدخول إلى التاريخ على غرار الحضارات الشرقية والإغريقية بقدر ما نجدها شغلت التاريخ، "إذ اخضع الرومان جميع العالم المسكون لحكومتهم"[87]، لذلك قيل بكل حق أن كل الطرق تؤدي إلى روما، فما هو سر هذه القفزة إلى ميدان الحضارة؟

فقد عرف العالم القديم توسع الإمبراطورية الرومانية، والمقدونية مع الاسكندر من قبلها، حتى وأن الباحث في هذا الشأن يجد نفس الحديث مع الفلسفة الرواقية، التي اعتبرت العالم بأسره موطنا للبشرية، ومع اليونان نلمس بين طيات الخطاب الأرسطي حاجة في نفسه

---

[87] الشنيتي محمد البشير، سياسة الرومنة في بلاد المغرب،(د ط؛ الجزائر، 1985)، ص 128.

قصد بلوغ عالمية الحضارة اليونانية، فكان أرسطو طاليس أستاذ وحليف الاسكندر، فمثلها العالمية للفكر في مبادئ المنطق عالمية التي يجب أن تسود مثلما تسود نواميس التدبير اليوناني غالبية المعمورة، ووراء توسع روما وقيامها دوما تتعدد اضرب التفسير وتتضارب الآراء المختلفة حول سر نشوء هذه الحضارة، فتارة نجد التأويل واقعيا، وطورا آخرى نجدها ممزوجة بالأساطير والخرافات، التي تحيط الحضارة الرومانية بطابع من القداسة، وتجعل منها هبة الآلهة، مما يلزم الرعية بالطاعة العمياء وإتباع الحاكم دون مخالفة فمؤسس هذه الحضارة له صلة بالآلهة، فيذكر ول ديورانت في مؤلفه "قصة الحضارة"، حيث أن في الحديث عن نشأة روما لا نجد إلا المفروض وغير الموثوق به، ونجد القصص الرومانية تروي عن نشأة روما ، "وذلك لما احرق الغال المدينة، احترقت في اغلب الظن معظم سجلاتها التاريخية، فاتسع المجال أمام خيال أهلها، وأغرتهم وطنيتهم إلى تصوير أهل المدينة في صور مطلقة من كل القيود."[88]

ونسج الصور الخيالية من شانه أن يزيد في قداسة المدينة، ومدى صلتها الوثيقة بالجانب الإلهي، وهذا ما عودتنا عليه الأساطير الإغريقية، "فتقول القصة، أن زوج إيناس Aeneas ابن فينوس أي الزهرة، من طروادة، ومجيئه إلى ايطاليا بآلهة مدينة برام، أي طروادة، وإتيانه ما فيها من صور مقدسة بعد ما عانى من عذاب أهلها، وتزوج إيناس... وأحد أحفاد إيناس جلس على العرش بعد أجيال من هذا الزواج، ثم اغتصب منهما العرش وأخرج فينوس من المدينة وقتل جميع أبنائه الذكور، وأرغم البنت المتبقية أن تصبح كاهنة وتظل عذراء".[89]

وبالتالي أصبحت البنت المتبقية راهبة، وذهبت البنت يوما إلى شاطئ البحر وفتحت صدرها لتتلقى النسيم واستغرقت في النوم، واسر جمالها قلب المريخ Mars فحملت منه بتوأمين، ولما وضعتهما أمر الطاغية أميلوس الذي سطا على العرش بإغراقهما في البحر، فوضِعا في رمس وأشفقت عليهما الأمواج، وحملتهما إلى البر، وأرضعتهما ذئبة، "وفي رواية أخرى أرضعتهما زوجة راعي، ويكنونها بالذئبة لان حبها لهما عارم كحب الذئاب،

---

[88] ديوارنت ول، قصة الحضارة الرومانية، تر: بدران محمد، (د ط؛ بيروت: دار الجيل، 1998)، الجزء الأول، المجلد الثالث، ص26.
[89] المرجع نفسه، ص28.

فلما شب روميلوس Romoulus وريموس Remus، قتلا الطاغية الذي استولى على العرش وسارا بقوة الشباب وعزيمته لكي يبنيا مملكة على تلال روما."[90]

وما دامت روما تأسست مع إقدام وجموح الشباب، فطبعا هذا له انعكاساته على مستوى التنظيم السياسي والعسكري، إذ في عز الشباب يسعى الحاكم لاستظهار قوته وشدة بطشه إما بالاستعمار، أو ينحو نحو حياة البذخ والترف، حتى هذا الأمر لا يقتصر فقط على النظام العسكري والسياسي، أيضا يشمل الجانب الفكري فكل دراسة لفيلسوف معين يصنفها أهل الاختصاص إلى أعمال الشباب أين نجد سعة الطموح، ثم العدول مع أعمال الكهولة، وطابع الواقعية والاتزان مع فترة الشيخوخة.

وفي شبابه احتل روميلوس غالبية المعمورة، وفرض عليها سلطته السياسية، وبالرغم من طابع التسلط إلا أننا نجد أحكام التنظيم داخل الإمبراطورية، التي أرادها دائما بأن تصبح جمهورية، وانعكس هذا التنظيم على مستويات اجتماعية ودينية وثقافية وساسية.

أما على المستوى الاجتماعي، "فنجد توزيع المهام على شكل هرمي، في قمة الهرم نجد طبقة الكهنة والملوك، ثم تليها طبقة وفئة المحاربين ومهمتاها الدفاع عن المدينة وفي القاعدة نجد طبقة المزارعين"[91]، وعايش هذا المجتمع مشاكل عدة، سهى عنها الرعية حيث انهمكوا في الغزو، لجني أرباح الحركات الاستعمارية، "فكانت الحروب تمثل أحد الحلول المؤقتة لمشاكل روما الاجتماعية التي كان خطرها يتزايد مع الأيام، خصوصا عندما أصبح من العسير الحصول على لقمة العيش واكتظت روما بالمتعطلين من الفئات الاجتماعية، وذاق منهم مجلس الشيوخ".[92]

وكل حضارة لا تخلو من المشاكل لكن قوة روما كانت تحمل معها في طياتها بذور فنائها ليلحق بها الدمار وتشيخ إذ لا دوام للمجد، فما كان البقاء من نصيب الدول الشرقية، ولا هو ملازم لدولة الاسكندر المقدوني، فكما يذكر ابن خلدون، ويليه في هذا الأستاذ مالك بن نبي بأن الحضارة أعمار مثلما للأشخاص أعمار.

---

[90] المرجع السابق نفسه، ص31.

[91] شاتليه فرونسوا، تاريخ الأفكار السياسية، تر: خليل احمد خليل، (د ط؛ بيروت: دار الفكر العربي، 1984)، ص 31.

[92] الشنتي محمد البشير، سياسة الرومنة في بلاد المغرب، ص 50.

وعرفت روما تعدد أنظمة الحكم في الجانب السياسي من ملكية، إلى جمهورية، وارستقراطية فديمقراطية، إلى الحكم الديكتاتوري العسكري، وحقق التوسع الروماني تقدما واسعا، لكن المبالغة في هذا التوسع ساهمت في تبديد القوة وتبعثرها الأمر الذي حال دون إمكانية التحكم في غالبية المستعمرات، مما جعل الإمبراطورية لقمة سائغة لقبائل القوط، إذ اجتاح ألاريك المنطقة في ظرف وجيز، "وكما يذكر احد المؤرخين، إن الحضارة الرومانية لم تمت موتا طبيعيا بل عرفت اغتيالا"[93]، وبعدما كانت روما الدولة المخيال تصبح رمادا اغبر، فهل يجوز للمفكر السياسي أن يبتعد عن روما دون أن يعبر عن دهشته وذهوله أمام مصيرها؟ وهل يجوز للفكر السياسي أن يبتعد عن الطوباوية؟ التي بدورها تعطي للفكر صورة المدينة الفاضلة بتمام القيم مما يستحيل تجسيدها على أرض وميدان الواقع؟

وفي المجال الديني كان مجتمع روما وثنيا حيث كانت تمارس مختلف الطقوس الوثنية إلى أن اعتنقت الإمبراطورية الديانة المسيحية، التي وقفت منها في البداية موقفا عدائيا، بعد موقف اللين الذي وقفته الإمبراطورية من الديانة الشرقية، وامتازت المسيحية واليهودية بطابع التوحيد مما يجعلهما غير مقبولتين عند الإنسان الوثني، الذي يرى أن تعدد الآلهة يساهم في تعدد الخوارق والقوى، "وأصبحت المسيحية الديانة الرسمية لاحقا داخل روما، بحيث عرفت انتشارا واسعا في مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وصارت العقيدة الرسمية بعد ثلاث قرون من ميلاد المسيح، وبفضل ارتكاز الإمبراطورية على كل سواحل البحر الأبيض المتوسط، ساهم هذا في سرعة انتشار المد المسيحي"[94].

أما على المستوى العسكري، فنظام روما خرج عن المألوف، وخالف تنظيم القبائل الأخرى المجاورة لها، مما جعل روما تطبق سياسة دفاعية بالمسابقة إلى الغزو لحماية نفسها، فكانت القبائل اللاتينية التي يتكون منها سكان المنطقة لا تدين بالولاء والطاعة لمدينة محددة، وعندما اعتنقت مدينة روما نظاما جد غريب هو النظام الجمهوري، ازداد حقد

---

[93]اندريه ايمار، جاني أجوابه، روما وإمبراطوريتها، تر: فريد داغر، و جورج أبو ريحان، (د ط؛ بيروت: عويدات للنشر، د.س)، ص 658.

[94]بروديل فرناند، تاريخ وقواعد الحضارات، تر: حسين شريف، (د ط؛ القاهرة: الهيئة المصرية العامة،)1999، ص 404.

الشعوب المجاورة لها، "فكان على مجتمع روما أن يعمل على حماية نفسه بممارسة سياسة دفاعية تحولت فيما بعد إلى حركة توسعية مارستها روما لتفرض نظامها على الجيران".[95]

لذلك اتسمت روما بالتوسعية لبسط نفوذها على القبائل الأخرى، خصوصا بعد أن عُرف عن الرومان ميلهم نحو الجمهورية والديمقراطية التي أخذوها عن اليونان، ومالوا إلى العالمية وتجاوزوا دولة المدينة اليونانية إلى الدولة العالمية، وهذا من خلال تنظيمات قانونية وإدارية، "ضبطت مفهوم الديمقراطية بالقدر الذي يسمح للأفراد بالمشاركة السياسية، وهذه المشاركة كانت للصفوة المختارة لا للعامة، فأفراد المدينة على سبيل المثال يتألفون من عشرة آلاف، نجد منهم خمسون فقط يحسنون لعبة الدامة، كذلك قلة قليلة تتقن السياسة"[96]، واتصاف روما بالتوسعية زاد أكثر وحبا في الطغيان والسلطة التي من خصائصها دوما البحث عن الزيادة، فشانها شان كرة الثلج الساقطة من فوق فبمقدار هبوطها تزيد سرعتها ويزداد في نفس الوقت حجمها، مما يعيق مهمة إيقافها إن لم نقل يجعلها مستحيلة.

وأوقف هذا التوسع تطور الحضارة وتحولت إلى موطن للفساد، حتى أفلت وبالتالي لم يتقبل الأفراد هذا وبرعوا في اختراع مختلف الحجج والأساطير لتجاوز أزمة السقوط، فهل نقول أن هذا مفارقة؟ حيث أن نشوء هذه الحضارة بدا بأسطورة وانتهى إليها ! والحق العار على الديانة المسيحية الجديدة، هذه الديانة التي حملت الأفراد ذنب خطيئة لم يرتكبوها أبدا، فقد حملها الوثنيون ذنب سقوط روما وما ارتكبت المسيحية هذا.

2/4 - التراجع الروماني ونمو فكرة المدينة الفاضلة:

عبر جيدا عبد الرحمان بن خلدون من خلال مؤلفه المقدمة بان الضعف إذا نزل بدولة فإنه لا يرتفع، وتشهد الإمبراطورية ضعفا وتدهورا مما يجعل إعادة بنائها أمر مستحيل إذ لا تصمد أمام الهجمات الخارجية وبعدما كانت رمزا لقوة الحضارة يدب فيها الفساد وتتكالب عليها القبائل المجاورة،فهل هذا مرده إلى الديانة المسيحية التي قيل أنها جلبت الضعف؟ أم هي أطوار وسنن الحضارة؟

---

[95]الشنتي محمد البشير، سياسة الرومنة في بلاد المغرب، ص 46.

[96]المختار عريب، مقال حول مفهوم الديمقراطية، (مجلة دراسات فلسفية)، العدد الثاني، السداسي الثاني، الجزائر، ص 32.

إذ كيف يقبل الفرد سقوط الإمبراطورية وتحولها إلى سراب؟ وكانت هذه واقعة وليست خيال، وهنا يقع في أزمة كل من أيقن بخلود الإمبراطورية الرومانية فكان تفسير الانحطاط هو هروب من الواقع وإلصاق التهم والعار كله على التعاليم المسيحية لا سيما وإنها تزامنت مع هذه الفترة.

ويبعد أوغسطين هذه الأقاويل ويحاول إبطالها من خلال مجاوزة التاريخ "إذ ينطلق في وصف تاريخ مدينة الإله من بداية الخلق بالحديث عن الملائكة قبل البشر ثم ينتقل بهذا التاريخ إلى نهاية الزمان حيث يدخل الخلق حياة الخلد السعيدة، أو شقاء الجحيم الأبدي"[97] والصورة النهائية لروما لم تكتمل بل هي فقط امتحان للأفراد بين ميلهم إلى محبة الله أو سخطهم عليه "وبالفعل موضوع مدينة الإله هو تاريخ مجاوز لتاريخ، والأمر لا يتعلق البتة بتفكير مجرد شبيه بالذي نجده عند الفارابي أو عند توماس مور، الذي يحللنا في رحلة إلى جزيرة خيالية بحثا عن المدينة المثلى، بل حقيقة التاريخ عند أوغسطين تبدأ من الله وتنتهي إليه"[98]، وبذلك التاريخ في أصوله مرتبط بالعناية الإلهية.

والديانة المسيحية لا دخل لها في هذا الضعف والتاريخ يبين بأنها مدينة دنيوية، ومن أراد الظفر بالخلود لا بد أن يسلم بحقيقة سقوط المدن الأرضية، ويؤمن بان إعادة بناءها لا تكون بالتمني وإنما بالتزود بالحكمة والفلسفة السياسية هي تجاوز لما هو كائن، اذ ينطلق الباحث من تخطي عقبة الانحطاط، فجمهورية أفلاطون تبحث عن مشروعية حكم الفيلسوف الذي رفض تطاول السفسطائيين إلى الحكم وانحرافهم من حلقة البيان والخطابة نحو ميدان السياسة، لذلك روح المدينة الفاضلة عند أفلاطون تعتمد على التربية.

أما أوغسطين في حديثه عن الحياة الفاضلة وتأكيده لمصداقية الكنيسة يعتمد على التربية الروحية وتوجيه النفس لمقصد أسمى وما الضعف إلا اختبار للأفراد الذين يعيشون أوقات عصيبة جدا خصوصا خلال اجتياح قبائل القوط لروما فيقول أوغسطين في الكتاب الأول من مدينة الإله: "ضحايا كثيرة لا تعد ولا تحصى، تقع بلا رحمة ولا شفقة خراب وتدمير بلا هوادة، الوثنيون الرومان يعزون هذه الكارثة الشاملة إلى المسيحيين ويعتبرون

---

[97] الاسقف هنري تيسي، مدينة الله عند اوغسطين وعند بعض المفكرين الاخرين، اعمال ملتقى القديس اوغسطين، ص 103.
[98] المرجع نفسه، ص 3.

بان أزمة الويل والدمار هي أزمة المسيحية"[99] وكل فرد يتمنى في نفسه عودة الأصول الوثنية ليكسب ود آلهته من جديد.

بيد أن ما حدث قد حدث فلا ينفع التمني ولا السب والشتم مثلما يفعل الصغار وكل فرد متهور كما لا فائدة نجنيها وراء الحسرة والندم واتهام الآخرين، بل يجب التعقل والإيمان بزمن الخلاص ومحبة الآخر حتى أوغسطين نفسه تأثر بسقوط روما لكنه لم يقذف الآخرين بل أتى بالمشروع البديل ليسد به النقائص.

إذ يعتبر أن المدينة السماوية هي الدولة الخالدة التي تحاكي تنظيم عشيرة الملائكة الأخيار، وفيها تعاد أصول بناء الدولة على أساس أخلاقي وديني وهذا ما يجب أن ينتظره كل فرد ويتحقق الأمر في نهاية التاريخ عندما تنحل مدينة الشيطان ويشتت المسيح صفوف أنصار المدينة الأرضية، أما المدينة السماوية فهي مرآة عاكسة لأوضاع عايشها أوغسطين ترسم لنا ضعف قوة روما.

والسياق العام للتبرير الأوغسطيني يأخذ عينته من الحضارات السابقة والى اعتبار الشعوب الماضية قد سطعت ثم بدأت تخمد ولا عودة للعصر الذهبي بل الأمل نرهنه في مدينة السماء "فأفكار العصر الذهبي والحياة السعيدة حيث يندمج كل الأفراد في مجتمع لا فوارق ولا عداوة فيه"[100] وتصور هذا العصر يجعل إيديولوجية الطوبى تمتص غضب الأفراد وتنقلهم من دولة الإنسان إلى دولة المثال في عالم اللامكان بدلالته المتميزة "فهو قلب حائل ولنموذج آخر قائم وعليه الطوبى سلاح مضاد للوضعية"[101]، في الحياة الفاضلة هي ضرب من المعيارية وبعده انتقادي يتجاوز الانحطاط الذي سئم منه أوغسطين كما قد تكون الدعوة إلى اليوتوبيا "تتضمن احتجاج ضد الظلم مثلما هو الامر عليه مع روسو، أو احتجاج ضد الفوضى كما هو عند أفلاطون، وميكيافيلي، أو احتجاج ضد الحروب مع كانط، أو هي دعوى إلى المساواة مثلما ذهب إليه كارل ماركس".[102] وأيضا نجد اليوتوبيا المعاصرة تسر وبإلحاح على السلام العالمي مثلما هو الأمر عله مع برتراند راسل.

---

[99] القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الأول، ص 7.
[100] سعد فاروق، تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، ص 230.
[101] شاتليه فرنسوا، تاريخ الأفكار السياسية، ص 48.
[102] سبيلا محمد، للسياسة بالسياسة في التشريح السياسي، (د ط؛ لبنان: إفريقيا الشرق، 2000)، ص 34.

ومحرك البحث الأوغسطيني أعطاه بعدا يشمل الحديث عن تفاعل الحضارات، من العصر القديم إلى المسيحية، ليصل إلى توضيح حقيقة المدينة السماوية.

المبحث الرابع: إيديولوجية الدفاع عند القديس أوغسطين

1- السياق الواقعي والديني للتبرير لأوغسطيني:

يعتبر المواطن الوثني داخل الإمبراطورية الرومانية التي تعرضت للغزو بان هذا ليس من قبيل الطفرة، ولا مرده إلى الصدفة خصوصا وان هذا السقوط تزامن مع انتشار المسيحية وهذا إنما يدل على أن المسيحية لم تناسب الحضارة الرومانية، فهذه الحضارة التي عمرت طويلا عندما كانت تقدس الآلهة المتعددة ولم يتسرب إليها الضعف لكن بعد التخلي عنها حدث عكس هذا وبذلك كل الأنظار اتجهت إلى المسيحية وانتقدت بشدة التعاليم التي روجت لها أواسط ضعفاء القوم الذين يستخدمون الأخلاق فقط لحماية أنفسهم ويرفضون الظلم لكي لا يقع عليهم .

وبما أن المواطن الوثني شب على تقديس المعتقدات فالطيرة والفال ما زالت عالقة بذهنه وبذلك كان الجدال بين كل مسيحي ووثني إذ تطير الرومان من المسيحية واعتبروها جلبت لهم الذل وغضب آلهتهم التي كانت تحمي البلاد.

وبكل واقعية رفض أوغسطين هذا بل بدأ بالدفاع وانتهى بإعطاء الكنيسة ليس فقط الحق في السلطة بل الحق على رقاب الناس، وبين أن الجانب الروحي والديني في الحضارة صنوان لا يفترقان، ودفاعه يعود بنا إلى الدفاع السقراطي، "فكان هدف مدينة الإله الرد على الوثنيين وتخطت هذا النقاش لتتحول إلى تفكير على التاريخ وعلى المدينة واتت تأملات أكثر مما هي عقيدة ممذهبة [103].

وطغت التيولوجيا داخل مدينة الإله التي تقدم السلطة الدينية على الزمانية وتعطي أمثلة عن التاريخ وأهميته حيث "بين أوغسطين كيف يجب أن تكون الدولة مسيحية ممثلة في شخص رجل الدين وهي التي تتولى إدارة شؤون البشر حتى تتحقق وحدة الجنس البشري، ووحدة العقيدة، وتصبح الدولة درعا دنيويا يحمي الكنيسة"[104].

وتحقيق ما غاب عن سكان روما قوامه العودة إلى الجانب الروحي وجعل النفس مطية ارتاضت لطلب المقدسات وهجر المدنسات ومثل هذا الحديث لا يفارق كل معتقد او

---

[103] الخنساء حمزى سلمى، تاريخ الفكر السياسي في العصور الوسطى والقديمة، (ط 1؛ دون ذكر البلد ودار النشر، 1988)، ص 146.

[104] زيعور علي، الفلسفة في أوربا الوسيطية وعصري النهضة والإصلاح، (د ط؛ بيروت: المكتب العالمي، 1988)، ص 175.

ديانة سواء كانت توحيدية أو غير توحيدية فإنها ترجع القوة والضعف إلى جدلية الخير والشر لحق بروما جراء الإفراط في الحركة الاستعمارية إضافة إلى ما نجم عنها من تبديد للثروات وتوجيه الأفراد إلى السطو والقنص والحرب فقط، لذلك هذا لا يخدم التسامح الذي طالما بشرت به التعاليم المسيحية فعاد أوغسطين إلى الثنائية المانوية في حديثه عن المدينتين: مدين الإله السماوية، وتقابلها مدينة الشيطان الأرضية، وبين المدينتين علاقة صراع، والفاصل بينهما نمطية وطبيعية الحب،" فمن أجل رؤية ما يكون عليه كل شعب يجب النظر إلى موضوع حبه... والشعب يكون أفضل بمقدار ما يتفاهم حول أشياء أفضل، وممقوتا أكثر بمقدار ما يتفاهم حول أمور ممقوتة أكثر"[105].

والشعب الروماني أسرف في تقديس الأشياء الممقوتة وأستهوته الشهوات مما عجل فترة الانحطاط، وأنموذج الدولة الخالدة الأبدية، ممثلة في الدولة الرومانية عند أوغسطين وعند غيره تحولت إلى سراب، وأوهام وحاول أوغسطين تصليح هذا الجانب مبينا أن قوة التدبير هي من الاكتمال مع محبة الله، وبين خطر الأوثان، فآلهة روما لم تحرك ساكنا للرد على هجمات ألاريك وجيشه، وللدفاع عن المدينة.

وعلى العكس من هذا فتعجيل سقوط روما قد تكون فيه فوائد وحلول للمستضعفين من أهلها، إذ يتحررون من الظروف الاجتماعية التي آلت إلى التدهور، وهذا مقابل تجديد الإيمان والبحث عن سبيل الخلاص الذي هو من إتباع مخطط العناية الإلهية، التي أعجبت الرعية كونها تعدهم بغد المساواة والإخاء، ومادامت الدولة غير مسيحية " فإن هذا يعيق تحقق العدالة إن لم نقل يفنيها، ومن غير المنطقي والمعقول بل ومن المغالطة القول بأن الدولة قادرة على أن تعطى كل ذي حق حقه، إذا كانت هذه الدولة نفسها لا تعطي حق

---

[105]- شاتليه فرنسوا ، معجم المؤلفات السياسية، (ط 10؛ بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1997)، ص 114.

الإله"[106] ولا توفر تمام محبته لذلك البشارة ونور الخلاص يكون بالاقتداء بالكنيسة واستئصال الرذائل التي تحولت إلى أورام، ألحقت التدهور بالإمبراطورية العظمي، وكما ورد في بدء الكلام فالطرح الأوغسطيني يتسم بواقعية كبيرة، كونه شخص جيدا بان هذه الحضارة الاجتماعية بالغت في طلب الماديات وعطلتها الظروف المتدنية اقتصاديا وسياسيا مما فصلها عن الجانب الروحي، وما الأوثان سوى أوهام لا تنفع أي إنسان يحيى بمعزل عن الإله، وتجربة أوغسطين توضح هذا جيدا، ففي اعترافاته يوضح مدى ظلمة المانوية التي كان يتبعها في شبابه ليهتدي إلى حقيقة الإيمان، ويكشف محور الشر الذي يكيد لعالم الخير المتعالي ويحجب القيم الأخلاقية.

ففي تبريره للمسيحية فصل بين المدينتين، وبين حقيقة الصراع القائمة منذ زمن، والإنسان ذو طبيعة مزدوجة وتنازعه قوتان بسبب الخطيئة، القوة الإيمانية وتقابلها القوى المادية الدنيوية، فنصيب الأولى الخلاص والحياة الرغدة، بينما تتخبط الثانية في التيه والشقاء، والإنسانية كلها تمر بمثل هذا، ومصدر ومنطلق هذه الطبيعة الثنائية بين محور متجسدا في المدينة السماوية وبين محور الشر بإتباع المدينة الأرضية الأولى في التاريخ القديم "فمنذ أصل التاريخ الإنساني ظهر نوعان من البشر هما قابيل وهابيل، وهما رجلان متشابهين ،ولكن لهما إراداتنا مختلفتان جذريا وكل واحد منهما يمثل على الأقل إمكانية وجود مجتمع مختلف وضمير جذريا عن الآخر، ومنذ هذه الفترة فصاعدا إنقسم البشر إلى شعبين أما الأول فيحب إتباعه الخير، وأما الثاني يعمل الشر والرذيلة"[107] وتسربت الرذيلة داخل المجتمع الروماني بالقدر الذي يزيح الرعية عن معايير القيم الأخلاقية مما جعل حضارة روما ظرفية وهذا ليس إلا لكونها مدينة أرضية.

لذلك برر أوغسطين المسيحية بخطابه الفلسفي حول معنى المدينة الذي اتسم بطابع التوجه المسيحي" فعمله ألزمه بان يدخل في نقاش ذو بعد فلسفي، ومن وجهة نظر مسيحية،

[106]- حاروش نور الدين، تاريخ الفكر السياسي، ص 132.
[107] Etienne Gilson, Les Metamorphs De La Cite du dieu , (université catholique, 1952), p48.

والطابع الوثني لمفهوم المدينة هو في النهاية مجرد هيكل سياسي واجتماعي وروحه تتعلق بالعدالة المسيحية"[108] وسقوط الجمهورية راجع إلى خلافة آلهة الرومان إضافة إلى التوسع الاستعماري الذي أرهق الاقتصاد داخل الدولة، وعبر أوغسطين عن جهل الرومان من خلال المثال التالي" فإذا لم يسقط المطر على الأرض المسيحيون هم السبب، نراهم يثيرون علينا عددا كبيرا من رعاع القوم، متظاهرين بالجهل، ساعين بذلك إلى إقناع العامة، بأن تلك الكوارث التي ضربت الجنس البشري في أوقات وأمكنة مختلفة، تجد سببا وحيدا لها في الاسم المسيحي، الذي تمتد له شعبية كاسحة في كل مكان للقضاء على آلهتهم، هذه الآلهة التي لا تبالي بشؤون الناس"[109] ولا تعمل على تنظيم وإدارة شؤونهم الاجتماعية وكذلك الأخلاقية، بل الأخطر من هذا كله فإنهم يتركون الإدارة للشر وللرغبات والأهواء الإنسانية التي تخدم المدينة الشيطانية الأرضية.

وراح أوغسطين يصحح هذه النظرة ويفسر مآل التاريخ وحقيقته، وبين إنهزام آلهة الرومان، ومدى قصورهم وعجزهم عن حماية المدينة "فالآلهة الذين فاخر بهم الرومان حراسا للمدينة، يا لفداحة الخطأ الذي يستعدي الشفقة"[110] بل الحماية الحقيقة هي من الإيمان المسيحي والاعتقاد بحقيقة مسار التاريخ الذي يلزم البشر بإتباع مخطط العناية الإلهية، والارتباط بالأوثان حول الإمبراطورية إلى مكانة المغلوب، بعدما كانت هي الغالب، لذلك يجب إعادة الاعتبار إلى الوازع الروحي قصد إعادة بناء الحضارة" فحاول القديس أوغسطين بناء فلسفة اجتماعية جديدة، من خلال تفسير هذا الوضع وشرحه لمجمل الشروط والأسباب المؤدية إلى إنهيار روما إضافة إلى تبرير المسيحية"[111] وعاد إلى تأصيل تاريخ المدينة وبين موقعها في تاريخ البشرية ومنذ آدم، وهابيل وقابيل إلى الخلاص بنصرة قوى الإيمان على دنس وعمارة وقوة المدينة الأرضية الشيطانية،والرومان خدعوا أنفسهم في إتباع الرذائل مثلما تدعو إليه اللذة والفلسفات التي تستسلم للحواس وفي النهاية تجلب الألم لصاحبها.

---

[108] Ibid , p 37

[109]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الأول، ص 65.

[110]- المصدر نفسه، ص 12.

[111] - jean servier , histoire de l’utopie , p62.

وحقيقة البقاء مرهونة بالعناية الإلهية، وبإتباع مسرحية التاريخ التي ألفها الرب ليسير عليها البشر كون التاريخ كله موجه نحو غاية محددة وهي الإكمال بالله وهذه المحبة لله تصل إلى درجة إحتقار الذات والانسلاخ من البهيمية بمحاربة الشيطان، مقابل الابتعاد عن دنس المادة التي هي سبب الشرور وهنا نلمس الحضور الأفلوطيني في الخطاب الأوغسطيني .

وكما ورد في بدء الكلام فتبرير أوغسطين لسقوط روما أتخذ منحنى تاريخيا يقتبس من نظرية العناية الإلهية، ويوضح دور الكنيسة في إرشاد الرعية وتحريرها من عالم الظلمات والشهوات ليطفروا في نهاية التاريخ بالخلاص وتتحقق أقاليم المدينة السماوية الأبدية، وليست المدينة الأرضية وتكون العدالة عذراء والتسامح بين الرعية إضافة إلى تمجيد الإيمان المسيحي والله .

وعموما فإذا كانت بواكير مدينة الإله في موقع الدفاع عن المسيحية فهذا لا يمنع أن تكون لها مقاصد أخرى تخدم الفلسفة واللاهوت المسيحي، فكما يذكر الدكتور على زيعور في مؤلفه الفلسفة في أوربا الوسطية وعصري النهضة والإصلاح" تلك هي السياسة الأوغسطينية، فهي متدينة إلى أقصى وأبعد الحدود ترى دوما في المسيحية بأنها دين قلب ولا يعادل بقيم أخرى، على تطبيق الفضائل كالطهارة، ونكران الذات، وتدعوا إلى الأخوة، وهذا هو حجر الزاوية في البلاد "[112] والسبيل إلى هذا كله يكون بجعل النفس تبتعد عن الشهوات من أجل طلب المعالي من الأخلاق وهجر الرذائل والاهتمام بالمدينة السماوية، لا الانهماك في حضارة المدينة الأرضية عالم الزيف.

كونها ظرفية لا تحصل على الخلود الأبدي، فلا دوام للخلود في العالم الأرضي وإنما صورة الخلاص تشبر بها المسيحية، ومدينة الإله تبحث دوما عن تبرير التاريخ وتفسير المجتمع والإنسان لتجاوز ما هو كائن، والوصول إلى ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع من معيارية التي ألبسها أوغسطين ثوب اليوتوبيا لتلتحق بصف المدن الفاضلة الخالية من الشرور والبلاء والحروب، إذا أراد القديس إعطاء التحليل الشامل للتاريخ الإنساني والتعاليم المسيحية قصد الرد على تهم الوثنيين على المسيحية، وبين بأنها ليست هي سبب السقوط،

[112] - زيعور على، الفلسفة في أوربا الوسيطية وعصري النهضة والإصلاح، ص 188.

مفسرا حقيقة السقوط في عالم الشهوات وسبب تجدد الحضارة، ومعادلة بنائها على القيم الروحية السامية، لكن الأمر لا يكون هكذا جاهزا وإنما يتطلب ثورات قد تعود بالخسارة لمحور الخير لكن النهاية دوما تحسم لصالحه أين تنتصر المسيحية، وتصبح بذلك سلطة روحية وإدارية للحضارة، فمدينة الإله الماجدة والخالدة تعيش أثناء الحياة الدنيا على الإيمان، شاقة بذلك طريقها بين الكفار، ومن جهة أخرى تنظر قرار الحياة الأزلية بصبر حتى يأتي اليوم الذي تتحول فيه قيم العدالة إلى حكم، وإلى حين تتحصل على الانتصار.

وطبيعة هذا الانتصار قد لا يختلف حولها إثنان فالسيطرة تحسم لصالح المدينة السماوية، والحكم يسير على حذافير نواميس الأخلاق المسيحية، وريثما يتحقق هذا تنوب الكنسية في إدارة شؤون البشر، ويتحول أوغسطين_ من مدافع عن المسيحية إلى مطالب بمشروعيتها، وفي النهاية يعد الرعية بأنها المنتصر ولها الغنيمة.

2-1- السياق التاريخي للتبرير الأوغسطينى

هي إذن سنن الحضارة بالتعبير الخلدوني، أو فلسفة التاريخ، بالتعبير الفلسفي، فكل تاريخ موجه نحو غاية يؤول إليها، مثلها كل دولة تعرف أطوارا وتشهد النشوء لتبليغ أوجها وعصرها الذهني، وتصل وتؤول إلى مرحلة التراجع والشيخوخة، وهذا ما عبر عنه جيدا عبد الرحمان بن خلدون من خلال مقدمته ، حيث يرى" بأن الضعف إذ لحق ونزل بدولة لن يرتفع " [113]والحديث نفسه إنطبق على صيرورة التاريخ الروماني ، فبعد الدولة المدينة اليونانية، مجد الحضارة تتبناه الدولة العالمية الرومانية بقوتها،وقداستها المستمدة من التفسير الميثيولوجي الأسطوري لقيام هذه المدينة، مما يؤمن لها شطرا لا يستهان به من القداسة بين موطنيها، الذين عرفوا قمة التنظيم الإداري والعسكري ،وانساقوا وراء إقدام روملوس على الغزو والعمل بسياسة إخضاع الغير لسلطتهم التي شملت غالبية المناطق.

لكن التاريخ في سيرورته بين أن وهذه الحضارة تشيخ مع مرور الأيام، وكانت اللحظة المناسبة مع هجمات قبائل القوط، وهنا تكون روما قد تجاوزت أعمارها فيذكر أبن خلدون بان الدول في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر الشخص الواحد

[113] - إبن خلدون ،المقدمة، (ط1؛ بيروت: دار الفكر اللبناني،2003)، ص 171.

من العمر الوسيط، فانتقلت روما من صبى إلى كبر، ومن رخاء إلى إنحطاط وتدهور وخلف هذا التراجع الكثير من سبب حلله أوغسطين بكل واقعية.

ووراء هذه الأسباب الكثير من الذرائع لسد أزمة سقوط الإمبراطورية التي كانت تنعت بالدولة الأبدية فالطرف المسيحي ينص بأن روما مدينة أرضية وقدرها هو الزوال، كون الخلود حليف الإرادة الإلهية في نهاية التاريخ، وهذا ما عمل القديس أوغسطين على تأكيده في مؤلف مدينة الإله الذي يضم اثنان وعشرين كتابا حول الفلسفة الاجتماعية والسياسية.

أما الطرف الوثني فيرد سبب التدهور إلى لعنة كبير الإلهة جيوبيتر إذا استبدله الوثنيون بالمسيحية لاسيما وأن بشارتها بالخلاص ألهمت وأعجبت المستضعفين من الشعب الروماني إذ أدعيتهم الحروب وذاقوا مرارة تدني الأوضاع، فاقتدوا بالمسيحية ليظفروا في النهاية بالخلاص والنعيم الأبدي بعيدا عن حياة البؤس والشقاء، فحادوا عن الوثنية إذا أصبحت المسيحية الديانة الرسمية داخل الإمبراطورية، وفي هذه الفترة عرفت روما الانحطاط الذي ختمه الاريك وجيشه بحرق روما فإتهم الوثنيون المسحية وتطيروا منها، وأرجعوا إليها العار كله.

الفصل

الثاني

المبحث الأول: المدينة والتاريخ.

1- المدينة الأوغسطينية من الواقع إلى المثال .

2- تزامن سقوط روما مع إنتشار المسيحية.

3- حقيقة المدينة عند القديس أوغسطين .

المبحث الثاني : بنية المدينة الإلهية .

1- محاكاة الملائكة.

2- البنية الأخلاقية .

3- البنية الاجتماعية والسياسية .

المبحث الثالث: الصراع بين المدينتين.

1- نشأة وميلاد المدينتين .

2- مقياس المدينتين.

3- جوهر الصراع بين المدينتين .

المبحث الأول: المدينة والتاريخ.

مدينة الإله التي أرادها القديس أوغسطين أن تغترف من العناية الإلهية التي تزيدها سموا ورفعة عن شهوة الحسد والغيرة والميل الغريزي للتسلط، هذا وتجدر الإشارة أن عدا ذلك من المدن ما هو في الحقيقة إلا تحصيل حاصل جراء تنوع أشكال التدبير البشري الذي إليه لا محالة تتسرب أسباب الضعف والقلق ومسببات الهزال الذي ينتهي بالتدهور.

مثل هذا التدهور الذي تزامن مع سقوط إمبراطورية روما في وقت كتب لها فيه اعتناق المسيحية، ومعروف في المجتمع الروماني أنه عايش الوثنية لمدة طويلة، حيث كل فرد يعتقد أن تعدد الإله والخوارق من شانه أن يساهم في تعدد القوى التي تحمي البلاد، ورغم إعلان المسيحية الديانة الرسمية إلا أن الفرد الروماني دوما بقي يتخذ موقف الحذر منها، خصوصا بعد سقوط الإمبراطورية أين خرج هذا من الخفي إلى العلن.

هنا يعيد القديس أوغسطين الحقيقة إلى مجراها الأصلي مبينا طبيعة نشوء المدينة التي فيها مركبان طرف خير والآخر شرير الأول حياة حسب النفس والثاني حياة حسب الجسد والغريزة المادية، وبالتالي تلاشي وأفول القوة الرومانية مرده بالدرجة الأولى إلى اعتبارها مدينة أرضية وبما أن روما كانت كذلك فهي ليست من المدن الخالدة، وهنا وبصورة مثالية يعود بنا إلى أفلاطون وغيره من الفلاسفة الذين استهوتهم التصورات الفاضلة للمدن وبناء أوغسطين للمدينة تميز فكر القديس بلغة خطابية متفننة عودنا عليها خطباء الرومان وأيضا تميز الصراع بين المدينتين ببعده التاريخي، من خلال إطلالته على التاريخ العالمي إذ جوهر المدينة الفاضلة أو فيما نعتها توماس مور لاحقا باليوتوبيا هي ليست ضربا من المرح أو الترفيه عن النفس بالإبحار في عالم الخيال.

بل بين طيات هذه المدينة نواميس لا بد وأن تتحقق يوما بعد نزول المسيح الذي يفصل في النزاع القائم بين محبه الله ومحبة الشيطان وطرفيه مدينة الله ومدينة الشيطان ونموذجه عشيرة الملائكة الأخيار والملائكة الأشرار، وبناء المدينة إضافة إلى التجمع البشري هو خاصية إنسانية مثلما نعت أرسطو هذا التجمع في كتابه السياسة بأنه:"حيوان مدني وان لم يكن مدنيا لا اتفاقا ولكن بالطبع"[114] ويضيف أوغسطين لهذا التجمع ضميرا

---

[114] أرسطو، السياسة، تر: الأب اوغسطينوس برباراه البوليسي (ط 2: بيروت، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع)، 1980، ص 8.

جمعي يتكلم بأنه لا سلطة إلا من عند الله في المدينة السياسية التي تقطع أشواطا من تعاقب الأزمنة ومنذ هابيل وقابيل حتى نزول المسيح وتصبح حقيقة المدينة متكونة من القول بالعناية الإلهية وفلسفة التاريخ والتيولوجيا ووعد بالخلاص وهذا ما ننوي توضيحه تحت هذا المبحث من خلال المطالب التالية:

1- المدينة الأوغسطينية من الواقع إلى المثال.

ومن مدينة الإنسان التي اقل ما يقوله القديس أوغسطين عنها بأنها مجرد حضارة أرضية قدرها المحتوم هو الزوال ، ينتهج سياسة دفاعية تحول روما من مدينة الإنسان إلى مدينة المثال، والدولة المخيالية التي كمالها من كمال التدبير وروحها دينية خالصة، توفر العدالة والأخلاق للراعي والرعية على حد سواء ،والحضارة في قيامها لم تكن بالبساطة التي يتصورها العامة أيضا تدهورها لا يقبل هكذا بكل عفوية، لذلك هم انحطاط روما في ظرف ثلاثة أيام تقاسم التفكير فيه الوثني والمسيحي.

لاسيما وأن أمجادها بلغت العالمية فراح الوثني يتطير من المسيحية ويحاول كسب رحمة كبير الآلهة جيوبتر بتسليط لعنة الاتهام على المسيحية، وفي المقابل راح القديس أوغسطين يوضح أن الإنسان ليس كاملا بدون دين والغياب الديني يكون مقابل إسراف الرومان المفرط في استباحة الشهوات الأمر الذي كان سببا كافيا لسقوط الإمبراطورية وفنائها وأصبحت لقمة سهلة للأعداء، وتجربة القديس أوغسطين في حياته الدينية هي التي يعود إليها وليس هذا حكما مسبقا عنده إذا وضح جيدا في اعترافاته عدوله عن المانوية ومدى فساد هذه النحلة، وفسر التاريخ الروماني مبنيا أن ما يزرعه المسيح لاتستأصله قبائل القوط، والسلام والخلاص المسيحي آت.

ويعد زاده المؤلف من اثنين وعشرون كتابا المعروفة بمدينة الإله، وفيما يلي نوضح حقيقة المدينة وتحولاتها إضافة إلى الصراع بين الخير والشر ،ومن وراء هذا كله يبحث عن سر الحياة الآمنة آملا بتحقيق أرض الميعاد المثالية، وبذلك بعد واقع روما المعاش زمان المجد تصبح حديث الأوراق ووجودها في رأس أوغسطين الذي برع في الدفاع عن المسيحية وفي تحليل أسباب السقوط، هذا الوجود مثالي وإن جاز لنا استعارة اللفظ من صاحبه توماس موراليوتوبي ومعناه اللامكاني قصد تجاوز الواقع مفلسفا بذلك التاريخ،

ويذكر أصول المدينة وبنيتها الحقيقة على المستوى الأيطيقي والبوليطيقي،والسوسيولوجي، أين تحاكي تنظيم الملائكة، ومقابل هذا الصراع بين المدينتين الأرضية والسماوية الذي ليس نزاع ابدي بل محسوم في النهاية لصالح مدينة الإله المتعالية عن كل الشرور وفيها ينعم الأفراد بالسلام الدائم، وريثما يحل عصر الخلاص الذهبي يحلل أوغسطين تاريخ المدينتين، منذ النشأة ليبين حقيقة التاريخ العالمي والتاريخ الإلهي ليصل إلى الدولة الموعودة بكل مقوماتها المقدسة.

وبعدما كان البعض يعتقد أن روما مقدسة وخالدة أصبح وجودها حديث عابر، يحن إليها كل فرد ألف حياة المجد وحاول أن يرفع التدهور بتوجيه الأنظار إلى اليقين بأرض الميعاد والدولة المخيالية، فضعف روما كان من ازدياد قوتها التوسيعية، هذه القوة تلاشت بمرور الزمن فهل هذا مرده إلى الانحراف عن العناية الإلهية؟ أم هو مسار التاريخ الذي وصل عند هذا الحد؟

إذ تسقط روما بل تحرق في ظرف وجيز على يد طاغية همجي وهنا تحدث الصدمة لمن كان يراهن أن نموذج القوة اكتمل لاسيما بعد التحام القوة المادية بالوازع الروحي بعد دبت المسيحية وإنتشرت بالقدر الذي يؤهلها أن تصبح الديانة الرسمية داخل الإمبراطورية التي حررت المعتقد من أوهام الأوثان وتقديس آلهة والقوى الخارقة التي لا تحمي البلاد، ورغم اعتناق غالبية الرومان للمسيحية إلا أنهم تطيروا منها حيث اعتبروا بأنها سبب الضعف و مقابل هذا الهجوم الشرس على المسيحية يعلن أوغسطين هجوما على الشرور والشهوات وكل ماله علاقة بالمادة عن النحو الأفلوطيني والقطيعة المسيحية مع غرائز الحياة ويأخذ مادته من الإنجيل وفيه العودة المرتقبة للمسيح مخلص الضعفاء من ظلم الأقوياء.

حيث رد أوغسطين على الذين اعتبروا التعاليم المسيحية هي سبب التدهور، بل هم يجهلون الحقيقة كون الإمبراطورية هي مجرد مملكة دنيوية فانية خاضعة للفساد وهذه من خصائصها الجوهرية ويقول:"ومن الممكن أن الرومان قد خدعوا أنفسهم حول تعاليم أبيقور فمارسوها على أساس أنها تقتضي الاستسلام للحواس..أما الإفراط حسب أبيقور فهو يدفع إلى الألم"[115] .فإنهاك الرومان وتكالبهم على الأطماع الدنيوية أنساهم الجانب الديني وحادوا

[115] القديس أوغسطين،مدينة الإله،الكتاب التاسع عشر، ص 101.

عن صحبة الله الحّقة بل احتقروها أمام تقديس وتأليه الذات، ومخالفة العناية الإلهية وتدنيس الفضيلة الأخلاقية.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الإسقاط الطوباوي على المدينة الإلهية عند القديس أوغسطين روحه واقعية بل هي الواقع بعينه ومن منظور الفلسفة السياسية فهي مؤلف لاحق تجاوز النظرة السابقة وأعاد بناء المدينة والدولة، وهذا ما يحرك تقدم الفكر السياسي بروح النقد وهذه خاصية أبدا ما تنسلخ عليها روح الفلسفة، فمدينة الإله لا تكلفنا الرحلة إلى مدينة خيالية بوزن ومقياس ما ذهب إليه توماس مور، وكما هي ليست من قبيل الأحلام أو الإبحار في عالم الخيال، بل هي واقع بين طياته نجد ازدواجية الدفاع، أما المستوى الأول للدفاع فأدلوجته رد على تهم الوثنين وإعطاء مشروعية للمسيحية وتوضيح بأنها ليست المسؤولة عن ما يحدث بل تترك للأفراد حرية الإرادة، فمن مال إلى حيز الشيطان هو من أهل المدينة الأرضية وهذا ما طغى داخل الإمبراطورية الرومانية أما من انحاز إلى التعفف والتسامح ومحبة الله فهو من أخيار المدينة السماوية الخالدة.

أما المستوى الثاني فهو يعطي الأولوية لكلمة الكنيسة التي تعلو كل تدبير إنسي ناقص ،فهي فوق السلطة الزمنية.

ونموذج الدولة المثالية أو تصور الحياة بالتمني ينطلق من الواقع، ويعكس التصورات المتعالية عن شرور البشر بعيدا عن الفساد والضعف والطغيان، " فاليوتوبيا في حقيقة الأمر هي دفاع عن الواقع بافتراض اللامكان واللازمان حتى إنهما قد يؤولان إلى طغيان يزداد تجسيده وراء التمني والأحلام فالمكان.. مكان آخر في الزمان يرتدي دلالة مميزة إنه قلب لنظام قائم، ولنموذج آخر قائم؟[116]

وبعد المدينة الإلهية انتقادي ينطلق منذ نشأة الخلق ومع تأسيس كل مدينة وتحليل قائم لجوهر الصراع بينهما إلى غاية تحقيق السعادة الأبدية .ونظرة القديس أوغسطين لواقع روما آنذاك فتحت المدينة السماوية الخالدة على أفاق متكاملة بين الجانب التاريخي، وبين النحلة الأفلاطونية المثالية أين رفع الإمبراطورية سقوطها إلى حيز المثل أو الحكم القيمي الذي

[116]- شاتليه فرنسوا ، تاريخ الأفكار السياسية، تر: خليل احمد خليل (د ط؛ بيروت: دار الفكر العربي، 1984)، ص218.

يدرس ما ينبغي أن يكون عليه الأمر من طاعة حقيقة تضمن الخلود الأبدي في المدينة السماوية مع الملائكة الأبرار.

2- تزامن سقوط الإمبراطورية مع انتشار المسيحية

بويضة الحضارة الرومانية في تدهور كان جراء تدني الأوضاع على الصعيد السياسي والاقتصادي، والإداري، والإجتماعي، وبعد أن اشتدت شوكة القوة الرومانية، وإنزاحت بتوسعها صوب العالمية بالقدر الذي يلزم الغير بطاعتها، تصبح قبلة لهجمات قبائل القوط التي ما عرفت أوج التدبير السياسي بل ساستها الهمجية والفوضى، ويحدث هذا كله في ساعة الوغى أين أحرقت مدينة روما، بعدما كانت ساحة الجدال عاصفة دينية، أبطالها أشخاص أقاموا الاحتفالات وأعدوا العدة لإرضاء آلهتهم التي تحمي البلاد، مثلما تحميها الحصون.

والطرف الثاني يرفض تعدد الخوارق والآلهة ويقيم الحجة بالبحث عن حقيقة الإله، وهذا ما تبناه كل مسيحي مؤمن بفناء الترف ومتزود بالفضيلة مترفع عن خساسة الشهوات، وهذا الجدل حسم لصالح التعاليم المسحية التي خرجت من المضمر إلى العلن، حتى أوغسطين نفسه يعلن ردته عن ضلال المانوية، ويبعد الرعية بالبشارة ويعدهم بالحياة الأبدية، وفي اعترافاته يذكر في الكتاب الخامس في حديثه عن وميض الليل، سعيه إلى الحصول على حجة ثابتة تقنع المانويين بضلال معتقداتهم ويقول" حتى لو أنني توصلت إلى تصور طبيعة روحية لكنت حطمت جميع خزعبلاتهم وكنستها من فكري. ولم يعد لي حق بالبقاء في بدعتهم وقررت البقاء في الكنيسة الكاثوليكية، كنيسة أبائي حتى سطع نور الحق الثبات الذي يضئ لي السبيل" [117]

ونور السبيل أضاءت أوغسطين ومن معه خصوصا بعد " إعلان المسيحية الدين الرسمي لإمبراطورته وبذلك يلتحم المادي بالروحي وتصبح الدولة الأبدية هي الإمبراطورية الرومانية، التي كانت تبدو وكأنها المركز الحقيقي والوحيد للعالم، المكان المثالي الذي فيه يمكن أن تكون الحياة السعيدة"[118] وحديث الحياة السعيدة أفاض أقلام الفلاسفة، وسود

---

[117]- القديس أوغسطين، الاعترافات، ص 96.

[118]- فراح عبد العزيز،أنا القديس أوغسطين، أورغ إين أفرفن من أبناء تاغست، تر : حسين لبرش (د ط؛ الجزائر: منشورات أبيك، 2007)، ص 277.

قراطيسهم، وألهم عقولهم ، بأفكار الحق الطبيعي،العصر الذهبي،المدينة الفاضلة، مثلها القديس أوغسطين بعد ذيوع المسيحية لكن الأمور ليست بهذه البساطة، وبين طيات الأيام تخفي مآل هذا المجتمع والدولة الرومانية التي سيلحق بها التدهور.

وبالضبط في عام 410 م تعرضت للغزو من طرف جماعة ألاريك " هذا وتجدر الإشارة أن قبائل القوط، في وقت مضى قاموا بهجومات حادة وعنيفة ضد الإمبراطورية، إذ دمروا ونهبوا عاصمة روما "[119] فكان إعلان خبر إنهيار روما حدثا مهيبا له صدى قوي كون هذه الأخيرة تمثل للعالم المتوسطي الحضارة الأبدية التي لا تقهر، وأصبحت مشهدا من مشاهد التراجيديا وعم الخراب والدمار في كل مكان، وفي الكتاب الأول من مدينة الإله بين أوغسطين هذا قائلا: " فالعذراى يسبين والأطفال ينتزعون من أحضان أمهاتهم، بيوت ومعابد تنهب، أسلحة وجثث في كل مكان، قتل وحداد في كل ضرب"[120] بحيث نسي الوثني التسامح الذي بشرت به المسيحية ووقف موقف الحذر منها، بالقدر الذي يجعلها هي المسؤول الوحيد عن الخراب الروماني في حين أن للمسيحية الفضل في إعادة بث وإحياء الأمل في قلوب المستضعفين، بعدما عاشوا تدني الظروف.

فاستهواهم الخلاص الأبدي، ليكسروا به غل الاستعباد بعيدا عن التسلط والطغيان والإسراف في الشهوات، وبذاك مع هذا التزامن المسيحي الذي صادف انحلال الدولة الرومانية فالأمر لم يكن من الوزن السهل فراح أوغسطين يتجاوز التاريخ الروماني بحقيقة التاريخ المرتبطة دوما بمبدأ العناية الإلهية، فالتاريخ يبدأ من الله وينتهي إليه، لكن في صيرورته طبعا ترسم عليه أحداث متميزة موجهة نحو غاية معينة.

وعادة ما يصنف مؤلفه مدينة الإله في حيز أعمال فلسفة التاريخ التي توضح غاية التاريخ وحقيقة تدهور الحضارة، على نحو أعمال الغرب في حديثهم عن تدهور الحضارة الغربية وعن تاريخ البشرية، مثلما هي عليه مقدمة إبن خلدون التي توضح أعمار الركب الحضاري والدول، والسر في فلسفة التاريخ الأوغسطينة أن الزوال والهزال السياسي الذي يدق ناقوس الخطر هو من إنصياع النفس للجسد الذي يترك العنان للشر،وبعد هذا الشر يتفنن الفرد في التبرير فأين هي آلهة الرومان؟ التي أقيمت دوما عليها الطقوس، وكانت الرعية

---

119 -Jean servier ,histoire de l'utopie , p.61.

120- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الأول ، ص 15.

تكرمها دوما، فرعاع القوم كما ينعتهم القديس أوغسطين يرجعون هذه الكوارث المختلفة التي ضربت الإمبراطورية على الاسم المسيحي،وهذا من أجل القضاء على المسيحية، فاتهام الدين المسيحي يعد من الزور والبهتان كون الناس سذج يخدهم المظهر ولا يفقهون للجوهر، وكونهم لا يدركون بان المدينة ما هي في النهاية سوى عمارة أرضية، لذلك يجب أن يكون سعيهم حثيثا للظفر بالاستمرار الروحي للحضارة وهذا ما جسده من خلال حديثه عن المدينتين.

فكل من منها تحاكي تنظيم عشيرة الملائكة، إما الأخيار أو الأشرار وهذا حسب إرادة الملائكة في الميل إلى الخير أو الشر وليس الله مصدر الشر. وهنا يرد أوغسطين مبددا البدع المانوية، خصوصا القول بأزلية الخير والشر، جاعلا إياهما بالحرية والإرادة الإنسانية، فالشر دخل بمعصية آدم، مثلما قابيل يعتبر مؤسس المدينة السماوية وهابيل المدنية الأرضية لهذا ينكر القول بالتعاقب الدوري للأحداث التاريخية "فالوقائع الفردية لا تتكرر، والشر من غلبة الهوى على العقل عند الإنسان، فيذهب القديس أوغسطين، ومعه في هذا الطرح غيره من الفلاسفة الذين استلهموا مذهبه مؤكدين بان الشر كله نابع من صميم إرادة الإنسان "[121] وهذا الشر بلغة أدق يتحول إلى عائق وعقبة أمام تحصيل المعارف التي تسمو بالنفس إلى مرتبة القديسين والملائكة.

فالمدينة تعرف كمال الحكمة والتدبير السياسي باتحادها مع الله، وبمدى بعدها عن دنس الأوثان والقول بتعدد الآلهة وإن أوهم الوثني بتنوع الكرامات والخوارق فإنه يغرق المدينة في زور الحقيقة التي تحجبها عن نور السعادة ويذكر في الكتاب الحادي عشر من مؤلفه مدينة الإله قائلا: "بأن المدينة الأصل هي مدينة الله التي نتوق على أن نسكن فيها بالمحبة لتي يلهمنا إياها مؤسسها باني المدينة المقدسة، ويؤثر سكان المدينة الأرضية آلهتهم، لكونهم لا يعرفون إله الإلهة، لا إله الإلهة الكاذبة، الآثمة المتكبرين الذين حرموا من المشاركة في النور الدائم الإلهي فأصيبوا بالعوز وهم متسلطون" [122]. والمسحية ديانة موحدة ففي بداية ذيوعها في أرجاء الإمبراطورية لاقت عقبات أمام تعدد الأوثان داخل المجتمع الوثني الروماني وتنوع الآلهة، وبعد إعتناق المدينة أو الإمبراطورية الرومانية الرسمي

[121]- جيلسون إتيان ، روح الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، ص 176.
[122] - القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الحادي عشر، ص 5.

للمسيحية زادتها قوة روحية أكثر لكن في هذا الظرف آلت القوة داخل الإمبراطورية إلى الانقسام والفوضى السياسية وعرفت تشتت في القوة، حيث تكالبت عليها القبائل المجاورة بعدما كانت هي المستعمرة لغالبية الأقطار أصبحت المستعمرة من طرف قبائل القوط الهمجية، وهؤلاء الوثنين حادوا عن الناموس الإلهي وانسلخوا عن أخلاق التسامح المسيحية، وسيطرت عليهم الشهوات، منحطين وخائبين أمام حرق روما، وعدم تصدي آلهتهم المزعومة لحماية هذه المدينة، فوجهوا اللعنة والعار كله على المسيحية لذلك أراد أوغسطين انتهاج سياسة دفاعية، من خلال بناء مفهوم جديد يتساءل فيه عن معنى المدينة ويزاوج السلطتين الدينية والمدينة.

ويعرض بمهارة صيرورتها في مخطط العناية الإلهية الذي أعد سالفا من قبل الله، فوجد نفسه في ميدان علم لاهوت التاريخ السياسي وتبني الحجاج الإيماني الذي يوصل إلى التعقل وهاجم بدع الفلاسفة مقتبسا ما استطاع إليه من أسلوب الخطابة المعروف عند شيشرون، والقديس امبرواز أستاذه جاعلا بذلك محبة الله بندا من بنود تأسيس المدينة، إضافة إلى أقاليم العادلة، والاجتماع البشري، فمحبة الله أعز ما يطلب وأفضل ما يكسب.

والمحبة لابد أن تأسس من قبل السلطة الزمانية باختيار ممثل الشعب الذي يعمل وفق التعاليم الأخلاقية ريثما تحل نعمة اليسوع مخلص البشرية، وبمقتضى الفطرة لابد للمدينة من رئيس فيذكر غوستاف لوبون* في مؤلفه الموسوم بروح الاجتماع "أنه ما اجتمع عدد من الأحياء سواء من الحيوان أو الإنسان ألا وكان له حسب الفطرة رئيسا"[123] وهذا الرئيس ملزم بإتباع التعاليم المسيحية عند أوغسطين فالدستور الوضعي وحده ناقص ولا يفي بالغرض المطلوب.

وعليه فإن دستور المدينة يجب أن يرتبط بالتعاليم المسيحية وبالطابع المقدس، فالجديد عند القديس أوغسطين أنه لم يتقيد بآراء المفكرين اليونانيين والرومانيين في طرحه لمفهوم المدينة" ولم يوافق على اعتبار القانون أو الدستور وسيلة كفيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية، وبالنسبة إليه فإن العدالة لا يمكن أن تحقق ما دامت الدولة غير مسيحية ولا تسير وفق تعاليم

---

* غوستاف لوبون،عالم نفس اجتماعي وعالم آثار فرنسي يعتبره بعض علماء الاجتماع الفرنسيين عالم اجتماع،له العديد من المؤلفات في علم النفس الاجتماعي والحضارة.

[123] - لوبون غوستاف ، روح الاجتماع ، (د ط؛ الجزائر: موفم للنشر ، 1988)، ص 132.

الكنسية... ودافع في مدينة الإله عن ولاء البشرية للهيئات المحلية أو السلطات والجماعات الحاكمة مع ولائها في نفس الوقت للسلطة الروحية وهذا الولاء المزدوج ينتهي بتغلب المسيحية "[124] تماشيا مع الخلاص بنزول المسيح الذي يفصل في الحرب القائمة بين المدينتين الأرضية والسماوية.

ومن سياق الخطاب الأوغسطيني، يتضح لنا طابع المدينة السياسية التي نواتها لا بد بل ويجب أن تكون روحية مستمدة من محبة الله فالناموس الإلهي هنا يحقق القطبية مع الأسطورة. ويعلب دورا جوهريا في بناء المدينة، إضافة إلى أن حقيقة المدينة مرهونة بالتجمع البشري وعلى الرعية الانصياع لسلطة المدنية وطاعة الراعي الذي ينتهل بنوده التشريعية من الفضيلة الأخلاقية ومثل هذه المدينة التي توفر أقاليم الحكمة والعدالة والمساواة فوجودها يبقى مثالي وتضيفها أقرب إلى عالم المدن الفاضلة مما هو عليه في ارض الواقع كون أوغسطين بحث فيما يجب أن تكون عليه حقيقة المدينة السياسية المتحدة باللاهوت، وأعطى للحاكم صفات مثالية مفارقة لطبيعة البشر.

والمدينة السماوية تقتبس من تشريعات المدينة الأرضية لسياسة الرعية، فهذا ليس بالغريب على مثل حضارة روما التي امتازت بإحكام التشريع وبروز فقهاء قانونيين، ومشرعين أمثال شيشرون سينكا، ماركوس أوريليوس، وأراد أوغسطين مزاوجة هذه القوانين بالقيم المثلى التي تحيا بها المدينة، بدءا بالمادة الأولى وهي المحبة ويليها التعقل والتسامح إضافة إلى الدعوة إلى المساواة ففي رسالة بولس إلى أهل كولوسي يعتبر بأن المساواة هي حجر الزاوية حين قال:" أيها السادة قدموا للعبيد العدل والمساواة عالمين أن لكم أيضا سيدا في السموات"[125] فالسيد الحقيقي ليس من يسوس اليوم، وإنما من يحكم غدا في مدينة الإله لذلك على الكنيسة أن تساهم في إدارة المدينة ريثما يحل خلاص المسيح.

وهيئة المدينة السياسة هي من محاكاة مجتمع الملائكة "وأصلهما من تنوع الملائكة إلى أخيار وأشرار، وفي الأخير في نهاية التاريخ النصر والخلاص يكون لصالح محبة الله داخل المدينة الإلهية، هذه المدينة التي يثبتها الله إلى الأبد ".[126]

---

[124]- بحوش عمار، تطور النظريات والأنظمة السياسية، ص ص 113.114.
[125]- رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي، الأصحاح الثالث/04.
[126]- القديس أوغسطين، مدينة الإله ،الكتاب لحادي عشر ، ص 05.

ومفهوم المدينة الأوغسطينية نجده في سطوره الأولى ما يحيد عن باقي أشكال المدن الأخرى المألوفة تداولها في الحضارات القديمة سواء الشرقية منها أو اليونانية، فهي لا تعدوا إلا أن تكون خاصية التجمع البشري والقانون روحها وهي خاضعة لطاعته وإتباع ملة الحاكم الذي يؤمن للمواطنين قسطاس العادلة، والمدينة تتميز ببعد روحي عند أوغسطين، تاسيسها كان على ركن المحبة التي لابد لها أن تصل إلى الاتحاد بالله قصد بلوغ التعقل وكمال الحكمة وتحقيق الخلود.

وداخل هذه المدينة لن نجد من الناس إلا أحد رجلين إما رجل مؤخر في نفسه إذ أسرف في محبتها وهو مواطن داخل المدينة الأرضية، أو رجلا مقدما على نفسه تجاوز الشرور والملذات بالقدر الذي يؤهله بأن يكون مواطنا في المدينة السماوية المقدسة، والمدنيتين متداخلتين إلى غاية النصر النهائي لمحور الخير فما يبنيه المسيح أبدا لا تبدده قوة الشيطان وشروره.

3- حقيقة المدينة عند القديس أوغسطين:

يتضح المعنى الحقيقي أكثر لكلمة cité أي المدينة السياسية أكثر لدى المحدثين، فمجموع المواطنين يشكلون المدينة السياسية، وقد عرف الإغريق الدولة المدينة التي اتسع نطاقها مع الرومان لتصبح المدينة العالمية، ومعيار تصنيف المدينة وضبطها حسب ما ذهب إليه _أوغسطين هو طبيعة الحب الذي يفني ذات الإنسان في الله، حتى يكون ناموس المدينة مقدس ويذكر أوغسطين في الكتاب الحادي عشر من مدينة الإله حقيقة المدينة قائلا: " إننا نسمي مدينة الله تلك التي يشهد لها الكتاب المقدس بما له من سلطة إلهية، قلدته إياها العناية الإلهية ففاقت كل ما أنجزته سائر الأمم وسيطرت على كل أنواع القوى العقلية، والرب عظيم ومسبح جدا في مدينة إلهنا التي يثبتها إلى الأبد ".[127]

وكل حديث عن مفهوم المدينة لا يخلو من الطابع اللاهوتي الذي يلبسها ثوب القداسة، وهذا ليس بالأمر الغريب على التقليد الفلسفي، ففي الحضارة الشرقية نجد حمورابي يقول بتلقيه الألواح من إله الشمس ،وهذا يجعلها مقدسة ويجب السير على حذافرها لأن مخالفتها من عصيان الإلهة، ونفس الحديث ينطبق مع الميتيولوجيا اليونانية، وهذه القداسة عاد إليها

---

[127]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الحادي عشر ، ص15.

أوغسطين جاعلا بذلك أن بناء وتشييد المدن السياسية ليس بالطوب أو الحجارة، وإنما بالمحبة والإيمان ومن خالف هذا عدت عمارته ومدينته شيطانية، فلذلك من البدء المدن صنوان إما خيرة، تحاكي تنظيم وتدبير الملائمة الأخيار، وأما شريرة منصهرة في الظلمات و فانية في إتباع شهوات الجسد وفي تكوين المدينة وتنشأتها الأولى يتبع أوغسطين سنة القدامى، حيث يعود إلى الشعب الخلية الأساسية في تكوين الأسرة نواة المجتمع، ومجموع الأسر يشكل لنا مجتمع إذ ينمو ويبلغ مستوى المدينة السياسية ويتسع نطاقها إلى مستوى الدولة والإمبراطورية فالأمة، ومثل هذا الطرح ليس غريبا على نحلة القدامى.

فنفس التكوين للمدينة نلمسه بين طيات الخطاب الأرسطي في مؤلفه الموسوم بالسياسة، لكن يضفي عليه أوغسطين الجانب الروحي المقدس فالشعب خاضع لسلطتين الزمنية الإنسية،التي تتماشى وفق ترتيب الأمور البشرية بإرادة الإنسان، ويقابلها السلطة الروحية والمرهونة بالركن الإيماني الذي ينتهي بصاحبه إلى أعلى درجات التعقل، وطرحه لحقيقة مفهوم المدينة تجاوز لدولة المدينة في مفهومها اليوناني، فعلى الدولة الإمبراطورية العالمية التي بشر فها فلاسفة المذهب الرواقي، وبلاطها متكون من أقاليم العادلة والتسامح، والطاعة ،والسلام ودوما الأفراد ينتسبون وينتمون إلى مجموعة أسر ومجتمع ومدينة أو مملكة وإمبراطورية، وهذا يعد وقعا سياسيا يعكس مدنية الإنسان وميله للاجتماع مع أبناء جنسه والعلاقة بين كل رجل والمجتمع هي وثيقة، كعلاقة الحرف بالجملة، لكن كلمة مدينة لا تعني فقط المدينة كحيز محدود بل من معانيها الدولة الإمبراطورية وتوسعها نفسه بشكل مفهوما للحياة السياسية[128] فالشعب هو تجمع الكائنات العاقلة.

وليس أي تجمع جرثومي بمقتضى الغريزة البهيمية وروح هذه المدينة مستمدة من طبيعة الفرد ومجتمعه الممدوحة أو الممقوتة، وطبيعة هذه المحبة منبعها الجوهري إرادة الأفراد التي بدورها هي الأخيرة إما أن تساهم في نحت محور للخير والفضيلة، أو محور لظلمات الرذائل الشيطانية، والشر دخل الأرض بمعصية آدم لذلك يسعى كل فرد إلى تطهير وفدى نفسه المسيح من اجل هذا ونحن نقول بوجود مدينتين وأصلهما واحد لكن مجازيا نقول مدينة الشيطان، ومدينة الله فهما متداخلتان والمدينتان ترجع إليها سائر المجتمعات البشرية

---

[128]- فرنسوا شاتليه وآخرون، معجم المؤلفات السياسية، ص 114.

الأرضية والسماوية، ليست هذه الأخيرة بالطبع ولا تلك شريرة بالطبع كما يذهب إليه المانويون وإنما كل ينتمي إلى إحدى المدنيتين بمحض إرادته، وتجاهد كل مدينة لتحقيق الغلبة على الأخرى".[129]

وإضافة إلى خاصية التجمع البشري الذي يسهم في بناء المدينة، نجد حضور ركن الإرادة المرهونة بالأخلاق المبادئ المعيارية فهي معيار التصنيف فإذا مال الفرد إلى ذاته انحاز لنصرة مدينة الشيطان، وأما إذا مال إلى محبة الله وصل إلى حقيقة المدينة السماوية المقدسة التي تجلت أولا في الدولة العبرية تم الإمبراطورية الرومانية، لكن مافتئ أن لحق الهزال السياسي بالإمبراطورية الرومانية فأصبحت مجرد حاضرة أرضية، وفي النهاية ما هي إلا شكل من الأشكال العديدة للمدن الأرضية المحكوم عليها بالفناء والزوال، أما السعادة الأبدية هي من أسرار من نظروا على محبة الله وروضوا أنفسهم على الزهد والكف عن شرور النفس وإتباع ملذات الجسد وهذا هو أقصر طريق للوصول إلى مدينة الله السماوية التي المسيح هو مخلصها من شرور المدينة الأرضية، وإضافة إلى ما تقدم من كلام فالمدينة تقوم على المحبة والتجمع، وأيضا محاكاة الملائكة.

ومن أجل هذا عمل القديس أوغسطين على دحض إدعاءات وتتجاوز اتهامات الوثنيون الذين جعلوا المدينة قائمة على عناية الآلهة، وقصد أوغسطين إعطاء المشروعية والمصداقية للمسيحية،وبناء فلسفة اجتماعية وقيمية جديدة، تفسر التاريخ بجوهر الصراع في ثنائية الخير، والشر، التي يمثلها منذ النشأة الأولى طبيعتين وفي هذا يعود إلى هابيل وقابيل، روملوس ورمسيس، إسماعيل وإسحاق، فكل واحد منهما هو معلم لمدينة إما بالفطرة اليافعة أو بالصورة النافعة، فكانت المدنيتين مدينة الله، ومدينة الشيطان، متشابكتان، ومتداخلتان وبينهما حروب والغلبة تحسم لصالح محور الخير الذي يحيا حياة الروح.

فورد في الكتاب المقدس عن سفر روما "نحن يا إخوتي علينا حق واجب، ولكن لا للجسد حتى نحيا بحياة الجسد، فإذا حييتم حياة الجسد تموتون، وأما إذا أمتم بالروح أعمال الجسد فستحيون والمجد آت لمحالة وآلامنا في هذه الدنيا لا توازي المجد الذي سيظهر فينا

[129]- كرم يوسف ، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، ص 45.

فالخلفية تنتظر بفارغ الصبر ظهور أبناء الله"[130] لذلك الواجب بل الإلزام على كل فرد طاعة السلطة والكنيسة لضمان الخلاص والخروج عن هذه الطاعة يؤدي إلى الشرور والانحلال، لكن تزامن من سقوط روما مع إنتشار الديانة المسيحية، وهذا فيه إختبار للناس حول مدى تمسكهم بإرادة الله، وفيه العقاب لمن كان يعتبر المدينة الأرضية هي الخالدة الأبدية، فقد أهملتها الأوثان وأثملتها الشهوات عن إدراك حقيقة الركن الروحي.

فهذا الجانب لا يعرف أبدا الفناء فبرع أوغسطين في إعطاء المصداقية للمسيحية المهتمة ودعا إلى التمسك بها فمملكة لمسيح تجلت في الدولة العبرية ثم في الكنيسة وفي الإمبراطورية الرومانية التي اعتنقت المسيحية، وفي بدايتها المسيحية جذبت الأفراد لمناداتها بالمساواة وأكدت بأنهم متساوون في نظر الخالق، واعترفت بأهمية الفرد في المجتمع لذلك مالت إليها الطبقات الدنيا من الشعب الروماني "وقد انحصر الدين الجديد بين هذه الطبقات عندما كانت الإمبراطورية في قوتها وفي مجدها وفي هذه المرحلة وقع المسيحيين تحت اضطهاد الرومانيين الذين لم يعترفوا بالدين الجديد، وبعد اعتراف الإمبراطور الروماني قسطنطين زريق الرسمي بالمسيحية في القرن الرابع ميلادي عرفت انتشار واسعا بين طبقات الشعب الروماني المختلفة "[131] وهنا يحدث ما لم يكن في الحسبان، فتقع هجمات قبائل القوط على المنطقة ويحرقون روما ولم يتسنى للوثنيين الدفاع عن المدينة، فحولوا ضعفهم هذا إلى هجوم شرس على التعاليم المسيحية وألحقوا بها العار جاعلين منها المسؤول الوحيد عن سقوط الإمبراطورية.

وخلال رد أوغسطين لهذه التهم برع في الحديث الذي ضمنه "أوراق طويلة حول تدهور الحضارة الرومانية قبل القديس بوسويه وقبل حديث مونتيسكيو"[132] وبذلك توصل إلى إبراز مسار التاريخ العالمي مبينا أهدافه وضرورته، إذ وضع تاريخ روما في الموضع الصحيح والخاص به، ففي النهاية هذه الحضارة مثل الطفل تترعرع وتشب لتهرم ومآلها الزوال. وكل هذا تطلب منه ربط التقدم بالخير والتخلف بالشر فكانت عدوته الصريحة الى الموروث الثنائي المانوي من خلال القول بثنائية الخير والشر، النور والظلمة وهذا جعله

130- سفر روما الإصحاح الثامن /10-12.

131- سباين جورج، تطور الفكر السياسي، ص 201.

132 - Epusave .Combes , la doctrin politique saint augustin (Paris : Libraire Plon, 1927) ,p 48.

يحذو النعل بالنعل مع الملل والنحل القديمة خصوصا المانوية وأيضا التعاليم الثنائية التي تألف تداولها في الزرادشتية، والمزدكية فقال القديس بولاء الإنسان لمدينتين الأولى ولد بها وهي الأرضية والثانية المدينة الفاضلة السماوية أرض الميعاد وهنا نلمس التوظيف الأوغسطيني لليوتوبيا لكن ليست أي يوتوبيا تكلفنا رحلة العناء في البحث عن مدينة خيالية لامكانية وبإدارة الله والتمسك بالمسيحية سيتحول القول بالمدينة إلى مكان هو متجلي في مدينة الله التي كان هدفها الأصلي الرد على تهم الوثنيين القائلة بان المسيحين أغضبوا آلهة روما" وتحوى مدينة الإله تركيبا ومؤلفة بين حضارة العصر القديم والحضارة المسيحية كأنها جسر بين هاتين الحضارتين، وتفسير لعملية الانتقال من هاته إلى تلك، وهي نظرة شاملة عن تاريخ الروماني، وفي الكتاب عدة أطروحات ومفاهيم قانونية لا تزال حديثة، مثل القانون الطبيعي، وشرعية السلطة ، والحرية الطبيعية للإنسان"[133].

ومن خلال هذه المفاهيم يحاول أوغسطين صياغة مفهوم المدينة لتحقيق كمال، القيم الأخلاقية والاجتماعية متأثرا بأحداث عصره، باحثا عن تجاوز الكائن من الصراع الديني، والهزال السياسي، قصد إعطاء مشروعية للكنيسة ودعوة الرعية للتمسك بتعاليمها ليظفروا بالخلاص وبالمواطنة داخل المدينة السماوية المعمقة من شرور البشر، بعيدا عن معاناة أهال المدينة الأرضية في مجتمع أمن ومفطور على محبة الله، فيه الإنصاف والصحة فلا حاجة داخلها لوجود طبيب ولا قاضي، فالسقم غير موجود والعدالة متوفرة، لذلك وإن تزامنت فترة التراجع الروماني مع إنتشار المسيحية، فيعد القديس بعناية وتحليله للتاريخ مرهون بالعناية الإلهية مؤكدا أن خلاص البشر آت شريطة الصبر فتحقيق مدينة الله لا بد أن يتطلب التضحيات وأيضا يتزامن هذا مع عودة المسيح، الذي يخلص البشرية من كل الشرور.

[133]- زيعور على، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطة، ص 244.

المبحث الثاني: بنية المدينة الإلهية

مدينة الله الخالدة المجيدة تختلف جذريا في مقاييسها عما هي عليه الأمور في المدينة الأرضية موطن الشيطان والفوضى، إذ يفصل وبالتدقيق القديس أوغسطين ما تتميز به هذه المدينة من قيم رغم أنها لم تبلغ من التمدن والعمارة ما بلغته المدينة الأرضية، فالمدينة السماوية تستفيد من خيرو المدينة الأرضية، إذ جوهر المطلوب عند أهل المدينة الأرضية تطور مادي، أما روح المدينة السماوية مطلب ديني خالص، فهي تطلب محبة الله وعنايته.

من هنا شخص أوغسطين للمدينة السماوية بنية متكاملة سواء من حيث التنشئة التي هي فيها تحاكي عشيرة الملائكة الأخيار الذين ذابت إرادتهم في محبة الله ومالوا إلى هجر الدنيات التي تدنس صفاء الفضيلة الإلهية وكمالها، وهذه المدينة متراصة البناء من نواحي متكاملة سواء من الجانب القيمي الأخلاقي وفيه ترويض للنفس على محبة الخير الأسمى الذي يقدس الإنسان عكس الميل إلى الشهوات الدنيا التي تحط من قداسته.

ومن خلال هذا يوضح القديس أوغسطين بأن الله كامل ولا يخلق إلا الكمال أما الشر فهو نقص في طبيعة الأفراد، وليس أزلي ناجم من الله كما يزعم المانويين، بل الشر مراتب منه الطبيعي المتجلي في الكوارث الطبيعية ومنه الأخلاقي الذي تطور ومنذ إنحراف عشيرة الملائكة عن الخير وتقديمهم ذواتهم لدرجة احتقار الله، وبذلك المدينة في بعدها القيمي ذات أصول أخلاقية تجعل منها أنموذج الخلود لا عالم التقدم المادي الأرضي.

ومن مستوى آخر فالبنية السوسيولوجية للمجتمع الأوغسطيني داخل مدينة الإله لا تجعل التجمع هكذا جرثومي حول المادة أو نتيجة للبحث عن إشباع الحاجيات بل المحبة هي روح الجماعة وترعاها العناية الإلهية وهي أساس التجمع والتفاهم بين الأفراد.

أما من ناحية البنية السياسية فالمدينة إذ ولا بد لها من قانون جعله أوغسطين إلهي خالص فلا سلطة تعلو سلطة التدبير الإلهي وما على البشر إلا إتباع مخطط العناية الإلهية، وكل هذه النقاط المتعلقة ببنية المدينة الإلهية نوضحها في الآتي ذكره من حديث حول محاكاة الملائكة ومكونات الجانب الاجتماعي والأخلاقي والسياسي للمدينة السماوية وكيف تتميز عن نظيرتها المدينة الأرضية.

1. محاكاة الملائكة:

مدينة الإله الخالدة والتي شخص لها القديس أوغسطين رمز أورشليم، على غرار نظيرتها الأرضية فإنها تحاكي عشيرة الملائكة الأخيار مثلما نعتهم بذلك، كون الإرادة هي التي دفعتهم لذلك، ففي الكتاب الثاني عشر من مدينة الإله يوضح أوغسطين قائلا:" إن سبب سعادة الملائكة الصالحين هو اتحادهم بالكائن الأسمى وسبب شقاء الملائكة الأشرار هو انكفاؤهم عمن هو كائن بذاته نحو ذواتهم التي لا كيان لها"[134]، والمدينة الفاضلة الإلهية التي تتجاوز ما هو كائن من تدني القيم جراء تقديس الذات إضافة إلى التكالب على الشهوات، هي متحررة من كل غل من هذا القبيل، صورتها من صورة الملائكة الأبرار والقديسين"فهناك توافق تام بين المجتمع الملائكي والمجتمع البشري، ومن هذا وجدت مدينتين أو مجتمعين بين الصالحين والأشرار على حد سواء"[135].

وفي نشأة كل مدينة نجد الميل لمحاكاة صنف من الملائكة سواء صالحين أم أشرار، لذلك كان انقسام الملائكة بعد أن شقوا عصا الطاعة بالإرادة وليسو مجبرين والإرادة هي سبب الانقسام وليس كما يزعم المانويين بأزلية الخير والشر"فالخطيئة نابعة من حرية الاختيار، وكل مدينة تحاكي عشيرة معينة من الملائكة وتلاقي في النهاية نفس مصيرها، فيجيء في النهاية الملائكة وينتقمون الأشرار من الصالحين ويرمونهم في أتون النار وهناك البكاء"[136]، ومصير المدينتين مرهون بمآل مجتمع وعشيرة الملائكة.

وفي هذا لا يتحدث القديس أوغسطين عن أربع مدائن وإنما مدينتين وكل واحدة تجد صورتها في صنف الملائكة إما الصالحين وفق طاعة الله أو المنحرفين عن هذه الطاعة، وكذلك تلحق بهم الهزيمة التي تحل بالمدينة الأرضية الضالة عن التعاليم والنواميس الإلهية، والملائكة أيضا اختاروا بإرادتهم فهم في النهاية مسؤولون عنها وليس الله هو سبب الشرور، كما يزعم المانويون لذلك يرد عليهم القديس أوغسطين وبشدة وكما ورد في بدء الكلام عن

---

[134]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الثاني عشر، ص 66.
[135]- المصدر نفسه، ص 58.
[136]- متى الاصحاح التاسع والأربعون/ 30.

عشيرة الملائكة، فيعود إليهم القديس أوغسطين في حديثه عن الخلق والزمن وتراتب أيام الخلق، وكيف انقسم الملائكة بعدما شقوا الطاعة.

فكل مدينة تجد صورتها في إتباع صنف من الملائكة أخيار فضلوا العيش على الفضيلة الأخلاقية أو أشرار حادوا عنها ومالوا لجنب الرذيلة، وأهل المدينة الأرضية، يتبعون الملائكة الذين أخطأوا، "والله لم يشفق على ملائكته حين أخطأوا بل في سلاسل الظلام طرحهم في نار جهنم وسلمهم للقضاء"[137]، والقضاء يفصل فيه المسيح إذ يعطي كل مدينة نصيبها من الشقاء أو النعيم الأبدي، ومع انقسام مجتمع الملائكة حسب إرادتهم إلى أخيار وأشرار فهذا تعبير عن نقص موجود فيهم، فالله كامل ولا يخلق الإرادة الناقصة عند الأفراد، ولا يخلق الشر بل هو تعبير عن نقص في الموجود أو بلغة أخرى فانقسام الملائكة الذي تحاكيه كل مدينة سواء سماوية أو أرضية، هذا أمر مكتسب بالإرادة و حسب طبيعة الحب والميل وليس بالنظرة الفطرية الإلهية.

وبينما نجد ميل الأشرار والشيطان إلى النزوات العابرة الفانية، فهذا مطلب جوهري عند أهل المدينة الأرضية، أما المدينة الخالدة التي يرمز لها القديس أوغسطين بأورشليم الخالدة الأبدية، فهي تحاكي الفضيلة السامية عند عشيرة الملائكة الأخيار، وبذلك النشأة الأولى بدأت بانقسام الملائكة، فشخص القديس أوغسطين لهما الثنائية في التقسيم "إذ يفسر التمييز بين المدينتين السماوية والأرضية، وهذا ما فصله في <u>مدينة الإله</u>، والآن نستطيع أن نعتبر هذا التمييز قائم إلى يومنا هذا"[138] .

وجوهر هذا التمييز مستمد من طبيعة الحب سواء كان يميل إلى الله أو انحرف عنه، فيكون الشر هو تخلي عن الكائن الأسمى إلى حساب الكائن الأسفل، وبذلك يحكم الله على الملائكة الأشرار بالعقاب الأبدي وكل واحد خاضع للحكم سواء من الملائكة أو عداهم من الأشرار الذين غواهم الجسد وعاشوا حياة الشقاء المليئة بالضيق والخالية من العدل، ويذكر القديس أوغسطين في الكتاب العشرين من <u>مدينة الإله</u> قائلا: "إن الله لا يكتفي بإصدار حكم عام على الشياطين والناس يقضي عليهم بالشقاء بسبب خطيئة الملاك الأول، بل يقاضي كل

---

[137]- رسالة بطرس الرسول الثانية، الإصحاح الثاني/ 04.

[138]- Jean Claud Eslin, <u>Dieu et le pouvoir théologie et politique en occident</u>, (Paris : Seuil), p 83.

واحد على أعماله الشخصية..."[139]، ومادامت كل مدينة تجد صورة لها في عشيرة الملائكة فإنها تلاقي نفس مصير طائفتي الملائكة، وينال كل واحد ما يستحقه في نهاية التاريخ حسب التصور المسيحي. وقد قام القديس أوغسطين " بإجراء مقاربة مهمة بين الملائكة والبشر خصوصا في حرية الاختيار إذ الملائكة من حيث هم مخلوقات روحانية هم مثل البشر في حاجة إلى نفس المساعدة الإلهية لإدراك الحقيقة وحب الخير هم أيضا بحاجة إلى تدريب بعد خلقهم عن طريق رجوعهم إلى علة وجودهم، ومثلهم مثل أوائل البشر فقط للملائكة القدرة على الاختيار الحر الذي يمكنهم من الاحتفاظ بصلتهم بالله أو قطعها"[140]

فحياة الملائكة هي التي تحاكيها كل مدينة سواء بطلب الإيمان أو التقيد بشهوة التسلط، بسبب تقديم محبة الذوات على حساب المحبة الحقة لله، وبهذا ينحصر الملائكة الأشرار مع زمرة الشياطين وأهل المدينة الأرضية تحت سلطة الشهوات، مقابل السعادة الأبدية للملائكة الأخيار الذين ساروا حسب التوجيه والعناية الإلهية.

---

[139]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب العشرون، ص 64.

[140]- جيمس باترونس، أفعال البشر تخدم المعتقد الإلهي، أعمال ملتقى القديس أوغسطين افريقية وعالمية، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، 2004، الجزائر، ص285.

2. البنية الأخلاقية:

في المدينة الطوباوية الإلهية التي تحقق الخلاص وتؤمن الحياة الرغيدة لأفرادها فقيمها الجوهرية التي هي قواعد السلوك طبعا تذوب في الإرادة الإلهية ولا تحيد عن محبة الإله لدرجة احتقار الذات، وبهذا تتجلى جملة من المبادئ المعيارية التي وفقها ينبغي أن يسير السلوك الإنساني، وفي إعادة البنية الأخلاقية لمدينة الإله المقدسة كثيرا ما يلجأ أوغسطين إلى الموروث الأدبي، فالذي لا يعرف من الخيرات سوى الجسمانية طبعا ينسلخ من الجانب الإنسي، ويذوب في المادة التي هي سبب الشرور، وكما للجسد سيطرة على النفس فينبغي على الذات تجاوز كل قيد "ففي الواقع أيا تكون السيطرة التي تمارسها النفس على الجسد والعقل على العيوب على ما يبدو إن لم تؤد النفس والعقل واجب العبادة التي يطلبها فان تلك السيطرة على الجسد لا تكون مستقيمة"[141]، وفي هذا يحذو أوغسطين على حذو أفلاطون في بحثه عن الفضيلة وهي من مميزات النفس العاقلة للوصول إلى المبادئ السامية وإدراك الحقيقة لرصد درب السعادة.

فالغبطة الإلهية ونصرة المدينة السماوية في النهاية على قوى الشر وعلى دنس الماديات الأرضية هي من الإرادة الإلهية، ووزن الإنسان هو الذي يضعه في المكان المناسب، وكما يقول أوغسطين: "حاشا لقلب عبدك الذي يعترف لك أيها الرب أن يفكر بأن كل شرير يصير سعيدا، إذ هناك غبطة لا توهب للأشرار بل للذين يضاهونك حبا بك وأنت هو تلك الغبطة"[142]، فالحقيقة الأخلاقية هي من خدمة الذات الإلهية وتقديس كل خير للوصول إلى الكمال الأسمى، وهذا يتطلب من أهل المدينة السماوية الخيرة الالتزام بأمهات الفضائل من العزيمة والصبر وترويض النفس على الطاعة وعدم الاكتراث بالملذات والإيقان كل اليقين بوسطية الكنيسة لنشر التعاليم الأخلاقية، هذه التعاليم التي غابت عند الرومان مقابل تكالبهم على التوسع الاستعماري وتقديس الأوثان التي عجزت حتى عن حماية نفسها.

أما أهل المدينة السماوية معصومون من دنس الإرادة الشريرة، فهم يحيون بحسب المسيح لذلك في حديث أوغسطين عن معياري الاستحسان والاستهجان الأخلاقي نجده يرد

---

[141]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، ص 162.
[142]- القديس أوغسطين، الاعترافات، الكتاب العاشر، ص 219.

وبشدة على اعتبار أن الله مصدر الشر، ويعارض القول بأزلية الخير والشر أزليين، وينفي أوغسطين بأن يكون الله سبب الشرور، فهو مصدر كل كمال، أما الشرور فهي من إرادة الإنسان الذي اختار إما العيش بحسب الشيطان، أو العيش وفق اليسوع بولادة جديدة تجعل الله دوما حاضرا في النفس، ويرد بذلك الخطيئة إلى تجاوز القيم الأخلاقية وهذا راجع إلى نقص المحبة والله لم يخلق الشر "فالله مصدر كل شيء ومصدر كل خير وخلق الإرادة سيدة نفسها، وخلقها أيضا قادرة على أن ترتبط بالخير الأسمى وأن لا تحيد عنه، أي إنه يوجهها إلى الخير وهي تقبل أو ترفض"[143].

والفضيلة خالدة في أهل المدينة السماوية وهي الخير الذي فيه تجد النفس سعادتها، أما الشر فهو مراتب منه المرتبط بالطبيعة كالكوارث الطبيعية من براكين، زلازل، ومنه الشر الاجتماعي الذي تغذيه الأنانية والصراعات والنزاعات بين الأفراد، ومنه الشر الديني وهو الانحراف عن الحقيقة الإلهية، فاكتملت هذه الشرور داخل إمبراطورية روما ومتى كانت المعطيات والأسباب يترتب عنها نتائج. فالنتيجة هي سقوط روما وحرقها بكل همجية، والسبب ليس فيما يعتقد الوثنيون بأنهم ناجم عن لعنة الآلهة التي استبدلت عبادة الأوثان بالمسيحية، لذلك نجد أهل روما يتطيرون من المسيحية بل التدهور والهزال السياسي هو جراء التطاول عن النواميس الأخلاقية، ونقص الإيمان وصرف النفس إلى محبة الشهوات.

لذلك في حديث أوغسطين عن بنية مدينة السماء، فهو يتحدث عن نشء جديد تدرب على المكابدة والتضحية من أجل محبة الله، ويفضل أن يتحمل الظلم بدل من أن يظلم الآخرين، ويستبعد كل الشهوات، فمصادر الشر تقوم "على الشهوات الثلاث كما يذكر القديس أوغسطين في اعترافاته، تقوم على: "شهوة السلطة، وشهوة العين والحسد"[144]، أما السلطة فهي سبب الحروب، فكل فرد يسعى إلى الانفراد بالتاج والتدبير بمفرده، فروملوس قتل أخاه ليأخذ المجد بنفسه، أيضا الحسد هو نقطة التمييز بين المدينتين السماوية والأرضية.

لذلك إما أن يكون الإنسان شريكا لليسوع المخلص وإما أن يكون شريك لإبليس ولا وسطية في هذا، وهنا يتبنى القديس أوغسطين الثنائية المانوية القائلة بالخير والشر، النور والظلمة، فأهل المدينة السماوية يعيشون على الفضيلة ويهتدون من نورها، أما أهل المدينة

[143]- زيعور علي، أوغسطينوس، ص 176.
[144]- القديس أوغسطين، الاعترافات، ص 52.

الأرضية فيتخبطون في تيه وعماء الرذيلة، ولن يبلغوا الرشد الأخلاقي، فالله ليس حاضرا في مدينتهم ولا يحي أنفسهم فهم أموات بالذنوب "والخطايا التي سلكوا فيها، حسب دهر هذا العالم، وحسب سلطان الروح الذي يعمل الألم في أبناء المعصية"[145]، وتقودهم المعصية التي تحجب عنهم نور القيم الأخلاقية الموصلة إلى السعادة الأبدية دوما إلى الحروب التي سببها الشيطان، وإتباع النفس وتجاهل الحقيقة المطلقة، فقوة المدينة الأرضية من عمارة وجيش وخيرات مادية لا وزن لها أمام قوة المحبة الإلهية التي ترفع الفرد في المدينة السماوية وتسمو به سمو الملائكة والقديسين.

وبنية المدينة الإلهية هي من جوهر الله الأخلاقي الكامل لا الشر*، لا يتسرب إليها نقص الموجود الإنساني الذي يقع تحت وقع الخطيئة وإمرة الشيطان، وبالمسيح المخلص يتطهر الأفراد من الخطيئة ويولدون ولادة جديدة فطرت على الإيمان ومحبة الله والفضيلة الأخلاقية، "ولقد أراد المسيح للفرد أن يرقى إلى المستوى الكلي وبالتالي فإن الفعل الخلقي إنما يصدر عن القلب، لا عن مجرد الخضوع للقانون أو العدالة أو مجرد إطاعة الشريعة فلم يعد في المسيحية أي اتصال بين الله والإنسان، بل أصبحت هناك علاقة حية تجمع بينهما هي علاقة المحبة والحرية"[146]، وبهذه المحبة والحرية تكون الإرادة الخيرة وتعم القيم السامية عند الأفراد داخل المدينة الإلهية، فهناك يتحقق وعد الصابرين على جرم وإسراف وعدوان أهل المدينة الأرضية الضالة، وهذه المدينة هي تحت رعاية الإله، وترعاها عدالة اليسوع فالله كامل مصدر الأخلاق هذه الأخلاق غيبت عند أهل المدينة الأرضية وهذا مما أدى بذور فنائها.

---

[145]- رسالة بولس إلى أهل افسس، الإصحاح الثاني/ 1- 02.

* بعد اعتناق القديس أوغسطين المسيحية كان عليه أن يجد تفسير آخر لوجود الشر في الإنسان وفي العالم، فالله خير ولا يتغير وبالتالي لا يفعل الشر أما المخلوقات فهي وإن كانت مخلوقات الله، فهي ليست من جوهره فقد أبدعها من العدم، وما جاء من العدم ليس موجود محض، فهذه الكائنات فيها نوع من النقص- انظر عبد الرحمان بدوي، الموسوعة الفلسفية، ص 250.

[146]- عباس فيصل، الاغتراب، الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، (ط 1؛ بيروت: دار المنهل اللبناني، 2008)، ص 69.

3. البنية الاجتماعية والسياسية:

مدنية الأفراد وميلهم إلى الاجتماع مع أبناء جنسهم أمر ما حاد عن ذكره القديس أوغسطين في حديث عن المدينة وكيف تكون من أجل ضمان الاستمرارية التي هي روح محبة الله.وأيضا يذكر كيف تتكون هذه المدينة الفاضلة بفضل الاجتماع السياسي على محبة الله والزهد عن الماديات وهذا شريطة توفر دعائم وأقاليم هذه المدينة من العدالة، والحكمة والعناية الإلهية بفضل رعاية الكنيسة ريثما ينزل المسيح لينصر الحق.

والدولة يجب أن تنهل من نواميس السلطة الروحية، وتعطي لها الأولوية فهي مجموعة عاقلة تتوحد حول تملك مشترك وهادئ كما تحب "وإذا أراد الإنسان أن يعرف شعبا ما فعليه بكل تأكيد أن يتأمل فيما يحب أيا كان موضوع حبه"[147]

ومن خلال هذا الطرح انفرد القديس أوغسطين في تأصيله لمفهوم المدينة عن سنة الفلاسفة اليونان، إذ لخصوا الدولة كعصارة للتجمع البشري الذي يسوسه القانون، فأضاف أوغسطين الخير الروحي المقدس المتمثل في الولاء للكنيسة التي تبشر الرعايا بالخلاص وتصرفهم عن حياة البذخ التي تجرهم إلى التطاول على محبة الله والى الانحراف لصالح الشيطان، وهذا ما حدث ذات يوم مع المجتمع الروماني فلم تشفع له قوة التدبير السياسي والقانوني ولا تعدد الأوثان ولا التقدم في بناء الحصون أمام الغزو الأجنبي،ورغم كل هذا تسقط الإمبراطورية أمام قبائل همجية، لم تعرف حتى قوام وكمال التدبير السياسي وهذا راجع إلى نمطية الحب الذي اجتمع عليه الرومان.

مما عجل الفساد وجعل الإمبراطورية فريسة للخلافات الدموية التي جلبت لها الانهيار والشتات، لذلك أضاف القديس أوغسطين ركن المحبة الروحية التي تسمو بالمجتمع، مثلما قدم السلطة الروحية على السياسة في قوله بالعناية الإلهية، فالدولة لا تعرف التقدم والرخاء مادامت خاضعة لسلطان النفس وتابعة لإمرة الشهوات وهدفها الوحيد التقدم المادي، فيجب على السلطة أن تكون ذات بعد ومصدر الهي خالص تجمعها وتوحدها طبيعة الحب، الذي يساهم في قيام ووحدة المجتمع وما دامت المدينة الإلهية تتعايش متداخلة مع المدينة الأرضية، فإنها في مجال التدبير الاجتماعي والسياسي تستفيد وتنتفع من تدبير المدينة

---

[147]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، ص 161.

الأرضية، وهي خاضعة لها ريثما تحقق الغلبة على يد المسيح، والجديد في طرح القديس أوغسطين وتصوره لنشأة المجتمع وطبيعة التنظيم السياسي بأنه لم يوافق على اعتبار القانون والدستور وسيلة كفيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية، وبالنسبة إليه فان العدالة لا يمكن أن تتحقق ما دامت الدولة غير مسيحية ولا تسير وفق تعاليم الكنيسة[148]، كون الكنيسة مسؤولة عن البشر وهي مصدر الحقيقة والمعرفة.

فجعل القديس أوغسطين أن الإيمان يهدي إلى التعقل والتمسك بالمبادئ الأخلاقية والتعفف من شأنه أن يزيد في قوة الدولة ويوحد المجتمع، إضافة إلى خاصية الاجتماع الذي به تميز الإنسان حيث نعته أرسطو بأنه حيوان سياسي، يضيف له القديس أوغسطين طابع المحبة، فالناس يتفاهمون حول أمور عديدة، منها المستحسنة وهي شيمة من شيم المدينة السماوية الخالدة،ومنها الأمور المستهجنة وهي طبع لا يفارق المدينة الأرضية التي سقوطها أمر لا مفر منه وخلود أهلها في الجحيم، وناموس المجتمع وعرفه وقوانين المدينة مستمدة من المؤسسة الكنسية الرعية على شؤون البشر، وهي سبيل الخلاص من الخطيئة الأولى ومن خالف التعاليم المسيحية تسقط عنه المواطنة من المدينة السماوية كونه يحيا حياة بحسب الجسد وهذا مطلب أهل المدينة الأرضية في إقدامهم على استباحة الملذات الفانية الخاضعة لحتمية الفساد،وجعلهم القوة في المرتبة الأولى.

فبذلك بنية المدينة السماوية و الضمير الجمعي فيها مرتبط بقيم روحية مقدسة متحررة من طلب الشهوات، ومن سلطان النفس الشهوانية والشيطان أما السلطة فهي من تفويض الهي وسابقة عن السلطة الزمنية رغم سيادة السلطة الزمنية في الحالة الراهنة، أي أثناء سيطرة وتغلب مدينة الشيطان الأرضية قبل نزول المسيح "ففي هذه الحالة يشارك أعضاء المدينة السماوية في مزايا المدينة الأرضية وأعبائها ولكن بطريقة مختلفة، فبينما تعتبر الخيرات المادية عند أهل المدينة الأرضية غاية في حد ذاتها فهذه الخيرات يستعملها أهل المدينة السماوية لصيانة روحهم والغاية هي تحقيق الفضيلة"[149]، والقول بتفوق مجتمع المدينة الأرضية التي تتخذ رمزها في الإمبراطورية الرومانية، هذا لا يعني أنه وصل إلى درجة الكمال والسعادة فقط، فهو مجتمع حضارته مرهونة بتأمين الجانب المادي، أما مجتمع

---

[148]- بوحوش عمار، تطور النظريات والأنظمة السياسية، ص 113.
[149]- عبد المعطي علي، تطور الفكر الغربي، (ط 1؛ الكويت: مكتبة الفلاح، 1987)، ص 147.

مدينة الإله الخالدة التي رمزها أورشليم المقدسة، فجوهر مطالبها هو تأمين الخير الروحي لضمان الخلود الأبدي، فهو مجتمع مؤسس منذ البدء وسالفا على الإيمان وعلى محبة الإله الواحد، وبروز المجتمع السياسي إلى حيز الوجود هو حصيلة سقوط الإنسان"وهو مظهر اصطناعي عن خطايا الإنسان وبذلك فالإنسان ليس الحيوان السياسي والاجتماعي بحكم تعبير أرسطو"[150]، وإنما هو أسمى بذلك فهو كيان مؤسس من أجل محبة الله ويعمل في هذا الوجود لأجلها، ويسير على حذافير وبنود العناية الإلهية ، قصد التطهير من الخطيئة وتحصيل الحياة الأبدية السعيدة أو ما يعرف عند الفلاسفة بالعصر الذهبي الخالي من الصراعات والفوضى والأنانية وطلب الماديات.

ومستقبل المجتمع في المدينة الأوغسطينية يكون بالعيش وفق الإيمان وكما يقول القديس أوغسطين في حواراته الفلسفية: "فالله حاضر وموجود في كل مكان حيث يتدخل بشتى الطرق في المخلوقات التي خلقها، وهذا للتذكير بأنه هو السيد ومن أجل تهذيب الإنسان، وإن آمن هذا الأخير فان الله يواسيه وإن تمنى فالله يقوم بتشجيعه، وإن أحب فالله يساعده وإن قام بمجهود معين فالله يستجيب لذلك ويتممه"[151]، وبهذا روح المجتمع هي من المشيئة الإلهية والتدبير السياسي خاضع للسلطة الكنسية الوصية على شؤون البشرية.

كونها تنشر التسامح والعدالة والإخاء بين الناس وهذا الذي نادى به السيد المسيح قائلا: "لا تقاوموا من يسيء إليكم ومن لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر، ومن أراد أن يخاصمك ليأخذ ثوبك فاترك له رداءك أيضا، ومن سخرك أن تمشي معه ميلا واحدا، فامش معه ميلين، ومن طلب منك شيئا فأعطه، ومن أراد أن يستعير منك شيئا فلا ترده خائبا"[152]، فهذه غالبية التعاليم السياسية والاجتماعية للمدينة السماوية التي تجعل الوسيط هو في المؤسسة الكنسية، وعن هذه البنية والتصور الأوغسطيني لطبيعة السلطة داخل المجتمع كانت الأوغسطينية السياسية، فحولت تعاليم التسامح والإيمان وتقديم سلطة الكنيسة إلى طغيان مشروع و تيولوجيا كل من خالفها خالف الله ومصيره جهنم، وما على الرعية إلا

150- فاروق سعد، تراث الفكر السياسي قبل الأمير و بعد، (د ط؛ المغرب: دار الآفاق الجديدة، 1991)، ص 231.

151- Saint Augustin, Dialogues philosophiques, Tr : R.Jolver, P Delbriolle F.J. Thonnard, (Paris : Desleé Debouwer, 1954), p 657.

152- متى الإصحاح الثالث/ 03.

الطاعة العمياء والإيقان بقدوم يوم الخلاص، وهناك يعوض لهم عن شقائهم بالنعيم الأبدي والخلود.

أما الملك والحاكم فهو صورة الله في هذه الأرض ولا تجوز مخالفته، فهو يدير مختلف الشؤون بتفويض الهي ريثما تحل نعمة المخلص اليسوع لينصر أهل المدينة السماوية على طغيان واستبداد المجتمع داخل المدينة الأرضية، ويفرق بين مصير محور الخير ومحور الشر الذي يخلد في الجحيم الأبدي، فعلى كل إنسان أن يخضع لأصحاب السلطة " فلا سلطة إلا من عند الله، والسلطة القائمة هو الذي أقامها فمن قاوم السلطة قاوم تدبير الله واستحق العقاب"[153]، فلا يوجد اله آخر غير الإله لذلك هو من يسير المجتمع وفق مشيئته وتحت عنايته، عكس مجتمع المدينة الأرضية الذي تدنو به القيم جراء أتباع الشيطان والانصياع للشهوات الفانية. وإتباع الأوثان التي تتحول إلى أوهام تظلل الأفراد

وبنيان المجتمع داخل مدينة الإله متراص فلا ضرر ولا ضرار بين أفراده،اذ يمتاز بالعفة والحكمة دونما ظلم ولا عدوان بين الأفراد كونهم أحدثوا القطيعة بالتعفف عن دنس الماديات، فيذكر الرسول بولس قائلا: "أما الظالم فينال ما ظلم به وليس محاباة أيها السادة، قدموا للعبيد العدل والمساواة عالمين أن لكم انتم أيضا سيدا في السماوات"[154]، فكل واحد يعمل ما يرضي الرب وبالطبع ما يرضي الرب يرضي الرعية داخل المدينة السماوية التي تواجه دوما حربا ضريرة مع مدينة الشيطان.

وينتصر المجتمع الذي تربى على الطاعة والإيمان حين تنكشف دينونة الله العادلة، "وهناك سيجازى كل واحد بأعماله، إما بالحياة الأبدية لمن يواظبون على العمل الصالح ويسعون إلى المجد والكرامة والبقاء، وإما بالغضب والسخط على المتمردين الذين يرفضون الحق وينقادون إلى الباطل"[155] فوعد بالخلاص للمجتمع الذي تسوسه العناية الإلهية، ووعيد بالشقاء الأبدي لمن سار على نحلة الشهوات الشيطانية، لكن هذا الوعد بالخلاص مازال سره داخل الكنيسة التي يجب طاعتها واستغلها لاحقا بعد أوغسطين أنصار التيولوجيا، فالحاكم هو

[153]- رومة الإصحاح الثالث عشر/ 01- 03.
[154]- رسالة بولس إلى أهل كولوسي/ 25، 26.
[155]- رومة الإصحاح الثاني/ 6- 09.

ظل الله فوق الأرض ولا تجب مخالفته. أما الضعفاء من أفراد المدينة فما عليهم سوى العيش والصبر على أمل انتظار المخلص ليبث بينهم الخيرات والفضائل.

ومن خلال الحديث عن المجتمع داخل المدينة كما تصورها القديس أوغسطين، فإننا نلمس روح المدينة الفاضلة التي كل الخيرات حاضرة فيها ماعدا التي تخدم الشهوات وتؤدي بصاحبها إلى المجون والانحراف، أيضا نجد انحراف أفراد هذا المجتمع قوم وكأنهم معقمون من كل الشرور أشبه بالإنسان الأعلى الذي يطمح إليه نيشته في فلسفته، فهم متحدين على السلام وتجمعهم محبة الإله، في تجانس لا يراعي الاختلاف بل الناس فيه كلهم سواء يحيون بحسب الروح لا حسب الجسد الخاضع لحتمية الفساد، "فمدينة الإله تلم المواطنين من مختلف الأمم، حيث تلم شملهم دون مراعاة اختلافهم، وبفضل هذا تحافظ مدينة الإله على السلام وعلى كل ما يميل إلى تحقيق غايتها، وهذا يتجلى في دوام السلام شريطة أن لا تشذ ولا تحيد هذه الأمم عن محبة الإله"[156].

فالإله الحقيقي يوحد شمل المجتمع ويزيد سلطته قداسة، فهي كاملة تسوسها عناية الإله لا يتسرب إليها الشك، كونها من مصدر لاهوتي وليس ناسوتي ناقص، فالمدينة تتكون من المجتمعات والضمير الجمعي فيها إذا تكلم فهون ينطق بالسلام الأبدي، وينشد بالوفاق بين الإرادات الإنسانية التي صبرت على العناء جراء مواجهة ضلال المدينة الأرضية لترقى إلى السلام السماوي، " فهي إذن مدينة الإله بمجتمعها وقوانينها بدون طبقية ولا تعرف التقسيم إلى طبقات، فهي تحدد القيم والعدالة بكل شفافية ونقاء وصفاء، إذ تترك خيرا شاملا لا محدود للفضائل الفردية أكثر مما كان في الحضارات التقليدية الأخرى بالطريقة التي تتماشى وفق مخطط العناية الإلهية"[157].

فالحضارات والأمم السابقة وإن مست جزءا من سعادة الإنسان، فهي لم تدرك كل هذه السعادة الكاملة وإمبراطورية روما وإن جسدت القوة والفضيلة لاسيما بعد اعتناقها الديانة المسيحية رسميا إلا أن بذور الشر كانت ما تزال تهدد سلام الإمبراطورية حتى تدهورت، وانحل مجتمعها، أما البقاء الحقيقي وسر خلود المجتمع هو من أسرار مدينة السماء المقدسة.

---

[156]- Jean Servier, Histoire de l'utopie, p65.
[157]- Ibid, p66.

المبحث الثالث: الصراع بين المدينتين.

القول بأن المدينتين السماوية والأرضية متداخلتان ومتعايشتان، هذا لا يعني قيام الحرب بينهما، والأمر كله مرده لاختلاف نحلة كل مدينة بين الحياة وفق الجسد في الزمن والحياة الروحية الأبدية للأبرار، ونقطة الصراع تبدأ منذ نشأتهما والأمر محسوم في النهاية لصالح المدينة السماوية الخالدة، لكن في المقابل يجب أن تكابد هذه المدينة السماوية بعض الخسائر التي تلحقها بها المدينة الشيطانية.

وفي مسار هذا النزاع ينصرف أوغسطين إلى توضيح مسار التاريخ العالمي الذي هو ظل لعناية الإله،ويشمل صراعهما حديثا مطولا حول سيرورة التاريخ وغائيته وفق النظرة المسيحية التي تبدأ من الله وتنتهي إليه وهذا ما نوضحه في ما يلي:

1. نشأة المدينتين:

لا بد وأنه وراء اتحاد الكثير من عامل سواء طبيعي أو اقتصادي وكذا اجتماعي من شأنه أن يسهم في زرع بذور الحضارات بمختلف أشكالها السياسية سواء مع المدينة أو الدولة أو الإمبراطورية، فالمتفق عليه أن كل مدينة نجد لها منطلق ومسار في التاريخ العالمي رغم تسرب بعض اللمسات الأسطورية من الفكر الميثولوجي التي تربط نشأة المدن بالآلهة، أو تحاكيها مما يزيدها قداسة.

أما المدينة كما تصورها أوغسطين أهلها جعلوا النفس مطية ارتاضت لطلب العليات وهجر الديانات في ذات الوقت يؤمنون بالقانون ويكنون له الاحترام، لكن أهل المدينة لهم قلوب وهي الركن الجوهري في نشأة المدينة فالقول بوجود مدينتين هذا لا يعني انفصالها بل هما متداخلتان حتى يوم الدينونة وبداية النشأة. هي تحصيل حاصل لما يخرج من قلب الإنسان و ورد إنجيل متى:" أن كل ما يدخل الإنسان من الخارج لا ينجسه، لأنه لا يدخل إلى قلبه، بل إلى جوفه ثم يخرج من الجسد، وهذا ينطبق على الأطعمة، وقال اليسوع ما يخرج من الإنسان هو الذي ينجسه لان من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة"[158].فالإرادة الشريرة هي التي خرجت من الإنسان واحتبس بداخله الحسد.

وسائر الأفكار سواء تمس الجانب العقائدي أو الأخلاقي فإنها أيضا تضبط المجال السياسي لنشأة المدينتين بين الانهماك في طاعة الشيطان وقيام المدينة الأرضية، والميل إلى محبة الله وهذا هو جوهر الفكر السياسي المسيحي المرهون بالجانب الروحي، أما عن نشأة المدينتين فيعود أوغسطين إلى ثنائيات الخير والشر والأرض والسماء، فاتخذ معلمين هما الأساس لكل تصور، فهابيل نموذج المدينة وقابيل لأخرى، أيضا إسحاق يمثل مدينة و إسماعيل الأخرى كما هو في العهد القديم، ورملوس يمثل مدينة وريموس الأخرى، ومثل هذه الثنائية يتوفر عليها مجتمع الملائكة بين الأخيار والأشرار، لذلك لا وجود لأربع مدائن وإنما مدينتين، نقطة التمييز بينهما هي الحسد، ويتطوران إلى غاية نهاية التاريخ.

وكل من قابيل وإسماعيل ورملوس، هما تجسيد لمدينة البشر التي تفني ذاتها في إتباع الجسد وهي تعبير عن المدينة الأرضية، أما المدينة السماوية يرمز لها على التوالي كل من:

---

[158]- متى الإصحاح الخامس/ 18- 21.

هابيل، إسحاق وريموس، وفي حمل مشعل الحضارة والتدبير السياسي دوما نجد شخص واحد ينفرد بالسلطة ولا يشاركه فيها منافس، أما كل مكون للمدينة الأرضية فانه يطيب له العيش دون منافس، ويهتم بالمجد الأرضي ويغفل الشؤون السماوية، وهذا عذر كاف لتلاشي مثل هذه الحضارة، واستعارة فقط نقول مدينتان فهم في الحقيقة متعايشتان ريثما تحل نعمة اليسوع المخلص ليفصل بينهما.

فالمولود الأصلي للجنس البشري الأول هو قابيل ابن مدينة البشر والثاني هو هابيل ابن مدينة الله، وكما أن كل إنسان هو البرهان الحي على كلمة الرسول القائلة: " لم يكن الروحاني أولا، بل الحيواني وبعد ذلك الروحاني، فهو مولود من أصل محكوم عليه، يولد من ادم شريرا وحيوانيا ولا يصير روحانيا إلا إذا ولد من جديد ونما في المسيح، وهكذا فان المدينتين عندما أخذتا تولدان وتموتان، فالولادة الأولى التي يقدمها الجنس البشري هي ولادة مواطن في هذا العالم والثانية هي ولادة مواطن مدينة الإله"[159].

وإذا كان كل شخص انفرد بتأسيس مدينة سواء في صورتها المتعالية عن شرور الجسد والشيطان أو كما هي عليه المدينة الأرضية، فهذا الشر ليس منبثقا من طبيعة الإله كما يعتقد المانويين، وإنما هو نابع من الإرادة الإنسانية التي يجب أن تسير وفق مخطط العناية الإلهية حتى تتحصل على نعمة المسيح وخلود الملائكة الأبرار "ومن خلال حديث أوغسطين عن نشأة المدينتين فهو يعود إلى موضوع الإرادة، ويؤكد حرية الإرادة الإنسانية على غرار ما ذهب إليه أفلوطين، ويعتبر الإرادة بأنها القدرة على قبول تصور معين أو رفضه"[160].

ومنذ البدء تترعرع المدينتان على سلوك معين، فالسماوية أهلها في بحث حثيث عن أمهات الفضائل التي يجب أن يتحلى بها الإنسان من صبر وعزيمة وتسامح ومساواة كون الله يمطر على الأخيار والأشرار دون تمييز لذلك يجب رفض العداوة بين الناس، فأهل المدينة السماوية أشبه بالسوبرمان الإنساني المثالي تجمعهم المحبة الإلهية لا حاجة لهم إلى قاضي، ولا إلى طبيب فنصيبهم العدالة ومالهم الخلود، وفي الوقت ذاته الذي يكون المواطن فيه ساكن وعضو سياسي في المدينة السماوية، وبينهما صراع مستمر لكن ليس سرمدى لذلك تتضح لنا معالم اليوتوبيا السياسية في بحث أوغسطين عن حقيقة السعادة والقيم

[159]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 216.
[160]- كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، ص 37.

المعيارية السياسية التي أبدا لا تنسلخ عن اللاهوت المسيحي وكونها طوباوية لأنها تصور إنسان فاضل مفارق لطبيعة البشر، فالكنيسة تنوب عن المسيح في رعاية شؤون البشر ريثما ينزل المخلص، وتروض الناس على ضرورة عدم الاكتراث بالملذات والإيقان كل اليقين بوسطيتها ودورها في تدبير شؤون الأفراد.

أما المدينة الأرضية فيتخبط أهلها في ظلمات الجسد بعيدا عن الحقيقة، وتلهيهم الحياة الأرضية عن تحصيل الإيمان، وان نشأت هذه المدينة في البداية بقوة وحققت التغلب، فلابد لها أن تعرف الاندثار كونها مدينة للبشر غير خالدة رغم دقة تنظيمها السياسي، فإنها عرفت القيم الروحية الجوفاء بطغيان تقديس الأوثان، لذلك يجب النظر في التاريخ البشري ووضعه في مكانه الحقيقي.

فتقف مدينة الأرض من ناحية تدفع مجتمعها الأرضي الحوافز والدوافع الدنيا التي تستهدف التسلط والتمسك، في حين تقف في الناحية الأخرى مدينة السماء بمجتمعها الذي ما وجد إلا التماسا للسلام السماوي والخلاص الروحي "فالأولى هي مدينة الشيطان انبثق تاريخها عندما شق الملائكة عصا الطاعة، وقد تجسدت في إمبراطوريات الآشوريين والرومان الوثنية، أما الثانية فهي مملكة المسيح التي انبثقت أول الأمر في الأمة العبرية، ثم تجسدت في الكنيسة وفي الإمبراطورية التي اعتنقت المسيحية"[161]، ولكل مدينة ما يميزها فقد كان بنو إسرائيل ممثلو المدينة السماوية ، أما باقي الشعوب هم أهل المدينة الأرضية، ولما جاء المسيح انتهى هذا التمايز واختلطت المدينتان مثلما كانا عليه في بداية الخلق حتى مجيء إبراهيم وطبيعة العلاقة بين المدينتين هي مثل علاقة الكنيسة بالدولة.

فمثلما يجب أن نعطي الأولوية للكنيسة، أيضا المدينة السماوية دوما هي الخالدة، أما المدينة الأرضية فهي حالة عرضية ليست جوهرية مآلها هو الفناء، وفي الوقت نفسه"المدينة الأرضية هي موطن السلطات السياسية بأخلاقها وتاريخها ومتطلباتها ولا مدينة من هذا النوع يمكن أن تكون كاملة كونها تساند الظلم"[162]، فهي دوما في حالة من الفوضى جراء تكالب أفرادها على إخضاع الغير، والحب فيها مزيف في ظلام الشهوات، محجوب عن نور الحقيقية الإلهية، فأهل هذه المدينة الأرضية عيشهم ليس بالإيمان بل بالمادة.

---

[161]- سباين جورج، تطور الفكر السياسي، ص 276.
[162]- زيعور علي، أوغسطين، مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية، ص 225.

أما مدينة السماء فقد أسسها قابيل وكان يرمز لها بأورشليم قبل مجيء السيد المسيح، وتعمل على أن تجعل العدالة هي المسيطرة[163]، فهي مدينة المسيح وموطن القيم الأخلاقية أو كما يسميها الفلاسفة بأرض الميعاد، التي تحقق العصر الذهبي فذهبيته مستمدة من الإخلاص والحكمة والنعمة ومحبة الله، فالمدينة السماوية فطمت على التسامح وعنها تنوب الكنيسة، فهي متحررة من كل النزوات.

ومصيرها النهائي هو الخلود أما المدينة الأرضية فلا تشفع لها الانتصارات الجزئية التي تشهدها، ففي النهاية تزول وتندثر لأنها مدينة زائلة، وفي التقدم الزمني بين المدينتين يجب التحلي بالصبر على الشدائد فالحب يعترض النفس بالألم لتحقيق الغلبة على قوى الشيطان، وبذلك في نشأة المدينتين لا يحيد القديس أوغسطين عن النحلة المانوية التي تشب عليها خصوصا معيار التصنيف الثنائي بين محور الخير ومحور الشر، وبين العيش والحياة بحسب الجسد الذي هو موطن الظلمات وسلطته مستمدة من البطش والفساد الذي يحجب نور الحقيقة الإلهية في المدينة الأرضية، بينما في المقابل نجد الحياة بحسب الله والسير وفق التعاليم الأخلاقية للظفر بالاستحسان واستبعاد كل استهجان، وهذه الثنائيات بين النور والظلمة، الخلود والفناء، السماء والأرض تجعل لكل مدينة معلمها منذ البدء سواء الأصل يعود إلى انقسام الملائكة بين الأبرار والأشرار، أو إلى البشر حيث كل مولود يمثل مدينة فالأول قابيل ابن مدينة البشر، وهابيل، إسماعيل وإسحاق مثلما يعود القديس أوغسطين الى التاريخ العالمي والأمر يتعلق بنشأة روما بين روملوس ورمسيس.

وكل منهما يتخذه إما رمزا للكرامة أو نموذجا للهوان "فالله يصنع من المادة ذاتها إناء للكرامة وإناء للهوان، وإناء الهوان هو المصنوع الأول، وإناء الكرامة هو الثاني، إذ الطبع الفاسد هو الذي يسبق في كل إنسان"[164] لذلك لابد من ولادة ثانية في المسيح تحرر البشر من دنس الهوان ليرقى الفرد إلى مرتبة داخل المدينة السماوية التي تجاوزت القول بالخلود في العالم الأرضي، فهذا القول زيف ورياء، إذ رمز القوة الذي اكتمل مع الإمبراطورية الرومانية لم يكتب لها دوام الحضارة فتعرف الهزال والهزيمة على أيدي قبائل القوط، وهذا راجع إلى كون روما وضعت في مسارها الحقيقي من التاريخ الذي يجعلها في النهاية سوى

[163]- المرجع السابق نفسه، ص 225.
[164]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 216.

مدينة أرضية فانية لاسيما وأن أفرادها تطاولوا على الأخلاق، وتجاوزوا نور الفضيلة فزادهم هذا ميل إلى سلطة الشيطان. في نفس الوقت كان هذا بذور فناء الإمبراطورية التي تأسست على الحسد، حيث أن أول مؤسس للمدينة الأرضية هو قاتل أخيه الذي وقع تحت تأثير الحسد فروملوس قتل أخاه روموس، لذلك تجدر الإشارة إلى ضرورة التمييز في نشأة المدينتين بين السير وفق الطبيعة الإنسانية، وإتباع النعمة الإلهية التي تعد البشر بالخلاص.

فنشأت بذلك المدينة الأرضية على تقدير الحسد وشهوة التسلط مع روملوس الذي أراد الانفراد بالعرش كونه مقود بالرغبة إلى تحقيق المجد(*)، وداخل إمبراطورية روما راج الفساد الناجم عن إتباع الملل الوثنية التي تغمس صاحبها في الشرور الشيطانية، وهذا الأمر نفسه عجل من أفول القوة الرومانية التي حضر فيها كل شيء فقط غابت محبة الله، وفي الوقت الذي عمت فيه المسيحية كان قدر روما هو السقوط لأنها في النهاية مجرد مدينة أرضية وسر الخلود يكون بالولادة الجديدة مع المخلص اليسوع في المدينة الإلهية الخالدة التي يتخذ القديس أوغسطين أورشليم رمزا لها على الدوام.

ومن منظور آخر يضيف القديس أوغسطين رمزا ثاني لنشأة المدينتين، إذ يعتبرهما على وجه الكناية مدينتان لكن في حقيقة الأمر متشابكتان متداخلتان ريثما يفصل اليسوع في ذلك، وتحل الغلبة للمدينة الإلهية التي بفضل الزهد والكف عن الشهوات وإتباع نواميس الفضيلة، والتسامح تشتد شوكتها وتحقق نصرها على مدينة الشيطان الأرضية، والرمز الذي يتحدث عنه القديس أوغسطين بعد هابيل وقابيل، روملوس ورمسيس، فهو من تقاليد الموروث العبراني " بين إبنا إبراهيم إسماعيل وإسحاق ، فإسماعيل ابن هاجر الآمة المولود بحسب الجسد، والآخر إسحاق ابن سارة الحرة المولود بحسب الوعد، وكلاهما ابنا إبراهيم غير أن الواحد مولود كالعادة حسب الطبيعة والآخر ابن الوعد الذي هو علامة النعمة. أحدهما بين بوضوح نظام الطبيعة والآخر يشير إلى النعمة الإلهية"[165]، وكل منهما هو معلم في تأسيس مدينة، وفي هذا نجده يعود إلى العهد القديم ويبين طبيعة المدينتين بين الحياة وفق

(*)– دوما توجد الرغبة في الانفراد بالعرش، فما اجتمع عدد من الأحياء من الحيوان أو من الإنسان إلا جعل له بمقتضى الفطرة رئيسا، والرئيس في الجماعات البشرية عبارة عن قائد في الغالب هو الركن الأول الذي يقوم به النظام لوحدة الجماعة، والعادة أن القائد يكون قبل ذلك مقود، أي مسحور بالفكرة التي صار هو الداعي إليها، ويستعمل الاضطهاد لسبيل الوصول ونشر هذه الفكرة مثلما حدث مع روبسبيير في الثورة الفرنسي مثلا، أنظر غوستاف لوبون، روح الاجتماع.

165- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 218.

الجسد وما يقابلها من وجود مادي مآله الفناء والزوال، وبين الحياة بحسب الروح وهذا هو جوهر التعاليم المسيحية لتحقيق كمال القيم، ويرمز إلى المدينة الأرضية بطور سينا وأورشليم تمثل المدينة السماوية "فالذي ولد من الآمة بقوة الجسد، أما الذي ولد من الحرة فبقوة الموعد وذلك إنما هو رمز لأن هاتين هما الوصيتان إحداهما من طور سينا تلد للعبودية فهي هاجر، أما أورشليم العليا فهي حرة(*)، وهي أمنا لأنه كتب افرحي أيتها العاقرة التي لم تلد"[166].

وعلى العموم فطابع القداسة لا يمكن نفيه فالشرارة الأولى لنشأة المدينة المقدسة التي تتوفر على كمال أقاليم التدبير السياسي وتتحرر من الظلم والعبودية وهذا ما يزيدها سموا لغياب الحسد داخلها وتستفيد هذه المدينة من خيرات المدينة الأرضية.

أما المدينة الأرضية فرغم تقدمها في الخيرات فهي في أدنى المراتب إذ لا تعرف من المنافع سوى المادية وانطلاقتها كانت من الحسد ومسيرتها لا تخلو من الصراع والنزاع ويكون لها حضارة ومجد لكن لم يشفع لها أمام الحق وانتصاراتها الجزئية على المدينة السماوية لا تحسم الأمر بل الغلبة النهائية تكون لأهل المدينة السماوية أما المدينة الأرضية مصيرها جهنم كون أهلها قدموا الأوثان على توحيد الله ولا دوام للمجد دون ايمان ودون فضيلة أخلاقية ووحدة اجتماعية وعدالة سياسية.

(*)- في العهد القديم في سفر التكوين، نجد الحديث عن غرابنا إبراهيم الأول من هاجر الآمة والثاني من سارة وهو إسحاق ولدته في سن متأخرة، تكوين الإصحاح 16، 1- 3، أما سارة أي امرأة إبراهيم فلم تلد له وكنت لها جارية مصرية اسمها هاجر، فقالت ساري لابرام" هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة، أدخل على جاريتي لعلي ارزق منها بابن، فولدت له ابن سمي إسماعيل. تكوين 18 وكان لسارة ابن بعدما أصبحت وإبراهيم شيخين متقدمين في السن، وضحكت من هذا وكان أمر الرب فكان لسارة ابن سمي إسحاق. انظر العهد القديم، سفر التكوين.

[166]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 216.

2- مقياس المدينتين:

تتجلى الطبيعة الثنائية التي يتحدث عنها أوغسطين ذات البعد المانوي الخالص الذي يقول بأزلية النور والظلمة ويقابلهما على التوالي الخير والشر من خلال نشأة المدينتين السماوية الإلهية ونظيرتها الأرضية بما تعيشه من فوضى دينية وعبثية أخلاقية، وإن أبقى على محور التصنيف الثنائي فانه رد على المانويين بدحض قولهم بأزلية الشر وأنه من طبيعة الإله، فالشر بإرادة الإنسان وخطيئته التي يتطهر منها اليسوع مخلص البشرية جمعاء.

وكما ورد في بدء الكلام عن المدينتين فهما متعايشتان متداخلتان حتى المآل الذي ينتظرهما في النهاية، ولكل مدينة مقياس تنفرد به على الأخرى، ومنذ خلق الإنسان الذي باركه الله حتى انقسام عشيرة الملائكة وكل مدينة تتبع نواميس ثلة من الملائكة أخيار كانوا أم أشرار يتخبطون في الخطيئة والإثم ويعود إلى سفر التكوين الذي يوضح "عمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى البهائم وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته ذكرا وأنثى باركهم الله"[167]، فالبداية توضح لنا حياة النعيم في الفردوس للبشر ومساواتهم في السعادة مع الملائكة، لكن يظهر الشر بعد الخطيئة وبعد انقسام الملائكة.

فكل مدينة على التوالي تأخذ أصلها من تنوع الملائكة ومن سطوة العقل الإنساني على الشهوة أو غلبة الجسد على النفس باستباحة مختلف الرذائل، وتجسد الشر مع أول مؤسس للمدينة الأرضية هابيل الذي قتل أخاه قابيل، أما المدينة السماوية ففيها دوام التسابيح للإله ويعود إلى الملائكة كجوهر التمييز بين المدينتين، فالأرواح التي نسميها ملائكة كما يذكر القديس أوغسطين في الكتاب الحادي عشر من مدينة الإله "هذه الأرواح ما بدأت بأي شكل من الأشكال، ولا في أي وقت تكون ظلمة في بداية تكوينها كانت نورا ولم يخلقوا ليكونوا ويعيشوا فقط في الحكمة والسعادة. كثيرون تخلوا عن هذا النور فحرموا من الحياة السعيدة والحكمة التي هي الحياة الأبدية الواثق من أبديتها الثابتة"[168]، وبذلك عندما فقدت الملائكة الحرمان من الخير طبعا يتحول هذا إلى تيه وعماء في الظلمة والفساد الذي يغطي الحكمة بغشاوة، تحجبها عن نور الحقيقة الإلهية، ويورد القديس أوغسطين الكثير من مبدأ للتمييز

---

[167]- سفر التكوين، الإصحاح الأول/ 26.

[168]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الحادي عشر، ص 22.

بين المدينتين، مستهلا الحديث بطبيعة الحب، فالقوانين والخضوع إلى السلطة والنزاع والاستقرار والطابع المعماري إضافة إلى المقياس الزمني ليصل إلى المدينة الجوهرية الأبدية، ويوضح مصير مدينة الشيطان التي ما هي إلا حالة عرضية أهلها في أدنى مرتبة لا يعرفون من الخيرات سوى الجسمانية، وفيما يلي نورد أهم نقاط التمييز بين المدينتين وفق غربالة التصنيف الأوغسطيني.

1/2 - طبيعة الحب:

كل مدينة إلا وأهلها يميلون إلى المحبة التي وإن انزاحت لصالح المقدس تسمو وتصل إلى الرفعة وإذا مالت إلى المدنس ظلمات الشيطان، فالمدينة لا تشيد بالحجارة وإنما بمحبة أهلها وطبيعة هذا الحب في التوافق مع عشيرة الملائكة إما في حياة الخلود الأبدي، أو التخبط في الشقاء، فيذكر قائلا: "حبان قد يجتمعان في الإنسان ذاته وإنه حسن للإنسان أن ينمو الحب الذي يجعله يعيش عيشة صالحة على حساب ذاك الذي يجعله يعيش عيشة سيئة"[169]، فالسبب الجوهري للتعاسة والشقاء هو مرهون بطبيعة الحب فوزن الإنسان داخل مدينته هو من طبيعة حبه، فالمقياس الأول للتفرقة بين المدينتين داخلي روحي كيانه ثمرة ونتيجة للتغلب على الذات واحتقارها لبلوغ مرتبة الملائكة الصالحين أو هو تحصيل حاصل جراء الانصهار في الملذات وسبب في الشقاء الأبدي.

"كون الولادة الأولى للمدينتين هي واحدة وعبارة عن ولادة مواطن في هذا العالم والتي تتحول إلى ولادة ثانية هي ولادة مواطن مدينة الإله"[170]. فالتحرر من الحيوانية يكون بالتدريب على الكف عن الشهوات لبلوغ الحياة الفاضلة.

فالمدينة تؤسس بالمحبة ويتضح هذا من قول يوحنا " لا تحبوا الأشياء التي في العالم، وإن أحب أحد العالم فليست منه محبة الأب لان كل ما في العالم شهوة للجسد وشهوة للعيون، وتعظم المعيشة ليس من الأب بل من العالم، والعالم يمضي وشهوته وأما الذي يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد"[171].

[169]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الثاني عشر، ص 218.
[170]- المصدر نفسه، ص 116.
[171]- رسالة إلى يوحنا الرسول الأولى، 16، 16، 17.

لذلك فمآل المدينة الأرضية هو من مصير المادة الخاضعة للفساد، فالمدينة الأرضية حالة ظرفية عرضية، أما المدينة السماوية خلودها أمر لا ريب فيها كونها تجاوزت الشهوات.

2/2 - طبيعة الفضائل:

الفضيلة الأخلاقية نجدها دوما مرهونة بطبيعة الحب الذي يسمو كلما ارتفعنا إلى مستوى المقدس، ويدنو كلما ارتبط الإنسان بالجسد والشهوات الفانية، ومن هذا المبدأ كانت المدينة الأرضية والسماوية، فكل مدينة تجسد الفضائل سواء من احتقار الذات ومحبة الله أو من محبة الذات والإفراط في الرذائل، وهذا ما تعيشه المدينة الأرضية، أين يسطو الطبع البهيمي في الإنسان بسطوته على الحكمة والعقل، لهذا يرفض القديس أوغسطين ما ذهب إليه بعض فلاسفة اليونان في بحثهم عن تحصيل السعادة.

فهي ليست جريا وراء استباحة الملذات "فجميع الذين يضعون اللذة في الجسد، ويجعلونها خير للإنسان فهم يحيون بحسب الجسد على مثال الابيقوريين وسواهم من الفلاسفة، وذاك القطيع من البشر لا دخل له في الفلسفة، فهم لا يجدون فرحا إلا في الأفراح الحسية"[172]وجوهر هذه الأفراح في النهاية عبارة عن قيم جوفاء وفي سبيل السمو والحصول على المواطنة داخل مدينة الإله السماوية يكون بتطهير البدن والنفس من دنس اللذات للعيش حياة الخلود الأبدية.

فما يميز المدينة السماوية هي القيم العذراء التي لم تمسها شرور الشيطان، لذلك يجب إعادة النظر في الناموس الأخلاقي، وجعل كل القيم تخدم الروح لا الجسد وهذا ما يميز مدينة الإله عن مدينة الشيطان.

3/2 - **طبيعة السلطة:**

ومن ناحية التدبير فنجد التميز بين كل مدينة حسب نمطية السلطة، فهي بشرية نابعة من إرادة الأفراد في المدينة الأرضية، وهذا دوما يجعلها عرضة للزلل والتدهور، أما في المدينة السماوية فالسلطة هي حسب التفويض الإلهي، والتدابير موضوعة حسب العناية الإلهية وريثما تحل نعمة المخلص اليسوع وينزل لنصرة الخير، تتوب الكنيسة في رعاية شؤون

---

[172]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الرابع عشر، ص198.

البشر الأخلاقية والدينية، والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومع هذا تحترم الكنيسة الإمبراطور لكن سلطة الكنيسة دوما في المقدمة ورفع وعملقة الإمبراطور إلى مصاف ومستوى الآلهة، هذا ما لا يقبله القديس أوغسطين لذلك كان استبعاد الدين عن النواحي الاجتماعية، يقول السيد المسيح" أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"[173].

وبينما تعرف السلطة في المدينة الأرضية الرخاء فهذا لا يشفع لدوام مجدها بل كل سلطة نابعة من التفويض الإلهي، فالتاريخ مسرحية ألفها الله ويمثلها البشر، فالتاريخ السياسي لا ينفرد عن الجانب اللاهوتي ويجب أن تكون السلطة الزمنية تابعة للسلطة الروحية.

4/2 - طبيعة الحضارة والتقدم:

ومن ناحية الخيرات المادية فتختص بها المدينة الأرضية التي تعرف الرخاء والازدهار وتطورا في العمران ومادامت المدينة السماوية متشابكة مع المدينة الأرضية، فهي تستفيد من خيرها وهذا لضمان البقاء والتصدي لحروبها حتى مجيء السيد المسيح مخلص أهل المدينة السماوية ويفصل الأبرار عن الأشرار ويتحقق الوعد الإلهي، ويدرك الفرد داخل المدينة الفاضلة طبيعة الخيرات الحقيقية في الحياة الأبدية، وليس التيه في تقديس الملذات الجسدية الفانية في المدينة الأرضية.

لذلك يجب أن ترتبط الخيرات بالجانب الديني، فالدولة يجب أن تكون تابعة للكنيسة من أجل تحقيق السعادتين الأولى في الدنيا والثانية في الآخرة، توجه الكنيسة الدولة وتمكن الدولة الكنيسة من تحقيق أغراضها، لذلك ليست هي الخيرات المادية معيارا لتقدم المدينة الأرضية بل معيار الحضارة يتجسد في إتباع العقيدة الصحيحة التي تحقق خلود الأمم عكس المجتمع الروماني الذي ذاب في إتباع الأوثان والشهوات، فحضارة الإمبراطورية اندثرت في ظرف وجيز ومستقبل المدينة الإلهية ليس مرهون بمجال محدد، فهناك الخيرات والسعادة الأبدية فالتقدم الحضاري تتغلب فيه المدينة الأرضية على السماوية لاختلاف مطالب كل مدينة بين المستوى المادي والروحي.

---

[173]- إنجيل متى22- 21.

5/2 - الخلود والفناء:

أما الفناء فهو للمدينة الأرضية فشأنها شأن الجسد المنتقل من نمو إلى عجز، لذلك سقوط روما هذا مرده لكونها فقط مدينة أرضية محكوم عليها بالزوال، وهذا ما عجلته غياب محبة الله والارتباط بالأوثان التي لا تحمي المدينة، بل هي عاجزة حتى عن حماية نفسها، وإن سيطرت في البداية المدينة الأرضية، هذا لا يضمن لها الخلود بل في النهاية تكون الغلبة للمدينة السماوية التي أفرادها مسلوغين في محبة الله لدرجة احتقار الذات ومقياس هذه المدينة الخلود "وتكون دينونة الله العادلة الذي سيجازي كل واحد حسب أعماله، أما الذي يصبر في العمل الصالح يطلب المجد والكرامة والبقاء في الحياة الأبدية، وأما الذين هم أهل التخريب لا يطاوعون الحق بل يطاوعون الإثم، فسخط وغضب وشدة على كل إنسان يفعل الشر"[174]، وفي النهاية سيعطي المسيح كل مدينة نصيبها إما العذاب والجحيم فهو للمدينة الشيطانية، والحياة الأبدية هي حليف مدينة الأبرار.

3- جوهر الصراع بين المدينتين:

سر الحياة الرغيدة من أجل العيش مع الآخر في عالم تسوسه العدالة الاجتماعية والفضيلة الأخلاقية هم تقاسم التفكير فيه كل باحث في ميدان السياسة وأضرب التدبير سواء كانت في صورتها المعاصرة أم من خلال نسقها التقليدي الذي لا يحيد عن البحث عن شروط الحياة الفاضلة والحاكم الذي يؤمن من قسطاس العدالة، وهذا ما نألفه بين طيات الخطاب الفلسفي السياسي الإغريقي سواء مع أفلاطون أو أرسطو، وصورة أخرى لإحياء الحضارة تهدف إلى بث تراثها الروحي نألف تداولها مع القديس أوغسطين الذي بحث عن الدولة المثالية التي تسود دونما فساد، بعدما انحلت إمبراطورية روما التي قيل عنها أنها أبدية وهي المدينة الإمبراطورية المقدسة لاسيما بعد مسح المسيحية لغبار التقاليد الوثنية البالية وإعلانها هي الديانة الرسمية، وحاول أوغسطين وضع تاريخ هذه الإمبراطورية في موضعه الأصلي كونها لا تعدو وأن تكون في النهاية سوى حضارة ومدينة أرضية شأنها شأن البدن الذي يهرم

[174]- أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص 170.

بطي السنين ومرور الأزمان، أما الخلود يكون بالاتحاد مع الكنيسة التي تضمن السلم والخلاص بين البشر، وتحررهم من مدينة الشيطان التي في طياتها تحمل بذور فنائها.

وعليه كان التوظيف الفلسفي للصراع بين ومحورين جوهره مدينة السماء التي تشخص الداء كله في الشر والجهل والحرب والظلام والجسد والشهوة، وتجعل الدواء بالخير والسلم والنور، والتعقل ومثل هذه الثنائيات عودنا عليها التقليد الفلسفي الذي يعاين ازلية الصراع بين الخير والشر مثلما هو سائد مع المعتقدات الثنائية والتصنيف الثنائي نلمس حضوره بقوة في النص الأوغسطيني لمعالجة تاريخ المدينة والكشف عن الصراع القائم بين مدينة السماء ومدينة الشيطان، وقد تجلت المدينة الشيطانية الأرضية في الإمبراطورية الآشورية وإمبراطورية الرومان الوثنية.

أما مدينة الإله السماوية فهي مملكة المسيح التي انبثقت منها أولا الأمة العبرية ثم تجسدت في الكنيسة وأخيرا في الإمبراطورية الرومانية التي اعتنقت المسيحية، وبين المدينتين صراع والغلبة لصالح محبة الله فهما مختلفان من حيث طبيعة العيش والنظام في شكل خطان منحدران من الجنس البشري "نظام مختص بأناس يعيشون حسب الجسد وآخر مختص بأناس يعيشون حسب الله، ونسمي هذين النظامين فيما يذكر أوغسطين مدينتين إحداهما معدة لأن تحيا إلى الأبد مع الله، والأخرى تعيش في العذاب الأبدي مع إبليس"[175] فالصراع بين المجتمعين الأخيار والأشرار وكل يجد صورته في عشيرة الملائكة.

ومن المجتمع ما نجده يحاكي الملائكة الأخيار، ومنه ما يحذو حذو الملائكة الأشرار لأنهم أخطأوا فمردهم إلى نار جهنم، وطبيعة المدينة السماوية تختلف عما هي عليه المدينة الأرضية ومنذ البدء حتى النهاية، لذلك يبقى بينهما دوما النزاع قائم كون "الشر كله مصدره الإنسان التائه عن خالقه والرافض لكل ارتباط به مما ساقه إلى الهيمنة على كل شيء والميل إلى نزعاته الخاصة"[176]، ففي المدينة الأرضية نجد الميل جليا وواضح إلى العمارة والحضارة الدنيوية وهذا بلا شك يعجل بالانحطاط، فحضارة الإمبراطورية الرومانية التي تطاول أفرادها في تقديس ما لا ينفع كان هذا من بذور فنائها، فالمدينة السماوي تسعى

---

[175]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 215.

[176]- أساقفة فرنسا، الإيمان المسيحي، تر: الأب أنطوان موصلي اللعازاري، (د ط؛ باريس: مطبوعات باريس، 2001)، ص 92.

لاجتثاث كل ما له علاقة بالشر مثلما تنص عليه المسيحية التي هي روح المدينة السماوية، التي يؤمن لها الخلود الله ويخلصها من مدينة الشيطان اليسوع. فالأسوار والبروج والأوثان كلها لم تحمي روما، لذلك تصارع المدينة السماوية قوى الشيطان التي تنتصر في كل مرة، لكن بعد الصبر يكون الخلاص ويسير التاريخ حسب موضعه الحقيقي، فحاول أوغسطين من خلال توضيح مواطن النزاع بين المدينتين وضع تاريخ روما في موضعه الحقيق معبرا عن حالته النفسية التي لم تقبل اندثار الدولة الإلهية الرومانية التي تكاملت سياسيا وروحيا بعد اعتنقاها الرسمي للمسيحية" فالأحداث التاريخية في جوهرها تعبير خالص عن وقائع نفسية"[177]، وحالة أوغسطين وبلغة أقرب وبكل سحرية تجاوز ما هو كائن وشخص السبب في النزاع بين المملكتين الأرضية والسماوية.

وهذا الصراع فهو ليس أزلي وإنما مثلما له بداية تعكس نزوح النفس الإنسانية إلى الحسد وما انفك عنه من تأسيس المدينة الأرضية وفي المقابل نجد الرغبة في التطهر، وهذا يسمو الفرد إلى المدينة الفاضلة، وكما ورد في بدء الكلام فالنزاع بين المدينتين السماوية والأرضية يحسمه المسيح الذي يفصل الأبرار عن الأشرار في نهاية التاريخ، كما هو الأمر في المسيحية التي تبشر الرعية بالخلاص، وماديات المدينة الأرضية رغم تفوقها على المدينة السماوية إلا أنها من عالم الفساد والحقيقة كلها مرهونة بالجانب الروحي الجوهري الذي يتغلب في النهاية على الحالة العرضية الظرفية الزائلة لمجد ولقوة المدينة الأرضية، ومثال ذلك حال الإمبراطورية الرومانية التي عدها البعض بأنها أنموذج للإمبراطورية الخالدة التي لا تقهر، ومع ذلك فقد حل بها الهزال وهذا ما لم يستطع رفعه قوة الشيطان ولا الأوثان ولا التقدم المادي.

أيضا عند نزول نعمة اليسوع فلن يشفع لأتباع الشيطان والإرادة السيئة، ويحرر الفرد من الانتماء إلى عالمين ليصبح مواطنا مؤمنا في المدينة السماوية المقدسة، "فقد اقتبس القديس أوغسطين فكرة انتماء الفرد في وقت واحد إلى دولتين ومجتمعين أصغر وأكبر وصاغها في قالب جديد يلاءم الدين الجديد فيعتبر الإنسان مركب من عنصرين الجسد

[177]- العروي عبد الله، مفهوم التاريخ، (ط 3؛ المغرب: المركز الثقافي العربي1997)، ص 72.

والروح، فلذلك فهو ينتمي إلى وطنين"[178]، والروح تتغلب على الجسد وفي هذا عودة إلى الموروث الاسكندراني خصوصا مفهوم الفيض، فالمادة هي في أدنى المراتب وهي سبب الشرور وتتكدس في المدينة الأرضية، أما المدينة السماوية فتعرف إشراق الخيرات والمعرفة والذي يسير بحسب الجسد لا يعرف الحقائق ومصيره النهائي محسوم.

فهو إذا يتحمل عقاب الأشرار"إذ في النهاية فالمسيح اليسوع يعطي كل مدينة ما تستحقه العذاب للشيطان وأتباعه والسعادة الأبدية للأبرار"[179] ، أما ما حدث مع روما فهو لا يعدو وأن يكون تعبيرا عن السعادة المزيفة التي ليست من نصيب المدينة الأرضية، لذلك عرفت حتمية التراجع والتدهور، ونفس المسار تعرفه المدينة الأرضية التي تبلغ ذروة التقدم لكنها في النهاية تنهار أمام القوة الروحية للمدينة السماوية المجيدة، ولو كانت هذه القوة الروحية هي الأساس أبدا ما لحق الدمار للإمبراطورية، لذلك يجب إعادة النظر في نمطية العلاقة بين الكنيسة وبين الدولة.

فالدولة المسيحية تحرر الذات من طلب المنافع والشهوات بالتعفف، قصد اجتناب كل الشرور، ففيما يذكر القديس أوغسطين قائلا: " كم من دم بشري سفك في سبيل المنافع؟ ضربات انتهت ولكن شقاوتنا لم تنته معها، لان أولئك الأعداد الذين كانوا لا يزالون اليوم أيضا شعوب غربية وجبت محاربتهم في الماضي، وفي الحاضر ورحابة المملكة أوجدت حروبا من نوع آخر. وأشد فتكا كالحروب الاجتماعية والمدنية وهي تضر بالمجتمع البشري وللأسف"[180]، فحقيقة الشقاء هي من فقدان الأمن والأمان داخل المجتمع بسبب إتباع نحلة الفساد والسير وفق ما يخالف إرادة الله.

فلا يكون ثمة استقرار بل دوما نجد ناقوس الخطر الذي يتجسد في حروب بين المدينتين الأرضية والسماوية أو بين الحبين، حب الذات لدرجة احتقار الله وحب الله لدرجة احتقار الذات، وفي المصير النهائي تسود محبة الله" وهناك تبطل حرب الفضائل ضد الرذيلة والشر لأنها تتمتع بجائزة النصر الأبدي الذي لا يعكر صفوة عدو، تلك هي حقا السعادة

---

[178]- كريم محمد، تطور الفكر الفلسفي والسياسي، (ط 1؛ بيروت: المكتبة العصرية صيدا، 1994)، ص 171.

[179]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 256.

[180]- المصدر نفسه، ص 125.

النهائية ونهاية الكمال"[181]، بفضل اشتداد شوكة المدينة السماوية من خلال الولادة الجديدة في المسيح مخلص البشرية من دنس وشرور الشياطين، ومن اشتدت شوكته وجبت طاعته، فعندما كانت المدينة الأرضية في أوج قوتها، وتجسدت في إمبراطوريات زمنية عديدة تغلبت على المدينة السماوية التي عملت على الانتفاع من خيور هذه المدينة الأرضية، لكن الحرب والغلبة هي لصالح محبة الله التي أحدثت القطيعة مع شهوات الجسد والأنانية لتصل إلى السلام الأبدي" وهي الغاية التي تجد فيها مدينة الإله خيرها الأفضل، ومن الأفضل أن نسمي هذا إما السلام في الحياة الأبدية أو الحياة الأبدية في السلام وفيها خير عظيم"[182].

وهذا الخير الأسمى والعظيم لا يكون هكذا جاهزا وإنما هو ثمرة المعاناة والصبر على الألم عند أهل المدينة السماوية، والكف عن إتباع الملذات لذلك نجد القديس أوغسطين يرد على الفلاسفة اليونان خصوصا الابيقوريين الذين شخصوا السعادة في الملذات الجسدية، ومعروف عن المسيحية طابع الزهد والتقشف في الملذات وهذا ما لا يقبله أهل المدينة الأرضية فيدركهم عقاب الأشرار في النهاية، ويثقل وزنهم ووزن مدينتهم إذ يوقعهم هذا في الجهل والظلمات، فيوضح أوغسطين قائلا: "إن وزني هو من طبيعة حبي"[183]، فالذي يحب الشيء المقدس محله الرفعة وحركته تؤول صوب السمو وتعلو نحو الدرجات، ومن ينغمس في محبة المدنس محله الظلمات وحركته تهوي دوما إلى الأسفل وإلى الدركات، هذا وتجدر الإشارة إلى أن القديس أوغسطين يعود إلى الموروث اليوناني، فأفلاطون أرجع النفس التي ارتكبت الخطيئة إلى ظلمات البدن، وأبوليوس في حديث عن الانسلاخ يعتبر الشخص الذي لا يدرك الحقائق هو مثل الحمار.

ويعد أوغسطين سكان المدينة السماوية بالخلاص والانتصار على طغيان واستبداد أهل المدينة الأرضية. هذا الاستبداد الذي يضع أهل هذه المدينة في جهنم عند مجيء المسيح من السماء ليدين الأحياء والأموات وهو الذي تعترف وتؤمن به كنيسة الله الحق بأسرها "وذلك ما يسميه أوغسطين اليوم الأخير للدينونة"[184]، وفي هذا اليوم تعطي الأولوية للكنيسة.

---

[181]- المصدر السابق نفسه، ص 129.

[182]- Alfred Webers Denis Huisman, Histoire de la philosophie européenne antique, (Paris : médiéval, Fischbacher, 1964), p 188.

[183]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب التاسع عشر، ص 141.

[184]- المصدر نفسه، ص ص 171، 172.

فعبادة الأوثان هي تيه وعماء، فدولة الدنيا الأرضية والتي تجسدت في الإمبراطورية الرومانية زالت لطغيان الأوثان فيها. ولو ارتبطت بالتعاليم المسيحية لأصبحت مدينة الله الخالدة المجيدة" والكنيسة هي محررة البشرية من الذنوب ومنقذها من الشرور الديونة مادامت السلطة الممثلة للإله فوق الكرة الأرضية"[185].

فالصراع في جوهره ما بين المدينتين المتدخلتين يتخذ مستويات عديدة منها المجال الروحي الإيماني فهو من دينونة الكنيسة التي تؤمن السلام الأبدي وبين إتباع قوة الشيطان والانصهار في تقديس الأوثان، ويتخذ هذا الصراع شكل آخر بين سلطة الكنيسة ووضعها في الهامة عند أهل المدينة الأرضية، ووضعها في المقدمة عند أهل المدينة السماوية، وأيضا نجد الصراع بين مستويات العمارة التي تبلغ أوجها عند أهل المدينة الأرضية، وتضعف عند سكان المدينة السماوية التي تنهل من خيرات المدينة الأرضية.

ويتخذ هذا الصراع أيضا شكل آخر بين تأليه الماديات وإتباع الشهوات عند أهل المدينة الأرضية والعمل على تقديس الجانب الروحي عند أهل المدينة السماوية التي ليس هم أهلها تكديس الخيرات المادية، وإنما العمل من اجل إرضاء الله ولو على حساب الذات. والفاصل في هذا الصراع هي سلطة الكنيسة بعد مجيء المسيح مخلص البشرية، إذ يحرر الشعوب من المعاصي والحروب، وقد قال مال نفر كبير من سكان روما إلى المسيحية كونها بشرتهم بالخلاص الروحي وأبعدتهم عن الحروب التي عرفها المجتمع الروماني في حركته التوسعية الاستعمارية قصد بلوغ العالمية، وأوغسطين يقرر بولاء البشر للسلطة المحلية والروحية، لكن ينتهي هذا الولاء المزدوج على الدوام بتغلب السلطة الروحية[186].

وتنتصر مدينة السماء على المدينة الشيطانية. فما يعتبره الأفراد نموذج القوة وأداة لبسط النفوذ، ففي أنفسهم يتحول إلى سراب وأوهام لا تخلد الواقع بل في حقيقة الأمر تحيد عنه إذ تفاهم شعب مدينة الشيطان نجده يدور حول أمور ممقوتة أكثر، فالتمدن الحضاري وأبراج المدينة الأرضية لا تسمو بأهلها فبين طيات هذه المدينة احتقار الله مقابل إسراف وتفريط في تقديس الذات لدرجة الثمالة التي تذهب معها روح الفضيلة الأخلاقية لذلك

---

[185]- بوحوش عمار، تطور النظريات والأنظمة السياسية، ص 114.
[186]- المرجع نفسه، ص 114.

الصراع يبقى قائم بين المدينتين لاختلافهما في طبيعة الحب والسلطة وتفاوتهما في درجة الإيمان.

ومن خلال الصراع القائم بين المدينتين الذي مساره من مسار التاريخ يوضح القديس أوغسطين الموقع الحقيقي للخلود لتكامل الجانب الروحي مع المادي مبنيا أن التكالب على ماديات الحضارة لا يفيد قوة التدبير، وإنما يخدم الهوى والرغبة فقط، ويخاطب أوغسطين الناجين من سكان روما بعدما نهب ألاريك مدينتهم وخربها، "بأنهم لم يفقدوا أي شيء أساسي بالنسبة لحياتهم وإنما خلاص الشعب الروماني يتمثل في المدينة الإلهية وليست في نقيضها مدينة الشيطان"[187].

فالعدالة موجودة وبناء الأبراج والأسوار لا يحمي المدينة، لأنها تشيد بأهلها لذلك يجب التحلي بالصبر لتحقيق خلاص الشعب والظفر بالخلود، وضمان قسطاس العدالة التي لا يمكنها أن تتحقق مادامت الدولة غير مسيحية، "وإنه من المغالطة القول بان الدولة قادرة على أن تعطي كل ذي حق حقه إذا كانت هذه الدولة نفسها لا تعطي حق الإله"[188]. فالعدالة موجودة تؤمنها الكنيسة التي ترعى الأفراد وتسهر على شؤونهم، وتعمل على استئصال بذور الذاتية فيهم مثلما تصور أفلاطون أن المراحل التربوية داخل جمهوريته تعد النشأة لبلوغ الفضيلة والحكمة، فأيضا عند القديس أوغسطين فالتعاليم المسيحية ليست لعنة أصابت الإمبراطورية الرومانية، وإنما كون روما مدينة أرضية.

فالخلود ليس من نصيبها وإنما هو حليف المدينة الإلهية التي ترعاها نعمة المخلص اليسوع الذي ينصر الأبرار على الأشرار ويغلب كفة المدينة السماوية، ويفصل الفضيلة عن الرذيلة، وبين حب الله وحب الذات، لذلك الصراع بين المدينتين يكتسي دلائل عدة بين الجانب الإيطيقي الأخلاقي، والسوسيولوجي الاجتماعي، والسياسي والاقتصادي والنزاع بين المدينتين قائم منذ الأزل منذ تأسيس المدينة الأرضية مع قابيل وهابيل، والإنسان ذو طبيعة مزدوجة تعكس جوهر هذا النزاع بسبب تلوث الإنسان بالخطيئة لذلك "تنازعه قوتان قوة دينية وقوة دنيوية، فهو ينتمي إلى عالمين يعيشان جنبا إلى جنب فيه العيشة

---

[187]- روباردو دارو، أوغسطين الهيبوني بين المدينة الدنيوية ومدينة الله، المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2004، ص 79.

[188]- حاروش نور الدين، تاريخ الفكر السياسي، ص 132.

الشهوانية...وعيشة الأشرار نهايتها الشقاء، وعيشة الأبرار ونهايتها النعيم"[189]، فالبشرية كلها تمر عبر الصراع الثنائي بين الخير والشر ليحسم بعد قدوم المسيح لصالح المدينة السماوية يوم القيامة "فهناك تبطل حرب الفضائل ضد الرذيلة والشر لأنها تتمتع بجائزة النصر الأبدي الذي لا يعكر صفوه عدو تلك هي حقا السعادة النهائية، نهاية الكمال الذي لا تعقبه نهاية"[190] فعاقبة صبر أهل المدينة السماوية إذا هي السعادة الأبدية بعد النزاع المرير مع قوى الشيطان الأرضية المكبلة بقيود الشهوة والرغبة.

وهناك يكون حجر الأساس في تشييد المفهوم الحقيقي للمدينة على الرهبنة ونكران الذات والفضائل والتسامح، وبهذا تتجاوز شبح تدهور الحضارة وأفولها كوننا أدركنا سر الحياة السعيدة بعيدا كل البعد عن الصراع في الأرض المقدسة المطهرة من دنس الشيطان، وهكذا ينعطف القديس أوغسطين في تفصيله للصراع بين المدينتين إلى مقاصد أخرى تعكس تزاوج واقتران اللاهوت بالسياسة حين تحدث عن تفاعل الحضارات من العصر القديم إلى المسيحية وسر عملية الانتقال في نظرة شاملة عن التاريخ الروماني متوقفا عن مبدأ العناية الإلهية، مسلما بالخلاص وسعادة الأبرار حين تنكشف دينونة الله العادلة فيجازي كل واحد بأعماله، إما بالحياة الأبدية لمن يواظبون على العمل الصالح ويسعون إلى المجد والكرامة والبقاء، وإما بالغضب والسخط على المتمردين الذين يرفضون الحق وينقادون إلى الباطل، فحقيقة الخلود ودوام السلطة ليست هي إذا من نصيب الحضارة المادية المفرطة في استباحة الملذات والعاملة على جعل إرادة الأفراد تحيد عن محبة الله مثلما هو مشهود داخل المدينة الأرضية، بل السر من وراء هذا هو بالعودة إلى المسيحية والعمل بتعاليمها لتحقيق وحدة الجنس البشري والظفر بعناية الإله للوصول إلى السلام الأبدي.

لكن قبل الوصول إلى مرحلة السلام الأبدي وأثناء الحرب بين المدينتين السماوية والأرضية تتلقى المدينة السماوية من الهزائم ما يكفي لجعلها تتنعم في الأخير عندما ينزل المسيح ويغلبها على شرور المدينة الأرضية فلا غرابة أننا نجد أهل المدينة السماوية يحتقرون ذواتهم كونه يأملون بمتاع روحي اثكل من المتاع المادي في المدينة الأرضية.

---

[189]- الخنساء سلمى حمزة، تاريخ الفكر السياسي في العصور القديمة، ص 147.
[190]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 129.

الفصل

الثالث

المبحث الأول: مستقبل المدينة الإلهية

1- نصرة مدينة الإله

2- اليسوع وخلاص المدينة السماوية

3- غائية التاريخ المسيحي

المبحث الثاني: الاوغسطينية السياسية

1- مفهوم الاوغسطينية السياسية

2- السلطة الروحية عند غيريغوري

3- السلطة الروحية عند القديس توماس الاكويني

المبحث الثالث: المدينة من اليوتوبيا إلى الواقعية ومنطق القوة

1- نقد ميكيافيلي للطوباوية

2- نقد توماس هوبز للطوباوية

3- نقد اسبينوزا للطوباوية

المبحث الرابع: بناء وتصور المدينة بين الواقع والمثال

1- مدينة الإله في بعدها الواقعي

2- تجدد اليوتوبيا

2. 1- السلام العالمي

2. 2 – الاوغسطينية وفلسفة الانتظار

المبحث الأول: مستقبل المدينة الإلهية

وبعد صيرورة التاريخ، ومنذ نشوء المدينتين تكون المرحلة التي أرادها القديس أوغسطين حيث يدوم الحكم بالجانب الروحي الديني لا بالتكالب على الماديات، وهناك يتحقق أمل أهل المدينة الفاضلة الإلهية وينتصرون على المدينة الشيطانية وهذا بفضل اليسوع الذي يطهرهم من الخطايا،ويؤمن لهم الخلود، والفضيلة الأخلاقية ،إذ يعطي لكل مدينة ما تستحقه إما العقاب وإما السعادة الحقيقية والسلام الأبدي بعد الحرب مع المدينة الأرضية، و يعمل أهل المدينة السماوية بالزهد من أجل الخلاص الذي الوسيط فيه طبعا هو المسيح إذ يغلب شركاؤه في حياة الخير الأبدية ويقهر شركاء الشيطان وهذا ما نوضحه من خلال الحديث عن نصرة مدينة الإله، والخلاص بنزول المسيح لنصل إلى غائية التاريخ في النقطة الأخيرة من صراع المدينتين وتحقق العناية الإلهية.

1- نصرة المدينة الإلهية:

رعايا مدينة الإله الأبدية والتي رمزها أورشليم لم يتركوا هذا للتضحيات فقط أمام قوة المدينة الأرضية التي تتفوق في معارك عدة، وتعرف أوج التقدم المادي بالخيرات الفانية بل في النهاية الحرب يفصل فيها المسيح وهناك تكون الولادة الجديدة مطهرة من كل عرض يحيل الفرد إلى طلب صحبة ومحبة الشيطان، فالبشارة قادمة كون الأمل بالسلام الأبدي يتحقق لمن يؤمن بالمخلص.

فيذكر القديس أوغسطين في الكتاب الواحد والعشرون من مدينة الإله قائلا :" الحرب مع الأمل بالسلام الأبدي أفضل من العبودية دون العمل على الخلاص، بكل تأكيد إننا نرغب في إنهاء هذه الحرب، وفي أن يرفعنا لهيب الحب الإلهي إلى ذلك النظام الثابت اللامتغير من السلام والاستمرار، الذي يعطي الحقائق السامية الأفضلية على ما دونها من حقائق،... إننا نفضل النزاعات الأبدية في الصراع الثنائي على الاستسلام بلا مقاومة إلى شهواتنا الطاغية"[191]، ففكرة الرضوخ إلى الشهوات بما يؤهل الفرد للانغماس في المدينة الأرضية يقابلها القديس أوغسطين بالرفض المطلق ويقبل العيش في حالة حرب ضد قوة الشيطان و الأمر يتطلب ثمن كبير من التضحيات، و تحصيله لا يقدر بقيمة للوصول إلى نور الحقيقة

---

[191]- القديس أوغسطين ، مدينة الإله، الكتاب الواحد والعشرون، ص 290.

الإلهية، وسر الحياة الأبدية السعيدة بكمال القيم ويصل التاريخ إلى غايته القصوى بعد تعاقب الأزمنة ومنذ هبوط آدم من الجنة إلى نهاية الخلق بتفوق المحبة الإلهية، فهناك تتقدم السلطة الدينية الروحية للكنيسة على السلطة الزمنية وتعلو كلمة المخلص، وتسمو قيم التسامح والحق ويحيا الأفراد الذين أفنوا ذواتهم مقابل محبة الله و كلمته التي منحت سكان المدينة السماوية حرية اختيار إيمانهم فكما يقول القديس أوغسطين عن مصداقية ومشروعية هذا النصر: " ولن يكون النصر شرعيا وصحيحا إلا إذا كان عن محبة البر الحقيقي وهذه المحبة هي الإيمان بالمسيح الذي يوحي بها " [192] ، والذين ينسبون إلى المدينة السماوية، التي شرائعها ترعاها عناية الإله و مصير أتباعها الخلود والنعيم الأبدي، أما عداهم ممن انتسب إلى مدينة الشيطان سيكون له الشقاء الأبدي والموت الثاني .

فالحرب بين النفس والبدن قد لا تعرف الدوام، لكن السرمدية هي من السلام والعدل داخل المدينة الإلهية التي يبشر بها أوغسطين، ويدعوا أهلها إلى التمسك بالإيمان بنزول المسيح المخلص الذي يرفع الغبن والظلم عن الضعفاء . وينصرهم على المدينة الأرضية، وعن تدني قيمها، ويذكر بولس في رسالته إلى أهل رومية قائلا: " إني أحسب أن ألام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد، لأن انتظار الخليفة يتوقع إستعلان أبناء الله، إذا أخضعت الخليفة للبطل، ليس طوعا بل من أجل الذي صنعها على الرجاء لأن الخليفة أيضا تنعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أبناء الله " **[193]** فالمجد آت ولا ريب فيه، والهزائم التي تتلقاها المدينة السماوية من المدينة الشيطانية التي تعرف نموا اجتماعيا واقتصاديا يؤهلها بأن تكون قوة سياسية لكن نواميسها تحيد عن التعاليم الإلهية الحّقة، فتلقى الهزيمة في النهاية وتسود الفضيلة ومعها العناية الإلهية ويكون هناك السلام الأبدي.

ويخمد شر الحرب فيذكر القديس أوغسطين قائلا في الكتاب التاسع عشر من مدينة الإله:" الحرب تجر الكوارث،والكل فيها قائم على التناقض وعلى التناحر، وهل من حرب أكثر شراسة وعنفا من حرب الإرادة والشهوة التي لا تعرف النهاية ولا تنتصر واحدة منها على أخرى، الألم لا يكل عن هجماته الفتاكة عند الطبيعة التي تتوقف عن مقاومته حين تنشب المعركة في هذه الحياة ،إما أن ينتصر الألم وينتهي كل إحساس بالموت أو أن تتم

---

[192]- القديس أوغسطين ، مدينة الإله، الكتاب الواحد والعشرون، ص 291.
[193]- رسالة بولس إلى أهل رومية ، الإصحاح التاسع /21/18.

الغلبة للطبيعة وتطرد العافية الألم "[194] سلام الله طمأنينة تامة لأهل المدينة السماوية وفيه تجاوز للألم وتأمين للسعادة الأبدية، وليست كما تصورها أبيقور باللذة فقط، وروح التدبير السياسي يضمنها وعد الله الذي به وعد إبراهيم، وهذا يتحقق مع المسيح الذي يمسح الخطايا ويحرر الضعفاء من الاستبداد، وهناك تكمن حقيقة التاريخ، الذي يتجلى في أورشليم الخالدة رمز المدينة السماوية عند القديس أوغسطين عكس ما يزعم الرومان بخلود حضارتهم فتاريخهم ما هو إلا تاريخ إمبراطورية أرضية شأنها شأن مختلف الإمبراطوريات السابقة، وبنصرة المدينة السماوية الخيرة، ،" تكون أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله وقد تزينت كما تتزين العروس لبعلها، ويكون صوتا يهتف من العرش هو ذا بيت الله والناس يسكن معهم ويكونون له شعبا لله معهم ويكون لهم إلها يكفف كل دمعة تسيل من عيونهم ، لم يبقى للموت وجود، ولا للبكاء و لا للصراخ ولا للألم لأن العالم القديم قد زال وقال الذي على العرش إستوى هاأنذا أجعل كل شيء جديد"[195].

وهناك تزول الفوضى الناجمة عن تدني القيم الأخلاقية، وتعم عناية الإله، وينصر المسيح أتباعه من الذين صبروا على الحاجة والألم، وعلى أضرار المدينة الأرضية وتزول الأنانية، وتصان حياة الناس وأرواحهم ، فالواقعية تجلت عن انطلاقة أوغسطين بازدواجية الدفاع عن المسيحية المتهمة وبالدفاع عن سقوط الإمبراطورية، وبعد تفصيله لصراع المدينتين ومسارهما في التاريخ العالمي، فالنهاية تكون إكمالا للبداية المعروفة بانتشار المسيحية، التي بنزول المسيح تعم، وتعلو معها سلطة الإله ويكون نمط واحد على الحياة وفق النواميس الإلهية التي تضمن العدالة والتسامح والسعادة للراعي والرعية على حد سواء .

2- اليسوع وخلاص المدينة السماوية

عادة ما يرتبط مفهوم الخلاص عند الرعية بعد ما يدب الفساد بالقدر الذي لا تزيحه الأيدي الإنسية بل الصورة الروحية الخالدة التي تجعل مفتاح اليسر هو تصور مخلص وانتظار حلوله لينشر العدل، وهناك يكون المخلص الذي يبث كل القيم العذراء التي ترفع الغل والقهر عن المستضعفين، وفي التقاليد الماضية على المسيحية ، ومع مختلف المعتقدات الأخرى نجد الأفراد دوما في حالة انتظار للمخلص، إذ يعبر الأفراد عن وفائهم للمخلص من

[194]- القديس أوغسطين، مدينة الإله ، الكتاب التاسع عشر، ص 164.
[195] - المصدر نفسه، ص 211.

خلال الالتزام بتعاليمه ،ففي النحل الفارسية ينتظرا تباع مزدك هبوطه وعودته مثلما المانويين يؤمنون بعودة ماني، ويصبرون على الألم لأنه سيحل من يرفع الغبن عنهم، ونور مدينة الله السماوية حسب القديس أوغسطين يتجلي في اليسوع مخلص البشرية وناصر المدينة السماوية على الأرضية التي رمزها الإمبراطورية الرومانية مبنيا بأن صلب المسيح واقعة لا يمكن إنكارها ولا تكراراها فالأحداث التاريخية لا تخضع للتعاقب الدوري كونها فريدة من نوعها.

والمسيح رفع بعد ثلاث أيام من صلبه وسوف يعود ليضع برزخا بين اختلاط وتعايش المدينتين وتكتمل الصورة الدينية في إنتظار يوم الدينونة الأخيرة، ومفهوم الانتظار تجلى في أشكال عديدة سواء مع الديانات السماوية أو الوثنية وترتب عن هذا مقولات: العودة، البداء، الرجعة ،فيؤمن الشيعة بالمهدية وعودة المهدي المنتظر مثلها نجد هذا التصور في العبادات الوثنية.

وفكر القديس أوغسطين، يرشد الرعية في المدينة الإلهية إلى استحقاقاتهم للخلاص بعد مسيرة طويلة من العناء والمغامرة، فمدينة الإله عبارة عن ملجأ أمام الأفراد وهو موضوع الاشتغال بالنسبة لخلود الأفراد وأرواحهم القوية والقادرة على أن تقاوم مقاومة جيدة تحقيقها هو إكتمال الوعود الدينية بنزول المخلص في غائية التاريخ " [196] فعلى الرعية التحلي بالصبر ومحاربة تسلط النفس حتى لا ينسلخ اللوغوس عن الجانب الإنسي، ويتحول الفرد إلى صورة بهيمية لا تدرك من الخيرات إلا المادية والجسمانية، وكل مسيحي ملزم بالتسليم بنزول المخلص اليسوع بعد رفعه إلى السماء، ويرد القديس بولس بشدة على من أنكروا مسألة الرفع، ولا يؤمنون بقيامة الأموات إذ نفسه المسيح تنبأ بمصيره، وهو الصلب على أيدي الناس لكنه يرفع إلى ملكوت السماء ويعود ليرفع معه دنس الخطيئة الأولى للبشرية بنزول آدم وحواء من الجنة، وهذه التطهير من الخطيئة هي ولادة أولى للبشرية، أما الولادة الثانية تكون بنزول المسيح الذي يقدم السلطة الروحية وتعلو كلمة الرب ويتسع التسامح والسلام ويعطي لكل مدينة ما تستحقه.

[196] - Jean servier, histoire de l'utopie , p 72.

وعن صلبه ورفعه يذكر المسيح قائلا لتلاميذه الحواريين:"ها نحن صاعدون إلى أورشليم،وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت ، ويسلمونه إلى الأمم لكي يهزوا به ويجلدوه ويصلبوه وفي اليوم الثالث يقوم" [197] وقيامته من بين الأموات أمر لابد أن يسلم به أتباعه لهذا رد بولس على كل منكر بقيامة الأجساد، وعاد إلى الفكرة الافلاطونية القائلة بخلود النفس، إذ اختلف مع الأفلاطونيين بأن الخلود هو للبدن وللروح فالمسيح قائم بجسده وروحه وفدى نفسه للتكفير عن الخطيئة الأولى وهذا بهبوط آدم من الجنة، ويعود في النهاية لينصر مدينة الإله السماوية المجيدة.

ويذكر القديس أوغسطين هذا في الكتاب العشرين من مؤلفه مدينة الإله قائلا:" إن مجيء المسيح النازل من السماء ليدين الأحياء والأموات وهو المجيء الذي تعترف به وتؤمن به كنيسة الله الحق بأسرها ذاك ما نسميه اليوم الأخير للدينونة الإلهية" [198] فقيام المخلص أمر لا مفر منه وعودته تكون لبث الفضيلة وتطهير النفس البشرية، وكل مدينة يعطيها نصيبها من البر أو العقاب الذي تستحقه، إذ يضيف القديس أوغسطين قائلا:" في هذا اليوم بالذات الذي نحن ندين أو ندان كذلك منذ بداية الجنس البشري حين طرد من الفردوس وأبعد عن الشجرة الحياة أبوينا الأولين اللذان خطئا خطيئة كبرى"[199].

وخلال انتظار نزول المخلص، وتطهيره لتدنيس النفس بسبب الخطيئة والكفر، ووصول أهل المدينة السماوية إلى مجدهم الأبدي في أورشليم المقدسة يبدأ القديس في مسيرته عن التاريخ العالمي من آدم إلى إبراهيم ويذكر الطوفان وتجدد الخلق ليصل إلى قيام المسيح من بين الأموات وهو رمز للسلطة الدينية التي تعلو على تدبير الإنسان ونواميسه الناقصة في غايته التاريخ المسيحي الذي يولي أهمية للروح، ويعمل الفرد خلال الصراع بين المدينتين السماوية والأرضية على اجتثاث كل ما له علاقة بالبدن،وهذا الزهد ينتهي بصوفية، قوامها تمجيد الكنيسة لتجاوز الضيق، والخراب والحرب التي تصنعها الإرادة السيئة عند الإنسان فيقول أوغسطين:" حين يأتي يسوع المسيح من السماء ليدين الأحياء والأموات وهو اليوم الحقيقي للدينونة، آنذاك لن يكون مجال لتشكي الأعمى من ازدهار

---

[197]- 1/ متى الإصحاح التاسع عشر /19/18.

[198] - القديس أوغسطين ، مدينة الإله، الكتاب العشرين ، ص 170.

[199]- المصدر نفسه، ص 170.

الشرير وبؤس البار ،آنذاك، وبوضوح كلي ينال الصالحون السعادة التامة والحقيقة وينال الأشرار وحدهم الشقاء اللامحدود الذي يستحقونه"[200]، وهذا الحديث استطابه الضعفاء من أتباع المسيحية في بداية رواجها وحدقوا بأعينهم نحو السماء لترقب قدوم المخلص الذي يرفع عنهم الظلم ويؤمن لهم حياة القديسين بعدما عانوا الويلات وتدني القيم الاجتماعية، فاتجهوا إلى البحث عن الخير الروحي، الذي زاده الكتاب المقدس تقديسا وزادته مدينة الإله إقناعا بضرورة الإيمان بانتصار الخير على الشر في النهاية، و بدا لهم أن من يحيا بحسب المجد الأرضي فيتمتع قليلا ويشقى إلى الأبد وقدرة الله تقتضى الإيمان بالمسيح وبنزوله إذ يقول: " أصبحت قيامه المسيح بالجسد ودخوله المجد الأبدي الذي سوف يتحقق في جميع الناس في الأزمنة الجديدة موضوع إيمان عميق ورسالة جريئة، وكتب له أن يخصب ويكثر في كل الأرض دم الشهداء ، لأن ما حكي عنه الأنبياء في القديم شهدت له المعجزات" [201].

وعليه فإعادة ما خربه آلاريك وجيشه يضمنها الإيمان المسيحي لا تقديس الأوثان بل يجب انتظار المخلص، هذا الذي باتت تنوب عنه الكنيسة التي لا يجب أن يحيد الرعية عن طاعتها ليس فقط من اجل الخلاص السياسي والاجتماعي بل للتعقل المعرفي الذي هو مرهون بالإيمان، فالمعرفة لابد أن تنطلق من الإيمان ليتعقل الإنسان، فأومن لكي أتعقل ،وإن تعقل الفرد أدرك أنه مواطن في المدينة السماوية لابد له أن يحذوا النعل بالنعل تجاه التعاليم الدينية التي تبشره بنصرة المدينة السماوية هكذا أصبح مفهوم المدينة ينحو نحو والنظرة الطوباوية والمثالية كونه بحث فيما يجب أن يكون، وحتى وأن قلنا أنها مدينة تطيب الحياة فيها للجميع لكن هي انتظار سلبي يجمد الإدارة ويكبلها بالقيد الإيديولوجي للكنيسة التي تنعم على حساب شقاء الرعية وانتظارهم الخلاص بل تطاولت لتمدهم صكوكا وتأشيرات تضمن لهم الجنة وهذا ما ولد الثورة ضد رجال الدين.

3- غائية التاريخ المسيحي

ولتجاوز ما هو كائن، وبتبرير الوضع السياسي، ورفع التهم عن المسيحية التي ألصقت بها لعنة سقوط الإمبراطورية الرومانية، وقصد البحث عن مستقبل أفضل يكف عن الإهتمام بالماديات ويغني ذاته لبناء حضارة على دعائم روحية، ينعطف القديس أوغسطين

---

200 القديس أوغسطين ، مدينة الإله، الكتاب العشرين ، ص 171.
201 المصدر نفسه، ص 340.

صوب فلسفة التاريخ في صورة روحها مستمدة فمن الثنائية المانوية في التقسيم بين المدينة الأرضية والمدينة السماوية، وجوهرها يعكس الصراع الدائم بين المدينتين ومنذ نشأتها التي شرارتها الأولى هي من تمايز الخير عن الشر، والعفة عن الرعية ،والحسد عن المحبة، فكانت الحياة بحسب الروح، والحياة بحسب الجسد ولكل نموذج معلم فاتخذ أوغسطين صورة كل مدينة من خلال ثنائيات روملوس ورمسيس، اسحاق اسماعيل، هابيل وقابيل، ويبين المدينتين نقاط للتفرقة منذ البداية إلى نهاية التاريخ في صورتها المسيحية أين تسود قيم العادلة والتسامح ومحبة الله مع سلطان الكنيسة التي كانت للمسيح، وبنزوله ينشر العدل وترفع السيوف عن التقاتل ويمجد الصابرين من أهل المدينة السماوية.

ويعود أوغسطين بعد ذكر انطلاقة كل مدينة ليعرض مسارهما " إذ يتحدث عن مصدر الخليقة، تم يضع لها أيضا نهاية في آخر الزمان، وهذا يعني أن البدء كان بآدم ثم ولد له قايين الذي أسس بالفعل المدينة الأرضية بينما هابيل عضو المدينة السماوية لم يؤسس له مدينة في الأرض ليظهر أنه موجود في هذا العالم وهو في طريقه إلى الحياة الخالدة "[202] وفي الحياة الخالدة المدينة الإلهية لا يكون لها نهاية ونقطة الانطلاقة في فلسفة التاريخ تستمد نواة صيرورتها حسب طبيعة الحق الخاضع للمدينة الإلهية إضافة إلى الرد على تهم الوثنيين الذي هو انطلاقة لخوض أوغسطين في الميدان السياسي.

الأمر الذي جعل مؤلف من وزن مدينة الإله يتميز بازدواجية الدفاع، فمن جهة دفاع عن مبدأ العناية الإلهية ودفاع عن سقوط روما، أمام الدفاع الأول يعكس خضوع وقائع التاريخ للمشيئة الإلهية "بل هي التي شكلتها على نحو ما هي عليه بالقدر الذي ينكر القول بالمصادفة لأنها لا تعني في نهاية المطاف سوى العبث والفوضى وبالطبع فإن الإيمان بالعناية الإلهية يقتضى بالضرورة إيمان بالله"[203] ومبدأ العناية الإلهية مشهود له مع التبشير المسيحي بالقدر الذي يعطي نور الحقيقية للكنيسة التي تجعل من كل مسيحي هو شعب الله المختار. الذي يخلصه المسيح من دنس الشرور وينصره على حب الذات ومعلمها المتجلي والمتجسد في المدينة الأرضية، التي لا تعرف الحياة الأبدية فهي عالم الزيف والزور إن جاز لنا استعارة المصطلح من جمهورية أفلاطون في حديثه عن ثنائية المثل والواقع، فالواقع

[202]- زيعور علي ،أغسطينوس ، ص 245.
[203] - صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص 166.

كله يتطلب الصبر وترويض النفس عند سكان المدينة الإلهية، إضافة إلى عدم الاكتراث بالملذات قصد الوصول إلى أرض الميعاد أين تطيب فيها الحياة للجميع روحيا، ومادام الأمر على هذا النحو فسلطة الحاكم مستمدة من اللاهوت المسيحي، ومن خالف هذا فهو متمرد عن مشيئة الإله وإطار هذا اللاهوت يسرده القديس أوغسطين في حديثه عن مسار التاريخ وفق مبدأ العناية الإلهية روحه ناجمة عن تعاقب ستة عصور حسب الكتاب المقدس" من آدم إلى الطوفان، ومن الطوفان إلى إبراهيم، ومن إبراهيم إلى داوود ومن داوود إلى النفي لبابل ومن هذا النفي إلى ميلاد المسيح وأخيرا من هذا الميلاد إلى نهاية الأزمنة التي ستكون بحد ذاتها قدوم اليوم السابع"[204].

والأحداث في مسار التاريخ المسيحي فريدة من نوعها ولا تتكرر على عكس القائلين بالتعاقب الدوري فصلب المسيح ليخلص البشرية من الخطيئة الأولى حادثة لا تتكرر، فالتاريخ كله مثل المسرحية مؤلفها الرب والممثل فيها هم البشر، وتأسست المدينة بإرادة البشر حيث مالوا إلى الحسد :" فقد دخل الشر إلى الأرض بمعصية آدم وهبوطه إلى الأرض وتوالده فكثرت الأيام، ولما كانت في الإنسان محبتان، محبة الذات، ومحبة الله، فقد نشأة مدينتان ترجع إليهما سائر المجتمعات البشرية " [205] وتعرف المدينتان تطورا إلى النهاية في غائية التاريخ حيث تتحقق السعادة الأبدية والفضيلة الأخلاقية، في صورة أبدية غائية وروح التاريخ مستمد فيها من الجانب الديني.

وطبعا كما ورد في بدء الكلام بين المدينتين صراع منذ البداية ،وهذا راجع إلى لاختلافهما فهدف المدينة السماوية العمل من أجل إرضاء الله وتحصيل السعادة الأبدية، وعمل أهل المدينة الأرضية دوما مرهونا بإرضاء الذات، وهذا سيكون على حساب الجانب الروحي، لذلك كل حضارة تسير وفق هذا المبدأ مصيرها المعجل دون ريبة هو الانحطاط وهذا ما عاشته الإمبراطورية الرومانية التي عمل أفرداها على تكديس الخيور المادية وأعرضوا عن محبة الله، فسقطوا في الهزال السياسي وأصبحت الإمبراطورية لقمة سائغة في أيدي قبائل القوط الهمجية التي أحرقت المدينة، فتاريخ روما هو تاريخ مدنية أرضية لا أكثر و لا أقل.

---

[204] فرنسوا شاتلية وآخرون، معجم المؤلفات السياسية ، ص 117.

[205]- عبد المعطي علي، وآخرون، تطور الفكر الغربي ، (ط 1؛ الكويت: مكتبة الفلاح، 1987)، ص 146.

أما المدينة السماوية فتفضل الحرب مع المدينة الأرضية حتى تتفادى ما حدث للإمبراطورية الرومانية، وتعمل جاهدة للصمود ضد الشرور، ريثما يحل المخلص ويبث العدالة وينشر التسامح، وتصبح كل القيم عذراء لم تمسسها دنس الشهوات المادية، ويصبح رمز هذه المدينة أورشليم الخالدة الأبدية، والتي مخلصها من الشرور هو الإله، وحتى الفلسفة قاصرة عن تجاوز ما هو كائن إذ وحدها لا تستطيع الأشياء حيث يذكر في إتيان جيسلون قائلا: " بل الأمر يتطلب العودة إلى الدين وعليه يوجد إله واحد الذي صنع لنفسه اسمين يعبران في آن واحد عن ذاته على سر سيادة وسلطة الرب الكائن الذي هو الإله ، إله الفلاسفة والعلماء هو اليسوع، وهو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب "[206] فالله هو موضوع لهم وهو سبب التاريخ ويتعالي عليه ، وحركة التاريخ معدة سلفا حسب مخطط العناية الإلهية منذ نشأة المدينتين إلى نهايتهما الأخيرة .

وهناك كل مدينة تلقى مصيرها النهائي، ومسار التاريخ يتماشي وفق عناية الله، فوحده هو القادر على إقامة العادلة، لذلك يتوجب إتباع وطاعة الكنيسة فهي الرعية عن البشر فالعبد له صلة بربه والدول والإمبراطوريات القديمة في مرحلة ما قبل المسيح لم تكون قوة حضارية بالمعني الحقيقي كونها لم تدرك المعنى الحقيقي للعادلة، ومع المسيحية يطغي الاهتمام بالجانب الروحي الذي يرقي بالدولة إلى مستوى القداسة، وببعدها عن فوضوية التدبير البشري المحدود والضيق .

فذروة التقدم التاريخي المطلق للمدينة نبلغها بالإيمان الروحي والدعوة إلى ترك المادة وإلى المقاومة الروحية، وإن كان المقصد سياسي من وراء مدينة الإله وهو تبرير لسقوط الإمبراطورية الرومانية، ودفاع عن المسيحية المتهمة، فهذا ناجم عن صراع الذات مع الإيمان، وتعارض الخير مع الشر عبر الأزمنة، وهذا ما يضع أوغسطين أمام فلسفة التاريخ في حديثه عن تقدم المدينة الأرضية والسماوية والتعايش بينهما والحروب التي تدور بين هذه الإيمانية ،وتلك الأرضية إلى غاية الخلاص الذي ينزل مع المسيح المكفر عن خطايا البشرية وناصر المدينة السماوية، ويبث العدالة ويحقن الحروب ويحقق الفضيلة التي لا يدنو إليها دنس المادة وشر النفس، وخطأ الإرادة في الميل إلى الشيطان.

---

206 - Ettienne Gilson , philosophie et innervation selon . saint augustin, conférence Albert le grand. Institut des études médiévales, 1947.

وبالخلاص النهائي في مسار تاريخ المدينتين نجد المجتمع السماوي هو المجتمع الذي أفراده تطهروا روحيا وتخلصوا من الخطيئة في هذا العالم، وكذلك في العالم الآخر، حيث يتخذ التنظيم الإجتماعي شكلا دينيا خالصا والمسؤولية من إرادة الله ومشيئته لا من مسؤولية البشر التي هي عرضه لمختلف الإنزلاقات واللعنات وتميل إلى تقديس الذات على حساب الله ويغيب معها التكامل والتساند .

بل مع الصبر يكون السلام الأبدي والشقاوة والعذاب لمن سار عكس هذا، لان مبادئ الخير وشروط الاستمرار هي واضحة وجلية لا ريب فيها لمن يتماشي مع الكنيسة، " فتاريخ الكنيسة وبالتحديد هو خط سير الله في العالم، والجنس البشري في واقع الأمر ليس إلا أسرة واحدة، ولكنه لن يبلغ مصيره النهائي على الأرض بل في السماء والحياة الإنسانية هي مسرح لصراع مختلط بين الخير كما يتجلى ويتمثل في الإله، والشر كما يتمثل في الأرواح الشريرة، فالتاريخ الإنساني ليس إلا الكشف الأعظم عن سبيل الخلاص الإلهي ".[207]

والنصر الإلهي لن يكون هكذا جاهزا بل الأمر نابع من التجربة ومحاربة الشر إضافة إلى الاختيار إما بالميل إلى مجتمع يقدس الذات، أو مجتمع يخترقها ويعطي الأولوية لمحبة الإله وتجاوز الأوثان والتحرر من كل ما له علاقة بالجسد الفاني والشهوات التي تحجب نور الإيمان، لذلك جعل القديس أوغسطين التمييز بين المدينتين في مسارهما التاريخ وهذا من جوانب عديدة أخلاقية، ودينية، واجتماعية، واقتصادية وسياسية، " فالتاريخ البشري يخضع باستمرار لاحتكاك هاتين الجماعتين الخيرة الإلهية، والشريرة الشيطانية ، وإلى التنافس بينهما، فتقف مدينة الأرض من ناحية تدفع مجتمعها الأرضي الحوافز والدوافع الدنيا التي تستهدف التسلط والتملك ، في حين تقف في الناحية الأخرى مدينة الله بمجتمعها الذي ما وجد إلا التماسا للسلام السماوي والخلاص الروحي لا المادي في الحياة الأبدية " [208] .

فالفكرة الدينية واضحة وجلية من خلال التفسير الاوغسطيني للتاريخ ولمجراه نحو الغائية الروحية التي فيها يخلد الأفراد على الإيمان وتنزع من ذواتهم كل الشرور وكل بواعث الاختلاف والرذيلة وبعد إنقضاء العصور يأتي زمان ظهور ونزول اليسوع مخلص البشرية ليقضي على الشرور التي زرعتها المدينة الأرضية، وبتقوية مفهوم المحبة، "فحينما

---

[207]- سباين جورج، تطور الفكر السياسي، الكتاب الثاني، ص 278.
[208]- المرجع نفسه، ص 276.

نادى المسيح بالمحبة فإنه لم يقصد بها سوى تلك العلاقة الحية التي تقضى على الثنائية وعلى الانفصال بين الله والإنسان، ولهذا فقد لم يستبدل المسيح العلاقة اليهودية القائمة بين العبد والسيد بعلاقة جديدة هي علاقة الأبناء بأبيهم فالمحبة هي الرابط الذي يمكن أن يجمع الإنسان والله "[209]، وبنزول المسيح الذي يفصل في النزاع بين إتباع الهوى وإتباع القيم الروحية، يجدد المحبة فهي ولادة جديدة عند أهل المدينة الخالدة السماوية.

وفي الحديث عن صيرورة التاريخ نحو غاية هي الكمال الروحي نجد القديس أوغسطين يطل على مشارق أخرى فمن تبرئة ذمة المسيحية المتهمة، التي قبل إنها لعنة على الرومانيين المتخلين عن عبادة كبير الآلهة جيوبتير، نجده يدخل ميدان الأفكار التاريخية التي حبل وريدها مرتبط بالكنيسة ، ومن التعاليم المسيحية التي تستجيب لأمل المستضعفين وترجئ لهم الخلاص إلى اليوم الأخروي.في هذا الانتظار تبرز أهادف التاريخ الإنساني ومقاصده ومنذ هبوط آدم من الجنة، وكيف تشكلت المدينة الأرضية، والمدينة السماوية والعامل في ذلك هو الغيرة والحسد، وكيف يبدأ الصراع بينهما لاختلافهما من حيث المنطلق والمنتهى، وفي نهاية التاريخ في صورته الروحية المسيحية يفصل المسيح ويحدد المصير النهائي لكل مدينة هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فقد برع أوغسطين في تحليل التاريخ الروماني، بل وحديثه عن نماذج المدن الشيطانية قاده إلى الإمبراطورية الأخرى السابقة، وبين كيف أن تكدس الأوضاع المتدينة على مختلف المستويات هي التي عجلت بانهيار روما وهذا لأن الدولة الرومانية درع دنيوي تسربت إليه الشرور وطغت فيه الماديات مما جعل روما مدينة أرضية.

وبشر المسيحيين والرعية بالخلاص وبأنموذج الدولة الخالدة لكن شريطة الألم والصبر على الشر، وتربية النفس لخدمة الفضيلة الأخلاقية وحدها، حتى يتطهر الإنسان بولادة جديدة من دنس الخطايا ومن التنازع بين القوة الدينية والقوة الدنيوية، وحجر تأسيس المدينة السماوية هو من روح القلوب إذ المحبة حاضرة في عملية انتقال التاريخ من حقبة إلى أخرى مثلها نجد حضور العناية الإلهية، وريثما ينزل المخلص تنوب الكنيسة عنه وهذا ما

---

[209] - عباس فيصل، الاغتراب والإنسان المعاصر وشقاء الوصي، ص 68.

غذى روح التيولوجيا التي تعطي مشروعية استبداد الكنيسة والحاكم الذي هو تحت ظل الإله، ومن خالفه خالف مشيئة الإله.

فللرعية إذا الصبر وانتظار التعويض بعد نزول المسيح وللكنيسة مشروعية استغلال الاقتصاد والطغيان السياسي والسلطة الروحية، وبعدما كان الأفراد يعتقدون أنهم يتحملون الخسائر في حربهم ضد المدينة الشيطانية في حين وقعوا في خسائر اشد وقرا إذ تخدير العقول ورهنها بالخلاص جعل السنة الأفراد وثرواتهم تحت تصرف الكنيسة، وبالتالي وقعوا في حربين الأولى شخصها أوغسطين في صراع المدينة الأرضية مع السماوية وقعوا في حربين الأولى ضد المدينة الأرضية، الحرب الثانية ستكون ضد طغيان الكنيسة أو ما تحول إلى تيولوجيا، وهذا كون الشعب الممثل للمسرحية الإلهية ليس من حقه خيانة السيناريو بل يجسده فتحولت مدينة الإله إلى مذهب عرف بالاوغسطينية السياسية لاحقا يجعل الحاكم له الحق في رقاب لناس وهو من تفويض الهي وكل من خالفه تلاحقه محاكم التفتيش بذلك من تدهور الحضارة الرومانية مدينة الإله كانت نقطة عبور إلى عصر الظلمات في القرون الوسطى المسيحية.

المبحث الثاني : الأوغسطينية السياسية

بين طيات الخطاب الأوغسطيني الذي اتخذ سياسة هجومية على كل فساد في الملة يخدم الأوثان والشيطان والمغزى من هذا مطلب دفاعي يرفع التهم عن المسيحية ديانة التسامح لا اللعنة والضعف أو الفساد مثلما كان متداول على الألسنة زمان سقوط الإمبراطورية الرومانية على يد قبائل القوط، حيث نلمس بعد هذا الخطاب مدرسة قائمة بذاتها وإن لم يتعمد صاحب مدينة الإله إلى إقامة مدرسة أو مذهب في السياسة إلا أن استخدامات آرائه مع من لحقه خصوصا ما تعلق بتقديم السلطة الروحية على الزمنية وجعل كل السبل لابد وان تنطلق من الكنيسة الوسيط بين الله والبشر الراعي الشرعي لشؤون الناس وعمرت هذه الفكرة طوال القرون الوسطى، وهذا ما نوضحه مع القديس غيرغوري والقديس توماس الاكويني .

كل هذا يرفع التدبير إلى مستوى إلهي خالص فيذكر القديس بولس قائلا:" على كل إنسان أن يخضع لأصحاب السلطة، فلا سلطة إلا من عند الله والسلطة القائمة هو الذي أقامها، فمن قاوم السلطة قاوم تدبير الله فاستحق العقاب ولا يخاف الحكام من يعمل الخير، بل من يعمل الشر أتريد أن تخاف السلطة؟ إعمل الخير تنال رضاها"[210].

وعليه جوهر استخدام النظرة الأوغسطينية اتخذ رداء التيولوجيا من ثنائية الخير والشر إلى ثنائية الترهيب والترغيب، فالترغيب هو للضعفاء ممن إستهواهم وعد المسيحية بالخلاص بعدما أعيتهم السلطة وضاقت عليهم الظروف اجتماعيا واقتصاديا فلجأوا للبحث عن الخلاص بإتباع حياة الزهد ومحاربة الشهوات والولاء للكنيسة، أما الترهيب فهو لكل من خالف سلطة الكنيسة إذ انحرف عن مشيئة الله واستحق نار جهنم في الحياة الآخرة و ردع السلطة ومراقبة وقهر محاكم التفتيش في الحياة الراهنة .

وعلى العموم فمقاصد المدينة الإلهية تتحول إلى مسرح للتيولوجيا تفصل المقال في الصراع القائم بين الدولة والكنيسة ،وتعطي قداسة للملك الذي يحذو النعل بالنعل حذو القسيس ليكون ظل الله فوق الأرض، وهذا ما نوضحه من خلال المبحث الموالي واقفين عند

[210]- رسالة بولس إلى أهل رومة، الإصحاح الثالث عشر / 1-04.

محطات ثلاث بين تحديد مفهوم الأوغسطينية السياسية وصولا إلى تجسيداتها ميدانيا واخترنا لذلك كل من غيرغوري و القديس توماس الاكويني .

1- مفهوم الأوغسطنية السياسية:

مدينة الإله وإن انطلقت من التبرير الواقعي للسقوط الروماني هادف من ورائها القديس أوغسطين إلى رفع الاتهام عن المسيحية، مارا على مسار التاريخ العالمي الذي يعكس الصراع بين المدينتين السماوية والأرضية وهذا راجع إلى ازدواجية البنية الإنسانية بين الروح والجسد، فقد جعل القديس مقابل الوصول إلى المدينة السماوية في المقدمة السلطة الروحية الدينية على السلطة الزمنية التي تحمل بين طياتها بذور فنائها وهذا ما حدث مع إمبراطورية روما المدينة الأرضية، فهي غير خالدة وموطن الشيطان والنزاعات.لكن تحول استخدامها إلى تيولوجيا لاحقا تبحث عن سلطة الكنيسة.

وعلى الرغم من آن أوغسطين لم يروج لهذا بإنشاء مذهب إلا أن تعاليمه التي تفيد بأن لا سلطة إلا من عند الله تحولت إلى ما يعرف بالاوغسطنية السياسية* إذ كل دولة لابد أن تخضع للسلطة الروحية أولا حتى تكون هي المدينة السماوية عالم الفضيلة.

من هذا المبدأ شاع الترويج للتيولوجيا والبحث من جديد في علاقة الدولة بالكنيسة التي طرحت وبشكل جدي مع بداية إنتشار المسيحية داخل الإمبراطورية الرومانية،وترتب عن هذا متابعة كل محايد عن طاعة السلطة الروحية لأنها سبيل الوصول إلى المدينة الإلهية، لكن في حقيقة الأمر نجد المسيحية تدعو إلى التحرر من الاستبداد والطغيان وهي تعمل به بل وبمشروعيته السماوية المقدسة التي لا يجرؤ أي فرد على مخالفتها فيجب عليه أن يترك ما لقيصر له ويعمل من أجل الظفر بمحبة الله ويرفع عينه إلى السماء ليرتقب كل فرد مجيء المسيح ليعوض عن الشقاء البشري ،" كون علة وجود السلطة السياسية هي أن تقيم العدالة ذلك أنه وبدون عدالة ما هو الملك غير لص غير مؤهل للمجد؟ وما هي المملكة غير كهف

---

* **الأوغسطنية السياسية:** لقد ظهر نوع من الأوغسطنية السياسية بعد أن أوغسطين قامت على أساس اعتقاد مفاده أن أسقف هيبون قد أسس لنظرية تسوغ اللجوء إلى الدولة لفرض الشرائع الربانية على المدن البشرية حتى تسود مدينة الله على المدينة الأرضية وقد ترتب على ذلك السياق المسيحي القول بضرورة استعمال الكنيسة للدولة طوعا أو كرها وهذا ما يعرف بالتيولوجيا .
نقلا عن : الأسقف هنري تيسي، أوغسطين أفريقيته وعالمية منشورات المجلس الإسلامي ،ص 109.

للصوص، فكتاب مدينة الإله عبارة عن تيولوجيا سياسية أكثر مما هو عقيدة في علم السياسة"[211] .

إذا أننا نجد أصل الإكراهية في الحكم مبرر على أساس ديني، وان الناموس والقانون العادل هو الشرعي المشهد من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية التي أعلنت مبادئ ومقولات السيد المسيح للرعية ودعت إلى محبة الإله التي تجعل الأفراد شخص واحد وجسد واحد وان القانون هو في نهاية الأمر نابع من إرادة الله، وان الإنسان لا يظلم الآخرين فالشمس تطلع على الأبرار والأشرار في حد سواء هذا هو المعلن.

أما المضمر فهو طغيان ودغمائية أعاقت العقل الغربي وأخرته طيلة القرون الوسطي حتى بداية التحرر من هذه التيولوجية في عصر النهضة مع من نجوا من محاكم التفتيش واقتاتوا ما بقي من زاد إبن رشد الذي يفصل المقال بين الحكمة والشريعة فأحدثوا ثورة على هذه التيولوجيا. داعين إلى قتل آخر ملك بأمعاء أول قسيس وهذا ما روجت له الثورة الفرنسية 1789.

وإذا كان فهم التاريخ عند القديس أوغسطين لابد أن يتعالى عن المادة بسبب الشر إلى غاية روحية سامية، :" حيث أن التاريخ الاوغسطيني للمدينة يكمن في المجتمع أو بالأحرى في واقعه التاريخي الذي يشهد المنافس على السلطة بين الكنيسة والحكام، فقد انطلق من المادي ليصل إلى الفكري"[212] فإننا نجد فيما بعد نوعا آخر من الجدل في الأوغسطينية السياسية التي يطغى عليها الجانب الروحي، ويتطلب الأمر وسطية الكنيسة التي تؤدي إلى إحكام السلطة لصالح الملك دون سواه، كون كل عمل يخضع للعناية الإلهية والكنيسة هي المرشد للناس وللشعب المسيحي شعب الله المختار الذي مؤسسه وحاكمه المسيح ووجود هذا الشعب يقوم على الورع والحكمة والفضيلة ومحبة الآخر عكس انحراف أهل المدينة الشيطانية الواقعية تحت سلطان وإمرة الحسد والغيرة .

---

[211] - زيعور علي ، أوغسطنيوس، ص 224.
[212] - المرجع نفسه ، ص 227.

وهذا الفكر امتد تأثيره داخل الدول الغربية، " حيث كان اللاهوتيون بأسرهم يناقشون مبادئ القديس أوغسطين، ويتحلون بها أو يحاربونها وبقيت معلم الفكر الكاثوليكي إذ التأثير الاوغسطيني اتخذ طابع ديني "[213]

وطغى هذا الطابع الديني، وكان ما أحدثه السير وفق مخطط العناية الإلهية من الشتات والتدمير واغتيال الفكر ما يكفي لأن يقيم الإيطالي ميكيافليي الذريعة والحجاج لإبعاد حاجب الجهل الكنسي عن السياسة والفكر على حد سواء فيذكر قائلا في مطارحاته: " لكننا ندين للكنيسة ورجالها بشيء أعظم ولعله هو السبب فيما لحق بنا من خراب، فالكنيسة هي التي جزأت إيطاليا، ومازالت تحافظ على تجزئتها ومن الحق أن قال إن أية بلاد بنعمة الوحدة وبالسعادة إلا إذا كانت كلها تحت سيطرة حكم جمهوري واحد أو أمير واحد، ولا ريب في أن السبب في عدم وجود هذا الوضع هو يعود حتما وإطلاقا إلى الكنيسة، وعن وجود سلطانها الدنيوي "[214] . فالضعف والعار ألحقته تعاليم المسيحية حسب ميكيافليي التي طالما روجت لأخلاق الإنسان النبيل الذي يقبل الضعف، ويدير خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن.

وعلى العموم فمع أن أوغسطين لم يؤسس مدرسة قائمة بذاتها إلا أن أفكار المتعلقة بالتاريخ العالمي وكيف ربطها بالعناية الإلهية فهذا كان مدرسة قائمة بذاتها أعطت الأولوية والمصداقية للسلطة الروحية وما على الرعية إلا التطبيق فإنصافهم ليس في هذا العالم الأرضي بل الأخروي الروحي ليزيد من وزنهم داخل مملكة المسيح التي تسود في غائية التاريخ، فقد ربط الفهم التاريخي حسب مخطط العناية الإلهية، جاعلا بذلك القانون العام هو الذي يتحكم في الظواهر الإنسانية وهو خطة من العناية الإلهية.

وعن تجاوز أوغسطين الحق الطبيعي، منذ ميلاد ونشأة المدينتين، فقد ظهر عنده الحق الإلهي الذي اشتدت شوكته لاحقا، خصوصا بعد إيمانه بعجز القانون الوضعي والدليل على نقصه هو سقوط روما، وبالتالي كمال السلطة يكون بإتباع التعاليم المسيحية التي استغلت الوضع واتسع نطاق تأثيرها في ظرف وجيز مما أدى إلى سخط العامة وعجل الثورة للانقلاب عليها في نفس الوقت.فكما اعتبر أوغسطين توسع سلطة روما نحو العالمية

---

[213] زيعور علي ، أوغسطنيوس، ص 244.
[214] ميكافيلي، مطارحات ميكيافيلي، تع: خير حماد، (ط 1؛ بيروت: منشورات المكتب التجاري ،1962)، ص 265.

أدى إلى انهيار الإمبراطورية فالخطأ يتكرر إذ توسع سلطة الكنيسة من الجانب الديني إلى المستوى السياسي والاقتصادي أدى إلى انتقادات وثورة الشعب عليها خصوصا وان الأفراد يفضلون الكفر والارتداد عن المسيحية بدل العيش تحت الطغيان والظلم والفساد.

و ترتب عن هذا الثورة التي كانت جراء تدني القيم فنشا القول والدعوة إلى اللائكية، إمام إطلاقية سلطة الكنيسة، حيث " الله هو القاعدة والقمة في الدولة مالك السلطة، منظم الإمبراطوريات، الموحي بالقوانين ،مصدر العدالة وركيزة الوطن، لذلك فإن الحاكم والمشرع، القاضي والجندي يجب عليهم إعتبار أنفسهم بمثابة المفوضين ،وأنهم يطيعون مشيئته، سلطتهم من سلطته مفوضة إليهم لذلك وجب عليهم عدم التكبر"[215].

وهذا هو جوهر الأوغسطينية في حركة التاريخ بعد تعاقب الأزمان إذ تبدأ المدينتين من الله وإليه تخلد كل مدينة السماوية في النعيم لأهلها، والأرضية تتخبط في الشقاء الأبدي، ومقابل هذا يجب التجرد من كل شيء لحساب الكنيسة فوزن الخلاص لا تعادله التضحيات فعلى الرعية الطاعة العمياء حتى لا يبقى الأفراد رهن حبس الشياطين ويرقون إلى الدولة الحّقة "فقد نشأة الأوغسطنية السياسية التي خلفت نقاشا كبيرا ومدينة الإله هي المدينة التي تقدم إلى الله الحق عبادته" [216] فالشعب والدولة يبلغان نوعا من التوازن من خلال السير وفق النواميس الإلهية المقدسة، لتفادي شرور الحروب وما ينجر عنها من كوارث فهم في المدينة الإلهية أشبه بالملائكة في موطن الفضيلة الأخلاقية.

2- السلطة الروحية عند غريغوري:

وإن كانت سمة العصور الوسطى تبريرا للتعقل الذي يلي الإيمان في مرحلة أولى ،فهذا جعل لا سلطة إلا من عند الله، وحتى النواميس الوضعية يتسرب إليها الشر لأنها من طبيعة إنسية ناقصة لهذا فسر القديس أوغسطين سقوط الإمبراطورية الرومانية وحتى الإمبراطوريات السابقة عليها بالانحراف عن التعاليم الدينية الحقة، ومن أجل بناء الحضارة فلابد من الإيمان بمحبة الله فيما يذكر الرسول بولس : " اقتدوا بالله كأبناء أحباء وسيروا في

---

[215]- زيعور علي ، أوغسطنيوس، ص 242.
[216] - القديس أوغسطين ،مدينة الإله، الكتاب التاسع عشر، ص 101.

المحبة سيرة المسيح الذي أحبنا، وضحى بنفسه من اجلنا قربانا وذبيحة لله طيبة الرائحة" [217].

فالسيرة على صراط المحبة وتحت ظل العناية الإلهية انحرفت إلى خدمة الكنيسة جعلت معها السلطة روحية والحاكم هو من تفويض إلهي له الولاء المطلق إذ تقف ورائه الكنيسة ، ومن هذا لمطلق بحث غيريغوريوس* "الذي سعى إلى تجسيد السلطة البابوية...والكنيسة لابد أن تصبح مركز التشريع الإداري والقضائي والدولة تابعة لها".[218] وعليه الأولوية وزمام الأمور موكولة إلى رجال الدين لإدارة شؤون البشر ريثما ينزل المخلص ويبث السعادة الأبدية فيذكر القديس أوغسطين عن هذه السعادة في الكتاب الثاني والعشرون من مدينة الإله قائلا:" السعادة الأبدية في مدينة الله وهي السعادة التي دعيت بأنها أبدية لا لكونها تمتد على مدى أجيال وتنتهي في يوم من الأيام بل لكونها تبرير بأنه ليس لملك الله إنقضاء "[219].

ومادام ملك الله لا يعرف إنقضاء فالدوام يجسده غريغوري في العالم الذي نعته القديس أوغسطين بالأرض وخلال هذا تتجسد سلطة الكنيسة المفوضة إلهيا، وأما في يوم الدينونة الأخيرة تكون سلطة المسيح، ويحي البشر وفق محبة الله وطاعة الحاكم حيث يكون البابا معين بأمر من الله وبعون ومد وقوة من القانون السماوي المتعالي عن السلطة الزمنية، وهكذا وظفت التيولوجية واسعا من وراء خطابات القديس أوغسطين المتشبعة بالسلام والعدالة، فتحولت إلى تمهيد لفترة من طغيان الكنيسة.

وجسد غريغوري نموذج الطغيان باسم العناية الإلهية حيث يرى:" أن البابا هو صاحب السلطان الأعلى في الكنيسة كلها، وهو وحده الذي له أن يعين ويخلع الأساقفة، ولمبعوثه أن يتقدم على الأساقفة وغيرهم من موظفي الكنيسة للانعقاد، وأن يجعل لقراراته قوة التنفيذ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يملك أحد سلطة إلغاء القرارات البابوية" [220]. هذا وتجدر الإشارة إلى أن موقف غريغوري من النزاع بين السلطتين الروحية والزمنية

---

[217] - رسالة بولس إلى أهل إفسس ، الإصحاح الخامس/01-03.

[218] - Jean Cloud Eslin , dieu et le pouvoir , théologie et politique en accident, (Paris : seuil 1953), p 103.

[219]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الثاني والعشرون، ص 326.

[220] - سباين جورج ، تطور الفكر السياسي ، الكتاب الثاني ، ص 330.

فصل فيه لصالح الجانب الديني وجعل بذلك الأمراء والأباطرة هم المقدسون لهم السلطة والقدرة المطلقة "وبديهي أن نجده يفترض في آرائه سمو السلطة الروحية على السلطة الزمنية".[221]

فصفات الرئيس كلها تتميز بالقداسة كونها نابعة من تفويض الهي خالص وسادت هذه النظرة التي روجت لها الكنيسة كثيرا مما عجل بثورة الأفراد على هذا الاستبداد ومطلبهم الوحيد هو انه لا حاجة لهم لا إلى سيد ولا إلى رب،فالسيد تملك وحول أموال الغير وجهودهم إلى إخضاع وملكية فردية،والرب هو من استخدمت عنايته ووعده بالخلاص إلى إعطاء مشروعية للحاكم يقف خلفها رجال الدين الذين تطاولوا حتى إلى بيع صكوك للغفران.

ورغم أن القديس أوغسطين لم يؤسس مدرسة قائمة بحد ذاتها إلا أننا نجد أفكاره المتعلقة بالمحبة الإلهية وبانتظار المسيح كما ورد في الكتاب المقدس وان السلطة مصدرها الله وموجهها هي الكنيسة فهذه الآراء جسدت لاحقا ما يعرف بالاوغسطينية السياسية التي تلزم الأفراد بالطاعة والولاء ومن ذلك ما نجده مع غريغوري الذي يعتبر أن الطاعة واجبة وإلزامية للكنيسة " ويون المصطفون وأبناء الله فحسب هم الذين يطلق عليهم بحق اسم كنيسة الله"[222]

وبذلك كان ربط التاريخ بالعناية الإلهية هو ربط بإرادة البشر بسلطة الأباطرة وإعطاء مصداقية لدور الكنسية التي تنوب عن المسيح في إدارة شؤون الناس.

3- السلطة الروحية عند القديس توماس الإكويني:

ومن المثالية الأفلاطونية التي لجا إليها وبها شيد القديس أوغسطين تصوره السياسي في رصد حقيقة المدينة الإلهية عالم الفضيلة والعادلة وموطن التسامح، وإذ جسد أفلاطون مبتغاه بواسطة اجتياز المراحل التربوية للوصول إلى مرتبة الفيلسوف صاحب السلطة، فتميز أوغسطين بمنحى آخر يقوم على أساس ترويض النفس على المحبة والإيمان للبلوغ مرتبة الخلاص لأهل المدينة السماوية، أجل ومن هذه المثالية نجد القديس توماس الأكويني يعالج_مصداقية السلطة الروحية من خلال العودة إلى الواقعية الأرسطية، ويعترف على هامش مخطط العناية الإلهية بدور الإنسان في تكوين مذهب اجتماعي وسياسي له بعد ديني

---

221 سباين جورج، <u>تطور الفكر السياسي</u>، الكتاب الثاني، ص 334.
222 المرجع نفسه، ص 335.

خالص، " فلقد فكر القديس توماس الإكويني في فكرة العودة إلى الله وذلك من خلال مفهوم المخلوق العاقل، وهذا يفيد أن الإنسان هو سيد أفعاله وذلك عن طريق حرية الاختيار وبواسطة النعمة الإلهية "[223]

فطبع الإنسان الإرادي أمر لا مفر منه، إضافة إلى خاصية الاجتماع والتمدن لذلك الأمر إنسي خالص لابد أن يعتمد في بناء أصوله على ذوات الأفراد، وهذا طبعا ليس على حساب الوازع الديني المقدس، " إذ أن الإنسان في حد ذاته يمثل مبدأ أفعاله وسلوكاته وذلك لكونه يملك حرية الإختيار كما يتحكم في قواعد سلوكه الأخلاقية إضافة إلى قواعد سلوك المدينة أي السلطة السياسية، فالإنسان هو من طبيعة سياسية واجتماعية موجود على الأرض من أجل أن يعيش في مجتمع"[224] وهذا المجتمع لابد أن تسوسه القوانين العادلة، ويسوده التسامح الذي طالما بشرت به المسيحية في بداية ذيوعها ووعدت به في نهاية التاريخ الدينية، ووجهت الفرد للعمل من أجل محبة الله والأخر ومحاربة الشهوة والشيطان للتحرر من الخطايا والمدنسات التي طهر منها البشرية المخلص يسوع.

ويطرح القديس توماس الاكويني في بحثه السياسي فكرة العودة إلى الله بواسطة التعقل الإنساني مع السير وفق ما أعدته رعاية الإله، والسلطة تنزل على الإنسان وتكون ملكية، مقدسة لارتكازها على جانب روحي، وكل السلطات التي عمرت نجد غالبيتها يتخذ مشروعيته من رعاية الإله لكي تزداد قداسة ومعروف هذا داخل الحضارات الشرقية أين كان الفرعون أو الملك أو الإمبراطور يتربع على عرشه وسلطة روحية مستمدة من نواميس المحبة فهو ظل الإله ولا يحق للرعية مخالفته لأنها من محالفة الإله وتؤدي بصاحبها إذا نجا من عقاب السلطة إلى الخلود في جهنم.

ومشى على هذا النحو رجال الدين في القرون الوسطي مما أدى هذا إلى شق عصا الجماعة حيث مال نفر هائل إلى رفع كلمة الرب فوق كل سلطة زمنية، ولقنوا الرعية دروس في محبة الله والولاء للكنيسة للظفر بالخلاص على يد المسيح وهذا ما وعد به أوغسطين أهل المدينة السماوية، وفيما بعد عرف هذا الميل بالأوغسطينية السياسية التي من وراء وعود السلام والسعادة تخفي الاستبداد المقنن وراء القول بالتفويض الإلهي.

---

223 - Jean Cloud Eslin , dieu et le pouvoir , théologie et politique au accèdent , p 111.
224 - Ibid , p111.

وفريق آخر رفض وسطية الكنيسة التي حولت الملوك إلى آلهة على الأرض وشمل طغيانهم الدين والاقتصاد والسياسة فعارضوا هذا التجبر والعمل بالتيولوجيا السياسية ،أما عن القديس توماس الإكويني وإن تفرد برؤية أرسطية واقعية فإنه لا ينفك إلا أن ينفد الحكم الإلهي المطلق،" فالسلطة تنزل من الأعلى دون وسيط وتكون ملكية على غرار حكومة الله على العالم ذاك هو إذا أنموذج الإيديولوجية الدينية التي ـاستخدمت منذ أمد طويل لإضفاء الشرعية على الملوك الذين يمارسون الحكم المطلق،فإذا كان اللوفيتان عند توماس هوبز هو الإله ألفان، فملوكنا ورثة حكم تيوقراطي "[225]

فالنهضة التوماوية أفاضت لنا مذهب اجتماعي للكنيسة ومذهب مسيحي للسياسة، كون الإنسان ذو طبيعة مزدوجة جانب سياسي وآخر سوسيولوجي وهذا من ذاك شريطة العمل وفق تعاليم الكنيسة، فالغاية المنشودة هي تحقيق السلام الأبدي،وتأمين سر الخلود دونما خطايا كما تنص على ذلك المسيحية، والأمر لا يتطلب الزهد والتصوف بل طبعه القديس توماس الأكويني بلمسة بشرية نابعة من الإدارة وحرية الاختيار عند الإنسان الذي يخدم الغاية الروحية المنشودة لخدمة المصالح المشتركة ما بين الأفراد.

وحبل وريد السياسة مستمد من سلطة الكنيسة الدينية التي تجعل الإنسان شريك هذه السلطة بعقله هذا العقل الذي تسبقه طبعا مسلمة الإيمان، " فالإنسان هو المهندس ذاته، شريك العناية الإلهية، فمن امن يحفظ لكل عضو من أعضائه، ولكل قوة من قواه وظيفتها في البناء فتستقم له غاية الوحدة، وإما أن تطغي بعض الأجزاء والقوى على غيرها فتطبع لها في النهاية غاية الوحدة" .[226]

هذه الوحدة لا تجعل خطا فاصل بين السياسة والكنيسة لكون السياسة الراشدة هي الموجه نحو غاية مقدسة روحية عقائدية ، بما أن كل السلطات من الرب وهي عائدة إليه، واستخدمت هذه الرؤية والنظرة في مساندة العقيدة السياسية ومساندة السياسية بالكنيسة التي تنوب عن المسيح في رعاية شؤون البشر ريثما ينزل ليخلص الشعب ويبث القيم الروحية السامية.

---

[225]- شاتلية فرنسو وآخرون، معجم المؤلفات السياسية، ص 344.
[226]- ضومط ميخائيل، توما الاكويني، (د ط؛ بيروت: المطبعة الكاثوليكية ، 1956)، ص 96.

المبحث الثالث: المدينة من اليوتوبيا إلى الواقعية ومنطق القوة

من مدينة المثال التي اقل ما يقال عنها أنها تسبح في عالم الخيال الذي يرفع الأذى والظلم والضعف والتدهور إلى قيم مثالية تبحث عن إنسان مفارق في مكان امن يتعذر تحقيقه مما يجعل البعض ينعتها باليوتوبيا أو المدينة اللامكانية وتجلياتها كانت مع أفلاطون ومن سبقه لتحضر بقوة داخل مدينة الإله عند أوغسطين، نجد الدعوة إلى مدينة الإنسان والى الواقعية التي تتحقق في المكان وتنقد الأنساق الطوباوية وتعيب على الفلاسفة إسرافهم في الخيال مقابل إعراضهم على الواقع.

بناء على ما تقدم فتأسيس المدينة وتجاوز ما هو كائن والحفاظ على دوام السلطة يكون بالعمل حتى وان تطلب الأمر توظيف القوة، فالشعوب عندما تصل إلى درجة الضعف فتصور المدينة الفاضلة يزيدها ركود والأمر يستلزم نقد المدن الطوباوية ومحاربة الأنانية والغرائز والشهوات عند الإنسان،ليس بالزهد والتعفف الذي بلغته المسيحية بل بالقوة وترويض النفس بالطاعة لبناء متكامل للدولة ومن ذلك ما يلي في حديثنا عن نقد اليوتوبيا والأمل بالقوة والعمل، واخترنا لذلك كل من الايطالي "ميكيافلي" "وتوماس هوبز" "واسبينوزا"،ممن اخذوا على عاتقهم ضرورة الالتفات لتنظيم الشؤون على الأرض بدل انتظار الخلاص والغرق في المثل وكل هذا نوضحه في انتقادات اليوتوبيا وكيف تحول بناء المدينة وتأسيسها من الخيال إلى الواقع فيما يلي من مطالب:

1- نقد نيكولا ميكيافلي للطوباوية:

وإن وظف القديس أوغسطين مفهوم المدينة الفاضلة في صورتها الإلهية، معبرا بذلك عن حقيقة التاريخ الذي ألت إليه روما بعدما اعتبرها حضارة مادية قبلة أهلها الأوثان، وهدفهم تحقيق السعادة من خلال استباحة الملذات، وبين مسار التاريخ من خلال وعد أهل المدينة السماوية بالخلاص وربط قوة الحضارة بالجانب الروحي وهذا بالزهد والتعفف والتقشف للوصول إلى محبة الله، وبهذا يعيد صورة الإمبراطورية في أورشليم المقدسة بعد خيبة تدهور روما التي هي مدينة أرضية لا أكثر ولا أقل.

لكن تجاوز الكائن بصورة طوباوية قد يكون مجرد كلمات وبنود تكلف صاحبها عناء الرحلة إلى مدينة مخيالية، هذا ما يرفضه كل متجه إلى الواقع، وعرفت إيطاليا تشرذما

وتمزقا سياسي وانقسمت إلى إمارات تكالبت عليها الأطماع الاستعمارية بعدما كانت هي إمبراطورية الأجداد لذلك فالقوة والطغيان هو العلاج الكافي للنهوض من الانحطاط والتدهور فيقول ويعلن بذلك _ميكيافليي في كتابه الأمير_ المهدي إلى الأمير من أسرة آل ميدتشي الملكية بإيطاليا قائلا:" تكون الحرب عادلة إذا كانت ضرورية ويكون السلاح مقدس إن لم يكن هناك أمل في غيره "[227]، هي إذن حرب أعلنها المفكر ميكيافليي ضد حالة الضعف والانقسام دون أن يكلف نفسه هم البحث عن أرض الميعاد أو يعود إلى أسطورة العصر الذهبي وتصور المدينة الفاضلة،والضعف الذي أصاب روما لا يرتفع ، ولا يرفعه المخلص والسلاح الذي استخدمه هو القوة وهي مقدسة، أما الأخلاق والتسامح والتعفف فهذه قيم ليست في وقتها المناسب فهي تروج للجبن وتفتح باب الأمل بدل المواجهة والعمل.

أما عن مستجدات أفكار ميكيافليي فليست هي ضرب من الهذيان بقدر ما هي حتمية لواقع سياسي واجتماعي متدهور،" فكانت إيطاليا مقسمة إلى دويلات وأقاليم، مملكة نابولي في الجنوب، ودوقية ميلانو في الشمال الغربي، وجمهورية البندقية في الشمال الشرقي، وجمهورية فلورنسا، وأخيرا الدولة البابوية في الوسط" [228].

وهناك العديد من الدويلات الصغيرة المستقلة كل هذا كان كافي لإقامة الحجة على استخدام الطغيان وسلخ التدبير السياسي عن القيم أخلاقية، وهذا جوهر ما نظر إليه وبكل واقعية في بحثه عن شروط استمرار الإمارات، وكيف تحدد موقفا لها في التاريخ العالمي دون إرجاء الأمر وتأجيله للمخلص مثلما هو عليه الحال عند القديس أوغسطين الذي امتاز بازدواجية الدفاع بين تبرير المسيحية، والدفاع عن أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية، أما بين طيات مؤلف الأمير يتبين" كيف يلزم للأمير أن يكون متحليا بصفات الحذر والقوة وأن يسلك في سبيل تحقيق أغراضه ك الوسائل المشروعية وغير المشروعة بقطع النظر عن مجافاتها للفضيلة والأخلاق مادامت توصل إلى الغاية المنشودة التي تخضع لمبدأ الغاية ابرر الوسيلة"[229] .ومن وراء هذا الكثير من مدلول، فيكون تأسيس الدولة وإقامة بنودها ودعائمها قوامه الغلبة والقهر، فهما السبيل الأوحد لإعادة المجد وإن تطلب الأمر حجب كل

---

[227]- ميكيافليي نيكولا، الأمير، تر محمد بن البار، (د ط؛ الجزائر: شركة دار الأمة، 1998)، ص 38.
[228]- حاروش نور الدين، تاريخ الفكر السياسي، ص 258.
[229]- أبوريان محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي، الفلسفة الحديثة، (د ط؛ الإسكندرية: دار المعارف الجامعية، 1997)، ص 23.

القيم الأخلاقية وإباحة الدسائس والمؤامرات والغدر، حتى يكون الحاكم في قمة هرم السلطة يجمع ويمنع، دونما اللجوء إلى الطوباوية والفرار من الواقع، وكل درب يهتدي إليه الأمير من أجل مبادئه فهو جائز فالغاية شريفة كونها تسمو إلى تحقيق الوحدة المنشودة، فالضعف لا يرتفع إلا بالقوة، والقهر لابد إذا بمقابلة بمثله لا بالتسامح الأعمى الذي روجت له الديانة المسحية، فغاية الأمير القوة وبسط السلطان، وله ذلك إذ لم يتقيد بالفضيلة التي يتبعها الضعفاء ، فيجب أن يستخدم الخير والترهيب.

فالحرب صناعة الحاكم الأولى، لإعادة الوحدة الإيطالية، وإن قوية شوكة الأمير وجبت طاعته، وهذا ما نشهده مع بواكير الجمهورية الرومانية في بداية تأسيسها على إقدام الشباب مع روملوس ورمسيس فحققت بذلك العالمية وسقوطها كان نتيجة التسامح المسيحي وإعادة بنائها أرادها ميكيافلي بالقوة لا بالتصورات الفاضلة مثلما هو الأمر عليه مع أوغسطين " فنجد الأمل في إعادة الجمهورية القديمة كأفضل نماذج التاريخ الروماني وهذا يكون بالحكمة والفضيلة، التي بها يجب أن يتظاهر الأمير على مواطنيه حتى يصل إلى الفضيلة" [230]

ومثل هذه العودة تكون بحذر الأمير، فانطلاقة ميكيافلي صورتها الإمبراطورية الرومانية، بينما انطلاقة أوغسطين صورتها المدينة السماوية، وروما الإمبراطورية هي مدينة أرضية عرضة للمهالك، بينما يعمل ميكيافليي على تجاوز قيم التسامح التي تجلب الضعف فقد جعل منها القديس أوغسطين المطلب الجوهري، خصوصا وأن المجتمع عنده مؤسس على الإيمان ،وعلى الاشتراك في طبيعة المحبة ،وأعطى الأولوية للسلطة الدينية، وكانت هذه ذريعة كافية لظهور طغيان أشد وقرا يشهد مشروعيته من الجانب الديني الروحي، أو ما يعرف بالتيولوجيا.

[230] Krieglem Blandine, textes de philosophie politique classique, (France : dépôt légal fredonner 1993), p04.

التي سارت عليها العصور الوسطي، وهذا طغيان بصورة غير مباشرة، أما الوجه العلني يورده ميكيافليي وبكل واقعية " فيكتب عن آليات الحكومة وعن الوسائل التي تجعلها قوية، وعن السياسات التي يمكن أن تضخم قواها".[231]

وضمان الحضارة وصيرورتها ليس تفكيرا بالتمني بالقدر ما هو مرهون بالواقع ذاته، هذا الواقع الذي يملي على الأمير أن يتلون كالحرباء ،ويعاشر مختلف الأصناف مادام الأمر يتطلب ذلك، ولا يصنف المدينة قسمة بين قوى الخير والشر قوى الخير والشر مثلما فعل أوغسطين، بل الأمير يعايش هذا ويكيد لذلك قصد بسط النفوذ التام، مستعدا للحرب بدل القابلية للخضوع مقابل التسامح الأخروي: "وهذه المبادئ جعلت الناس عاجزين وأوقعتهم فريسة سهلة لذوي العقول الشريرة، إذ يرون بأنه في سبيل الظفر بالحياة يكون الناس أميل إلى تحمل الإساءات منهم إلى الثأر"[232] فعلى الحاكم الذي يدير زمام الرعية أن يقوى ساعده للمواجهة، وعليه الضرب بشدة حتى يعجز القطيع عن الرد، فالشعوب تخضع بالقهر.

وكل ما يلحقه الأمير من القسوة والمكر وإن اعتبره البعض ضربا من العدوان والترهيب، لكن في الواقع هو عكس ذلك، فإن دقت نواقيس الخطر فالوقت ليس مناسب للأخلاق وللتسامح وللخيال بل الأمر يتطلب المكابدة بالتضحيات لا بالزهد والتعفف المسيحي الذي يلحق عار الضعف، والتاريخ يلزم سلخ الأخلاق عن السياسة، وهذه الأفكار لها من القرب إلى الواقع ما يجعلها آنية قابلة للتجسيد على غرار اليوتوبيا التي تنظر المخلص ليرفع عنها الشرور، فالدولة طبيعة بعيدة عن الأخلاق خصوصا في حالة الشتات والانقسام ،وثمن الوصول إلى الشمولية وإلى مستوى الدولة العالمية بوزن الذهبي، ولا المدينة الفاضلة، ولا أرض الميعاد، يعتبر تجاوز الانحطاط.

إذ أنه يزيد الهزيمة بعدا عن المكان إلى الطموح إلى مدن لا مكانية، بل المعالجة واقعية تتطلب القهر والترويض والتدجين، فلا خيار أمام الفرد الذي عليه مطلق الخضوع، ولا أمام الأمير الذي هو ملزم ومقيد بالتنفيذ ،ولو كان ميكيافلي زمان مجد روها لكتب في الأخلاق والفضيلة، لكنه عاش زمان ضعف إيطاليا فشخص الداء وبحث له عن الدواء

---

[231]- قربان ملحم، قضايا الفكر السياسي: القوة ، (د ط؛ لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1982)، ص 222.

[232]- سباين جورج، تطور الفكر السياسي، ص 477.

المبرر للطغيان، المباشر دونما تخفي وراء النص الديني والعمل بالتيولوجيا ، مقابل بث التسامح والخلاص أواسط ضعاف الرعية ممن أرهقهم الواقع فوجهوا عقولهم صوب السماء طمعا في الخلاص، لذلك ضرب ميكيافليي بشدة الأخلاق المسيحية، ودعا إلى تسليط القهر على الرعية، "فهناك قاعدة عامة بالنسبة للشعوب، إنهم ينتقمون من ظالمهم إذا كانت الأضرار التي لحقت بهم عن الظلم تافهة، وهم يعجزون عن الانتقام لأنفسهم ممن يلحق بهم أكبر الظلم وأشد الضرر، فخير وسيلة للحاكم هو أن يصيب أكبر قدر من الظلم حتى يعجز الشعب عن الانتقام"[233].

فالقسوة ضرورية، وإخضاع الرعية أمر يتطلب مثل هذا، والتجارب التاريخية تجسد هذا، من أجل تأسيس مفهوم الدولة على مشروعية الطغيان دونها أيديولوجيات بل وبذلك صورة مباشرة تستمد مشروعيتها من الطبع الإنساني الذي عليه التحلي بمكر الثعلب ودهاء وقوة الأسد.

فيذكر ميكيافليي ، في الفصل الرابع عشر من مؤلفه الأمير قائلا:" يجب على الأمير أن لا يهتم بشيء ولا فكر غير الحرب، والتحضير لها، فذلك هو الفن الوحيد يليق بمن يحكم، وفي هذا الفن من الفضل ما يعمل ليس على المحافظة على عرش الأمير ولي العهد فحسب، بل يرقي دوما بأناس بعطاء إلى صف الأمراء" [234]

فالحرب الميكيافلية واقعية تفصل اليوم بالقوة بدل انتظار الغد بالتمني ولو كانت على حساب الأخلاق، وتزيح وتتجاوز كل القيم حتى الجانب الديني، بينما حرب أوغسطين تعد الرعية بالخلاص وبالتسامح، وتأمرهم بالصبر،وعدم الخروج عن طاعة الكنيسة، وتعلقهم بانتظار المخلص ليفصل بين المدينتين ، وهذا ما حول مؤلف مدينة الإله إلى مقاصد استخدمت لبسط سلطان الإمبراطور، والكنيسة ظل الله على الأرض، وعموما بين تجاوز ما هو كائن من الضعف نجد من يقابله بالمثالية والانتظار، ونجد من يدق ناقوس الخطر ويواجه الواقع بالقوة، وهذا ما كان مع ميكيافليي وغيره.

حيث شدد ميكيافليي على ضرورة القهر، وفصل الأخلاق عن السياسة، فالوقت ليس مناسب لبث الفضائل ،فالحضارة عندما تعرف طور التدهور والتلاشي فالقيم وبث الكلمات لا

---

[233]- صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص 97.
[234]- ميكيافليي، الأمير، تر محمد البار ، ص 77.

نفع لها أبدا، بل الأرجح إيجاد الوسيلة الكفيلة لبناء مجد لدولة ولو على حساب الأخلاق " فلا شك إذا بأن ميكيافليي كان في صورته هذا متأثرا ببيئته وبما عانت منه إيطاليا التي انقسمت إلى دويلات وإلى إمارات صغيرة.. وكان في ذات الوقت متأثرا بتاريخ الرومان"[235].

فتاريخ الرومان بلغ العالمية بقوة الإمبراطورية ، لا بالبحث عن المخلص، أما ذيوع الأخلاق المسيحية فقد بث معه بذور الضعف ورفع أنظار العامة إلى السماء بدل من مواجهة الواقع، فالدولة يجب أن تبسط نفوذها على الفرد وهذا " لكي تحسن الهيمنة عليهم، فتتوزع منهم قواهم الاجتماعية وتجردهم من حقوقهم..إذ يعتبر الفرد هو الكائن الحقيقي، القادر على الخضوع للقانون" [236]

فالخضوع للقانون الزمني أمر لا مفر منه وإن تطلب الردع والقهر، وعن هذا التصور نشأة الميكيافلية في السياسة بطغيان مباشر هم الأمير الوحيد الحفاظ على السلطة بكل وسيلة، مثلما نجم عن تقديم السلطة الدينية في العصور الوسطى، واعتبار الحكام من تفويض إلهي فلا يجوز الخروج عنهم ولا يجوز للأفراد شق عصا الطاعة فكان منطق القوة عند ميكيافلي نقد جلي وواضح للتصورات الطوباوية والمدينة الفاضلة بالعودة إلى مدينة الإنسان التي وزنها ليس من طبيعة حبها حسب أوغسطين وإنما هو من قوتها المادية وتخليها عن الخيال والأمل.

2- نقد توماس هوبز للطوباوية:

التجديد وتأسيس المدن والحضارات بصورة متكاملة لا يتسرب إليها الهزال، وفي قيمها لا نجد الريبة ذاك هو المطلب الجوهري من وراء الخوض في الفكر السياسي، وما دامت المدن والدول والإمبراطوريات تقطع أشواط في تقدمها، فعندما يلحق بها طور التراجع، وهذا ليس بالحتمية، فجوهر النظام لابد وأن تعترضه نقائص، من هنا يكون تجاوز الوضع قصد بناء وتأسيس دولة، فمآل روما الذي كان حرق همجي على يد قبائل همجية حرك فكر أوغسطين للدفاع عن سقوط روما.

---

[235]- القمودي سالم، سيكولوجية السلطة، (د ط؛ الجزائر: مؤسسة الانتشار العربي، 2000)، ص 19.

[236] خضر خنافردولة، في الطغيان والاستبداد والديكتاتورية، (ط 1؛ دون بلد النشر: دار المنتخب العربي، 1995)، ص 253.

فشرح أوغسطين نسق مدينة الإله على نحلة المدن الفاضلة التي تعد أهلها بأرض الميعاد، والعصر الذهبي، والحياة الأبدية وتؤمن لهم السعادة، حتى وإن كان هذا على حساب المكان أو بعبارة أخرى في صور مفارقة في مدن لا مكانية وجودها في ذهن صاحبها كونها تصور لنا أناس معقمون من كل داء، وأرض متحررة من الفناء، ومجتمع تغيب فيه الشرور والنزاعات مقابل تامين التسامح والعدالة والحكمة، ولكن هل نتجاوز الكائن بما ينبغي أن يكون؟ وهل نكلف العقل عناء البحث عن مدينة مخيالية تحرره من التدهور؟ وهل المدينة الإلهية التي هي عصارة بحث فلسفي، تاريخي، ديني وزمن محرج من حالة الإمبراطورية الرومانية التي قيل أن كل الطرق تؤدي إليها توفر الحل وتعيد بناء نموذج الإمبراطورية في نهاية التاريخ؟

ذاك هو ما ترفضه النظرة الواقعية وتعالج الوضع وتتجاوز الانحطاط بالقوة بدل الانهماك في البحث عن أرض الميعاد، لذلك ففكرة اليوتوبيا تجرنا إلى الاصطدام مع قوة الواقع، فالتلاشي إذ أنزل بدولة لا يرفعه التمني فكان منطق القهر مع ميكيافليي مثلما وضع جيدا توماس هوبز بان الأعضاء المصابة بالداء فالبتر هو العلاج الوحيد لها وبكل واقعية يجعل توماس هوبز القوة لمواجهة خطر الشر والضعف الذي يحيط دوما بالإنسان، فالشر الذي يخشاه الجميع كما يذ1كر <u>هوبز</u> في مؤلفه <u>التنين</u> "هو الخوف والخطر المستمر من الموت العنيف فحياة الإنسان لا تعدو إلا أن تكون حياة عزلة وعناء أشبه بالحياة البهيمة"[237].

ومن ثمة هذه الحياة قصيرة والبقاء فيها يكلف التضحية والقهر، ومواجهة الواقع بكل حيلة وإن خصوصا وأن الحرب تنجم عنها الأضرار والخراب الذي ينتزع الطبع الإنساني ويعطيه طبعا بهيمي يتماشى وفق سلطان الغريزة وعليه ففكرة اليوتيوبيا بحد ذاتها هي اتهام للعقل ولابد أن تزول فهوبز يعكر هدوء هذه المدن الفاضلة بالقوة والقهر حتى ينتصر الإنسان على الخيال ، ويعيد المجد لمكانة السليم جاعلا بذلك بناء وتأسيس الدولة، لابد بأن يسقط من المثال والمخيال إلى الميدان والواقع ويبعد الفرد عنه طيف الحيز الروحي ويستبدله بالمجال المادي، حيث ذكر أوغسطين بأن :" السلطة لابد أن تكون دينية أو لا تكون ، وأن

---

[237] - Hobbes Thomas, <u>le Léviathan</u>, trad. François Tricaud, (siry , 1971) ,p124.

الذين لا ينتمون إلى المدينة الإلهية سيكون لهم الشقاء الأبدي، وكما يقول الكتاب المقدس الموت الثاني إذ أنه لن يكون هناك حياة للنفس التي تصبح غريبة عن حياة الله، ولا حياة للجسد الذي يسلم إلى الغايات الأبدية وتزداد قساوة هذا الموت الثاني"[238] فشدد أوغسطين على ضرورة الإيمان الروحي بالقدر الذي يجعل القمة في السلطة هي من تفويض إلهي تنوب فيها الكنيسة عن شؤون البشر إلى أجل نزول المسيح الذي يفصل في الصراع بين المدينتين، أما نظرية هوبز تواجه المثالية بالواقعية، والتسامح بالقهر والعدوان لضمان وتأمين البقاء في هذه الحياة القصيرة " فالروحية عند هوبز مجرد شبح أي هي من وحي الخيال، هو لا ينكر وجود شيء مثل الوحي أو الحقائق الروحية، ولكنه صريح واضح في أنه لاشيء يقال بشأنها" [239].

فتحليل هوبز للقوة مادي، لا يبحث من خلاله عن اللامكان أو الدولة المخيالية، التي ترهق الفكر وتفسر التدهور وتعد بإيجاد الحلول و لكن تعرض عن مواجهة الواقع، وعليه فانقسام والهزال الذي يلحق بالدول والإمبراطوريات نابع عن الطبع العدواني في الإنسان الذي يسير وفق منطق الأنانية، فتقود الكل في صراع صد الكل، لذلك وجب بناء تعاقد بين الأفراد، وهذا لحماية حقوقهم، والتنازل يكون للأقوى قصد حفظ البقاء وصيانة الحرية، وقصد تجاوز العداء الإنساني خصوصا وإننا نجد، " كل إنسان في صراع ضد إنسان آخر، وكل إنسان عدو لإنسان آخر"[240]. فحالة الحرب لا تعرف التوقف وعلاجها هو نفسه سبيل بناء الدول يكون بقوة، والتجبر قيد الحاكم تجمع وتمنع الأفراد.

فالأفراد يحييون بحسب الغريزة والأنانية وهذا أمر ينذر بوجود الفوضى، والقلق والصراعات التي تهز استقرار المجتمع وتزعزع قيمه، ويسطو الأقوياء أصحاب الغلبة، لذلك ومن اجل حماية حقوق الأفراد من العدوان وبهيمية السلوك يتنازل أفراد المجتمع لصالح الأقوى، ويوكلون أمورهم إليه، وهذا من اجل ضمان البقاء وتأمين الحريات، فالقهر ضروري لقمع العدوان البشري وهو الناموس الذي يسوس الأفراد ففي الحالة الفطرة نشا العقد الاجتماعي كما يذكر هوبز، وهذا كما سلف ذكره تبعا للطبع الإنساني الأناني، وكل

---

[238]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب السادس عشر، ص 166.
[239]- سباين جورج، تطور الفكر السياسي- الكتاب الثالث، ص 640.
[240]- أحمد عبد الكريم، بحوث في تاريخ النظرية السياسية،(د ط؛ الكويت: قسم البحوث والدراسات العربية، 1972)، ص 102.

هذه العهود نؤمن بقائها بالقهر والتجبر فكما يذكر هوبز في مؤلفة التنين قائلا:" بمعزل عن السيف ليست العهود سوى مجرد ألفاظ وكلمات، لا تملك القوة عل تأمين الاستقرار، وضمان الأمن للأفراد نهائيا"[241] .

فرفع الضعف عن الدول والحد من الأنانية لم يشخص له توماس هوبز العلاج في المدينة الفاضلة المتعالية عن الواقع، والتي هي من قبيل السلوك السحري الذي يفر من تدني الأوضاع على مختلف المستويات مثل ما ذهب إليه التصور الفاضل اليوتوبي لمدينة الإله، فعالج الأنانية بالتعفف والدعوة إلى محبة الله للظفر بالحياة الأبدية يوم دنيوية الله العادلة، مثلها عالج أوغسطين سقوط روما بالصورة الروحية جاعلا من الإمبراطورية مدينة أرضية فقط أم رمز الخلود أورشليم المقدسة التي ترعاها عناية الإله.

والجهد الذي بذله أوغسطين في سن بنود المدينة الفاضلة، لو توجه به إلى الواقع لكان الإقدام أفضل ، فالتسامح والعفو يولدان المسكنة والجبن، فلابد إذا من منطق السيف الذي يفصل الأنانية عن الذات فالردع أفضل، والحاكم أفضل من المحنك السياسي المثالي البعيد كل البعد عن أرض الواقع.

وعلى الرغم من تباعد كل من هوبز وأوغسطين إلا أن الفضاء الفلسفي يقودنا إلى المقاربة بينهما خصوصا فكرة تجاوزهما لما هو كائن الذي يأخذنا أمام منحيين، أما المنحى الأول مثالي فاضل يؤمن بالخلاص الروحي ويدعوا إل الزهد والتقشف لبسط الفضيلة وساد مع القديس أوغسطين.

والمنحى الثاني عبر عنه وبكل واقعية سأمت حالات الانقسام في الدول والضعف السياسي جسده هوبز الذي يؤمن بالخلاص المادي ويدعوا إلى القوة والتقاعد لصالح الأقوى الذي يقمع تطاول الأنانية عنه الأفراد وهذا ما يحتويه مؤلف التنين لصاحبه هوبز بين طياته، مواجها بذلك حالات انقسام الدول والعدوانية بين الأفراد أو التنين الذي يتكون من أجساد الكل ليصبح قوة جامعة مانعة لتطاول الطبع الأناني الراغب عند الأفراد، كما ينفر من الأحلام المخيالية التي تعرض عن تغير الواقع وتبحر بصاحبها في عالم المثل، لذلك نقد هوبز الأنساق الطوباوية بنظرة واقعية روحها مستمدة من مشروعية الطغيان أو ما يعرف

---

[241] - Hobbes Thomas , le Léviathan , ch 13, p 124.

بسياسة الحديد والدم لا سياسة البحث عن أرض الميعاد فيوضح هذا بقوله:" ليس هناك مجتمع أمثل يتوق إليه الإنسان، ولكن فيما يخص الغاية النهائية التي من خلالها يتصور الفلاسفة القدامى السعادة وقد تحدثوا عن الوسائل والموضوعات الكفيلة بإيصال الناس إلى ذلك وليس هناك في العالم شيء يشبه هذه التصورات، كما أنه ليس هناك وسائل الوصول إلى اليوتوبيا"[242]

فوسائل البحث عن إنسان متكامل في مكان تطيب فيه الحياة قد يكون هذا من الأوهام التي تكدس التفكير دون جدوى، وهذا ما نلاحظه مع جمهورية أفلاطون الفاضلة ومدينة الإله عند القديس أوغسطين ويوتوبيا "توماس مور" وغيره...

فيفضل هوبز مواجهة الواقع للوصول إلى الفضيلة بعد مواجهة طبع الناس الميال إلى الذئاب وهذا باستخدام قوة السلطة لا قوة الخيال أو إرجاء الإصلاح إلى غاية دينية والرضوخ مقابل هذا على السيطرة، فالسيطرة والطغيان لصالح الأقوى أمر لا مفر منه مثلما هي المدن اللامكانية التي أطلق عليها توماس مور اسم يوتوبيا هي مجرد حلم لا ينتهي أبدا بل يتخذ طابع معياري يهمش الكائن على حساب التأمل في ما ينبغي أن يكون والقوة هي البديل الأفضل لليوتوبيا .

3- نقد باروخ اسبينوزا للطوباوية:

لنلتفت إلى تنظيم شؤوننا على الأرض، عبارة وإن لم نبالغ في القول هي جوهر ما ننوي توضيحه من خلال الخطاب السياسي الذي تبناه إسبينوزا الذي جعل سلطة العقل والفلسفة لا تعلوها سلطة موضحا بان لا سلطة سوى سلطة العقل، هو إذا المخلص وليس رهن الأيدي إلى السماء بالعودة إلى أساطير المدن الفاضلة وأرض الميعاد والدعوة إلى الحقوق والطبيعية.

وهذا يستدعي انتظار المخلص وإتباع الوسيط بين الله و البشر الذي تجلى في الكنيسة المسيحية التي ترعى شؤون البشر خصوصا بعدما اهتم أوغسطين بالأمر من خلال توضيح النزاع القائم بين مدينو السماء ومدينة الأرض أين تتفوق مدينة الإله المجيدة الخالدة على مدينة الجسد وموطن الشهوة وعالم الشيطان، هذا ما قابله اسبينوزا بالرفض حين اعتبر أن:"

---

242 - Thomas Hobbes, <u>les éléments du droit naturelle et politique,</u> introduction , tra : par Louis Roux, (Lyon : l'hermès), p 158.

المسحية دعوة إلى الروح والسلام والتضحية تتحول إلى مجتمع تسوده المظهرية والتعصب والكراهية"[243]

وهاته الكراهية تجلت فيما ينعته البعض بالأوغطسينية السياسة أين تحولت اليوتوبيا والمدينة الفاضلة الإلهية إلى السم داخل العسل فالعدالة والمحبة استغلت لتبرير تعسف الكنيسة، فرفض إسبنوزا الخرافة والرضوخ الأعمى فيذكر في مؤلفه رسالة في اللاهوت والسياسة قائلا: "لو استطاع الناس تنظيم شؤون حياتهم وفقا لخطة مرسومة أو كان الخط مواتيا لهم على الدوام لما وقعوا فريسة للخرافة ولكننا كثيرا ما نراهم وقد وقعوا في مأزق يبلغ من الحرج حدا لا يستطيعون الخلاص منه" [244].

وسبيل الخلاص هو تبني نهج القوة والواقعية للتطهير من الشر والأنانية وتجاوز التدهور والانحطاط ،فهو ليس أمر ميتافيزيقي يحرر الفضيلة من طغيان الرذائل بل الأمر يتطلب الردع وهذا للصالح العام ومن أجل السلامة المشتركة بين الأفراد، وهنا يسير إسنيبوزا في طرحه على سنة القدامى من ميكيافليي وتوماس هوبز.

فالدولة إذا يجب أن تكون قوية أو تعمل من أجل التحرر لا تأمل في الخلاص وفي البحث عن نهاية سعيدة تفيض منها القيم دون تحريك ساكن لذلك الأمر يتطلب صد حقيقة النفس البشرية."فإذا كانت الطبيعة البشرية مهيأة لأن يرغب الناس أكثر في ما هو قيما هو لا أكثر نفعا فلن تكون هناك حاجة لأي فن للحفاظ على التوافق والاستقامة بيد أنه من الأكيد أن الطبيعة البشرية مكونة بشكل آخر تماما يجب إذا بالضرورة إقامة الدول بحيث يقوم الجميع الحاكمون والمحكمون سواء أرادوا أم لا يعملوا ما يهمهم جميعا" [245]

وحفظ المجتمع مطلب جوهري يسعى كل واحد إلى تجسيده لبلوغ السعادة، لكن ليس بالإرجاء والتأخير ولا التمني بل بالإقدام حتى ولو تطلب الأمر المحايدة والقهر، فعندما يشفى داء الإنسان ويستطيع إمداده بالسعادة والغبطة ليس بالدين، ولا بالأخلاق ، إذ لا يمكن

---

[243]- أسبنوزا، رسالة في اللاهوت والسياسية، ترجمة:حسن حنفي مراجعة فؤاد زكريا، (ط 1؛ القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية،1981)، ص 18.

[244]- المرجع نفسه ، ص 18.

[245] - باليبار إتيان ، اسينوزا والسياسة، تر: منصور القاضي، (ط 1؛ بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1993)، ص 76.

تحصيل الخلاص" والفرج الحقيقي والحرية وخلود النفس، إلا عن طريق الفلسفة فالإيمان طريق مخصص بالجاهلين وهو ناقص، والفلسفة تأمل وتفكير له طبيعة خلاصية"[246]

وإذا كان التعقل عند أوغسطين يسبقه الإيمان، فهو عند اسبينوزا الأولى، وهذا من أجل التحرر واختراق القول بالحقوق الطبيعية وبالتوظيف الديني للسياسة، لذلك نجد "فكر اسبينوزا يخترق الحق الطبيعي لينكر أساسه بين النزعة الفردية والعقد وبإنكاره من حيث المبدأ كل إمكانية لضبط السوق بين البشر، إنه الرفض لكل الارتهان من المفهوم الرجعي إلى الفكرة الطوباوية... على أن المجتمع ممكن أن ينظم ويحتفظ وذاك هو موضوع الفكر السياسي المهيمن الذي لم يتوصل أبدا للفصل بين تشكيل المجتمع وتحديد تسلسله بين بناء الشرعية واستغلائها المعياري هذا الالتحام التام للمادية لا نجده إلا عند ميكيافيلي"[247]

فالتصورات الطوباوية هي إعلان بموت الفلسفة السياسية، وهدر للوقت والجهد الذي يأمل في إيجاد ما ينبغي أن يكون وهذا على حساب تهميش الكائن الأمر الذي يسقطنا في المعيارية والقيمية.

أما التحرر الحقيقي والسياسي للفرد وللمجتمع هو بالفلسفة لا بالدين، الذي ينتهي بحالة من التصوف فإن كان مواطن المدينة الأوغسطينية كاملا بالتعفف وناشئ على محبة الإله، فإنه يؤول إلى حتمية الزهد فيكف له أن يحدث التكامل في عالم الآخر السوسيولوجي؟ لذلك يجب مقابلة الطوباوية بالنظرة الواقعية وإن تطلب الأمر القوة مثلما تقابل بالعقل استبداد الدين والنقل لتجاوز مشروعية الاستبداد المتخفية وراء الستار الديني.

ولتجاوز مشروعية الاستبداد المتخفية وراء الخطاب الديني هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تجدر الإشارة إلى التهجم الصريح الذي وجهه اسبينوزا للأنساق الطوباوية التي تصور لنا كائن أخلاقي متعالي عن كل دنس وهذا التصور مفارق للطبيعة البشرية، إضافة إلى موطن هذا الكائن المثالي البعيد كل البعد عن حيز الزمكان" والنتيجة من وراء هذا هي

---

[246]- هارون جوديت، حب الإله في فلسفة اسبينوزا، تر: خليل أحمد خليل، مراجعة معيد أبو مراد، (ط 1؛ بيروت: دار الفكر اللبناني ، 1998)، ص 131.
[247]- المرجع نفسه،ص131.

تصور طبيعة بشرية غير ذلك الموجودة،رغم أن هذه الطبيعية وهيمة فقد عدها هؤلاء الفلاسفة حقيقية بحجة أنها تتفق ونسقهم الفلسفي "[248]

وهذه مهمة تهيج العواطف وتحول دون السعي الحثيث لتحصيل الحقيقة قصد تغير الواقع لا تفسيره بطرق شتى في مدن لا وجود لها إلى في وجدان صاحبها، "وجاءت أيضا نظرياتهم السياسي تتصف بنوع من الخيال الذي جعلها غير قابلة للتطبيق والتجسيد إطلاقا ولا تصلح إلا للبلدان الطوباوية ن في عصر هي، أي في مكان وزمان حيث لا توجد هناك حاجة إليها"[249].

فواقع الطوبي مفارق للواقع وما بني عليه إذا إسقاطها يصور لنا مجتمع من نوع خاص كل فرد فيه فاضل وهذا لا يتناسب مع الطموح النظري وميدان الأحلام والنظرة الواقعية، للإبداع الفلسفي الذي يعالج الكائن من الظرف السياسي، قصد فهم الحقيقة، وطبيعتها بصبغة واقعية تتحرر من المثالية المطلقة.

---

[248] Baruch Spinoza, <u>Tartie de l'autorité politique</u>, tra : notes de François, préface de Robert Misrhi : (France : Gallimard, 1978), ch 01, p88.

[249]- قايدي علي، رسالة ماجستير لم تنشر، موقع الحالة الطبيعة بالنسبة للحالة السياسية عند اسبينوزا، الجزائر، 1999، 2000.

المبحث الرابع: بناء وتصور المدينة بين الواقع والمثال

تأسيس الدول، والبحث عن استقرارها بالشروط التي تحقق دوام المجد والسلطة من المتطلبات الجوهرية في ميدان الفلسفة السياسية، وقد لا تكتمل شروط قيام الدولة أو تؤول الدول الإمبراطوريات إلى الفساد، وهنا يكون الفيلسوف والمفكر إبن عصره أمام تصدى لما هو كائن، وبحث فيما ينبغي أن يكون، فكانت هي مدينة الإله عند القديس أوغسطين بحث لتجاوز واقع سقوط الإمبراطورية الرومانية.

وتبريرا كافيا لجعلها مدينة أرضية معرضة للفساد لاسيما بعد تدنس الملل داخلها، فقد انفلتت الواقعية من أوغسطين ومال إلى المثالية من خلال بحثه عن الإنسان الفاضل الكامل ساكن المدينة السماوية، وكيف يجب أن يكون وهنا تطغى القيمية والمعيارية، وبالتالي يبحث القديس أوغسطين عن فرد مثالي في أرض لا مكانية، وقد يجرنا هذا الموقف إلى التساؤل هل الخطاب اليوتوبي هو بحث عن سبل إعادة بناء الحضارة أو هو الثورة على الواقع؟ مثلما جسده أفلاطون من وراء الجمهورية حيث رفض تطاول الدهماء من السفسطائين من ميدان الخطابة إلى السياسة، أم كما هو حال مع الفارابي الذي يحاول تبرير مبدأ الإمامة، أم الحال مع أوغسطين الذي لو لم تشهد روما التلاشي وطور الأفول ما كلف نفسه عناء كتابة مدينة الإله، إذ كانت اليوتوبيا كذلك فهي تنوي تجسيد الواقعية بالعين ذاتها.

أم هل هذه اليوتوبيا ضرب من الترفيه بحثا عن مجتمع خيالي وجوده فقط في ذهن صاحبه وهذا أمر خطير يؤدي إلى جهد مبتذل لو وجهناه إلى الواقع لكان الإقدام، وإن كانت اليوتوبيا بحث لا مكاني، فالحق إذا لصالح الوضعيون إذ أعلنوا موت الفلسفة السياسية التي تبعد عن الواقع المعاش والكائن.

ومن انتقادات اليوتوبيا ووصفها بالمخادعة تنتقل إلى تجديدها في الخطاب السياسي المعاصر الذي بشر بالسلام العالمي، والعدالة بين البشر، إضافة إلى الفكرة الدينية التي تعد الناس بالخلاص وفي إنتظاره زمن تطيب الحياة فيه للمجمع يرضى الرعية بالذل والهوان، ويقبلون التسلط ويعملون بزهد دنيوي، وهنا تنحوا اليوتوبيا نحو مقاصد دينية قد تتحول إلى تيولوجية أكثر طغيان وتجبر، من هنا جاز لنا التساؤل هل نموذج المدينة الإلهية عند القديس أوغسطين وغيره من تخفي من ورائها واقعية؟ أم هي عناء الفكر الذي أبحر في الخيال؟

وهل اليوتوبيا حالة جوهرية أم عرضية في الفلسفة السياسية ؟ وهذا ما نجيب عنه في المطالب التالية:

1- مدينة الإله في بعدها الواقعي:

واقع التطور الذي بلغ العالمية في ظرف وجيز لم يجعل أحد يفكر بأنه يوما ما ستزول هذه القوة وتتعرض للتدمير بعدما كانت هي المستعمرة لغالبية أنحاء المعمورة، وهنا يواجه القديس أوغسطين الأمر مفسرا بكل موضوعية أسباب السقوط من المستوى الاقتصادي، فالتوسيع الهائل أدى إلى فقدان السيطرة، أو من الحيز الديني الذي جعل روما الإمبراطورية مدينة أرضية ومعروف أن كل ماله صلة بالعالم الأرضي فهو مستقر الشيطان والشهوات والأوثان والأوهام التي تحجب نور الحقيقة لذلك الكمال هو في المدينة السماوية أو موطن ما قبل الخطيئة، وأيضا يضيف القديس موضحا ضعف النواميس البشرية الزمنية مبنيا بأن لا سلطة إلا من عند الله

وفي هذه الواقعية الأوغسطية فهو طبعا إبن عصره أوجد المشروع البديل لتغير الظرف الراهن، وهذا محرك للبحث السياسي إذ اللاحق دوما يتجاوز أو ينقد أو يعيد بناء السابق، فالسابق عند الرومان كما يذكر القديس أوغسطين في الكتاب الأول من مدينة الإله قائلا: "ألا يخرج من مدينة الأرض هذه أولئك الأعداء الذين يجب أن نحمي مدينة الله منهم؟ بعضهم من تراجع عن كفره وضلاله ودخلها موطنا على جانب الأمانة، وكم من أحقاد متوقدة وقلوب انغلقت على ذاتها... إن الذين يناصبون العداء لاسم المسيح، أليسوا أولئك الرومانيين الذين نجوا من ظلم البرابرة باسم المسيح؟ "[250]

فسعى أوغسطين لتجاوز هذا الوضع الذي لم يجد من ذريعة لتبرير سقوط الإمبراطورية سوى إتهام المسيحية، ونسب الشرور للمسيح، وعودتهم إلى تقديس الأوثان التي عجزت عن حماية المدينة.

أما اللاحق الذي به تجاوز القديس أوغسطين الوضع، هو جعله روما في مصافها الحقيقي من التاريخ ليبين عدم خلودها، ويوضع المعالم الكبرى للخلود والنصر داخل المدينة السماوية المقدسة الخالدة الأبدية التي تعيد العدل فيقول:" إن مدينة الله المجيدة سواء كانت

[250]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، ، الكتاب الأول، ص ص 09- 10.

تتابع حجتها وتعيش إيمانها بين الأمم، أم استقرت في الأبدية التي تتوق إليها بصبر حتى يعود القضاء إلى العدل، والذي ستظفر به أخيرا هذه المدينة بسلام تام"[251] فالمشروع البديل إذا هو المدينة السماوية المتأهبة بسلاح الإيمان الذي تغذيه محبة الله لنزع الشرور من مجتمع المدينة الأرضية أسيرة شهوة التسلط والحسد فالمدينة الإلهية كما يصورها القديس أوغسطين هي المشروع البديل للدولة الرومانية التي هي دولة وإمبراطورية أرضية فانية مثل الإمبراطورية الأشورية، إذ كل هذه المدينة وبكل واقعية ذاقت مرارة الهزيمة، وهي ليست تفكير خيالي أو ترفيهي يبحث عن مدينة لا وجود لها ولا لأهلها جل الوثنيون ممن اعتبروا المسيحية سبب اللعنة والتدهور.

إذ يذكر قائلا في الرد على هذه التهم وهو سبب واقعي لسن بنود المدينة الإلهية: "فعلى هذا النحو فإن الدمار والفشل والنهب والحرق والبؤس وكل ما أرتكب من فضائح في كارثة روما الأخيرة فهو ما تسببت به الحرب إنما الغريب فيها والجديد هو ذاك التحول من شراسة لدى البرابرة إلى شفقة تختار للجماهير الكنائس الأرحب والأوسع لتكون لهم ملجأ يأوون إليه ويكونون في مأمن من الخطف والضرب". [252]

فالهجوم على روما دمر كل الأوثان واحتمى الأفراد بالكنائس التي وسعتهم مثلما تسعهم مدينة المحبة الإلهية التي تسود في النهاية، وهذا فقط ابتلاء للرعية إذ كل واحد في مدينة والتسمية مجازية فكل مواطن يعيش عل طبيعة الحب إذا احتقر الله عُد من أهل المدينة الشيطانية وإذ قدم محبة الله هو من أبرار أهل المدينة السماوية وكل له مصيره إذ يقول أوغسطين في الكتاب الأول من مدينة الإله: "إن الله بصيره يدعوا الأبرار إلى التوبة كما أن التجارب ضربات تمرن الصالحين على العبر وكما أن رحمة الله تغمر الصالحين ... وشاءت العناية الإلهية أن تعد للأبرار في المستقبل خيرات لن يتمتع بها الأشرار ولهؤلاء ويلات لن يذوقها الأبرار" [253].

فيعالج القديس أوغسطين حقيقة المدينة ومسيرة التاريخ في صورتها اللاهوتية إذ لكل مدينة كل ما تستحقه وهذا تماشيا مع حرية الإرادة التي تنحاز أما لمحبة الذات أو لله، ويربط هذا

---

[251]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الأول، ص 09.
[252]- المصدر نفسه، ص 17.
[253]- المصدر نفسه، ص 18.

مباشرة بمفهوم العدالة فيذكر قائلا في الكتاب التسع عشر من مدينة الإله: "مدينة الكفرة لا تعرف العدالة الحقيقة"[254] بل أكثر من هذا فهي لا تعرف الأمن والأمان وداخلها نجد النزاعات والحروب وتطاول الأفراد على بعضهم البعض.

واعتبر أوغسطين الأخلاق ضرورية للدولة وهي مصدر للاستقرار وغيابها فيه حضور للشياطين والشهوات التي تحجب الرشد عن الأفراد ونفى أن يكون الله هو سبب الشرور واعتبر الفضيلة هي الركيزة في تأسيس الدولة الروحية حيث "اعتمد باباوات الكنيسة الكاثوليكية في روما على نظريات كتاب مدينة الإله في تنمية سلطتهم تدريجيا فنجحت أولا في الاستقلال عن سلطة الإمبراطور في الشؤون الدينية فأصبحت دولة داخل دولة"[255].

ومن هنا حقيقة المدينة الإلهية ليس ترفيها عن النفس أو بحثا مثاليا متعاليا أو تفكير مجرد كما هو الأمر عليه عند توماس مور، بل وراء الخطاب الأوغسطيني تبرير واقعي ومحاولة لربط مسيرة الحضارة بالتاريخ وبالجانب الاجتماعي والديني والاقتصادي، إذ يوضح من خلالها: "بنظرة إجمالية تاريخ روما والوجهة الاجتماعية البحتة لها، وفي هذا المؤلف عددا من الأفكار والتحليلات التي تعتبر دعامة قوية للمفاهيم القضائية والاجتماعية الحديثة كفكرة القانون الطبيعي وممارسة السلطة عن طريق الإكراه وحرية الإرادة الإنسانية"[256]. واستخدمت نظرية أوغسطين في السياسة واسعا.

كما يتضح الإسقاط الواقعي لمدينة الإله في تبيين حقيقة الحضارة الرومانية وغيرها من الحضارات التي من بذور فناءها نجد التوسع المفرط في القوة الاستعمارية وهذا يبدد الثروات إضافة إلى جلب سخط الرعية وبحثهم عن حياة الاطمئنان بدل الحروب لذلك اعتنق غالبية الرومان الذين سئموا رائحة الحرب الديانة المسيحية آملين باستنشاق هواء نقي في أرض التسامح والأخوة والمحبة، لذلك انتشرت المسيحية داخل الإمبراطورية وبعد سقوطها فسر أوغسطين سبب السقوط إلى الانحراف عن محبة الإله وبين طريق العودة إليها الذي ينطلق منذ نشأة المدينتين إلى نهايتهما مرورا بالمراحل التاريخية التي تشهد الصراع بين

---

254 القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب التاسع عشر، ص 162.
255 محمد محمد عويضة، أوغسطين فيلسوف القرون الوسطى، ص 91.
256 المرجع نفسه، ص 93.

المدينتين الأرضية والسماوية وحتى يجتنب اللعنات الوثنية، ولا يفر النفر الذي آمن بالتعاليم المسيحية، حيث بين لهم بان روما مدينة أرضية تنمو لتذبل وان دوام المجد والقوة يكون روحي بعد نزول المسيح الذي يغلب المدينة الإلهية السماوية على شرور المدينة الأرضية.

وفي هذا كانت مدينة الإله متكاملة روحها مستمدة من تاريخ البشرية وتعاليم المسيحية إضافة إلى العهد القديم وأسلوب الخطابة عند الفلاسفة، فامتازت بأسلوب دفاعي عن المسيحية التي انتصرت بصورة غير مباشرة في القرون الوسطى وجعلت السلطة ذات تفويض إلهي وروجت لحياة الزهد حتى يكون للأفراد حق المواطنة في المدينة السماوية الأبدية.

2- تجدد اليوتوبيا في الفلسفة السياسية:

وإن ورد سابقا على ألسنة من إستهوتهم النظرة الواقعية، بان اليوتوبيا هي إنذار بموت الفلسفة السياسية حيث ترفع المدينة من الميدان إلى المثال والخيال، وأن العقل البشري هو في حاجة أولية إلى تغيير الواقع وسأم من مقولات أرض الميعاد، جنة الأحلام، موطن الخلاص، العصر الذهبي.

إلا أن النقد الواقعي لليوتوبيا لم يستأصلها كلية بل نلمس بنوع وآخر تجددا في الأنساق الطوباوية المثالية كالدعوة إلى العالمية، وإنتظار الخلاص الديني، وتقزيم العالم إلى قرية صغيرة فنلمس مع إيمانويل كانط الدعوة إلى السلام العالمي، التي طرحها بأكثر جدية الإنجليزي برتراندراسل الذي عايش الدمار جراء الحربين العالمتين وسعى إلى تحقيق السلام العالمي بين الأمم وهذا يجعلنا نعتبر القول بالمدينة الفاضلة إضافة إلى الواقعية صنوان ملازمان للفلسفة السياسية.

وعموما وإن كان القديس أوغسطين من قبل رفع المدينة إلى مستوى المخيال، فنجد الرؤى المعاصرة تقترب من هذا المنوال في تصور الحياة الفاضلة العادلة، وهنا يطغى عليه طابع القيمة الذي يتناول ما ينبغي أن يكون عليه الأمر ولرصد الوقائع، "فاليوتوبيات هي التي رسمت خطوط المدينة الأولى، ومن عالم الأحلام السخية تأتي الوقائع النافعة"[257] إذ توظيف التصورات المعاصرة للسلام العالمي رؤية واقعية عن أمل الأفراد في العيش مع ومن أجل الآخر دون عداوة وجور لاسيما في عصر أصبحت فيه المنفعة هي الإله الجديد.

---

[257]- بيرني ماريا لويزا وآخرون ، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ص 8.

بذلك تجدد اليوتوبيا بشكل أو بآخر لتجسد الإنسان الفاضل المعقم من كل شوائب الشرور، الذي يحيا في عالم تسوده المحبة والسلام أمر لا ريب فيه، فهل هذا يعني أن اليوتوبيا جوهرية في الفلسفة السياسية؟ وليست مجرد فرار من الواقع لتجاوز حالات الضعف السياسي؟ قد لا نوفر الإجابة عن هذا السؤال كون المدينة اللامكانية سواء كانت تجاوز للواقع، أم إبحار في الأحلام، أم إيديولوجية ذاتية فعنها نجد صورة إنسانية لنظام مفارق للطبيعة الإنسانية تحن للعودة إلى النشأة الأولى دونما نزاعات ودونما خطايا وأنانية، فهي تجسيد للفطرة الخيرة.

والحديث عن تجدد اليوتوبيا في الفلسفة السياسية ففكرة المدينة الفاضلة هي التي تلزمنا في ذكر موقع اليوتوبيا والتي وظفها القديس أوغسطين في الخطاب الفلسفي حيث بينا في الفصل السابق انتقادات الفلاسفة لها وبلغت ذروة الانتقادات مع النزعة الوضعية المنطقية التي أعلنت موت الفلسفة السياسية الكلاسيكية ففكرة المدينة الفاضلة هي التي تجرنا للحديث عن تطورها بعد الانتقادات وتجددها في الفلسفة المعاصرة مثلما فكرة النزاع بين المدينتين استخدمت لاحقا بين أوغسطين ووظفها رجال الدين لخدمة الكنيسة.

أما عن اليوتوبيا فهذه الأفكار تخفي بين طياتها أغراض معينة" فالأفكار السياسية سواء كانت محافظة تبريرية أو طوباوية فهي تعبر عن مصالح فئوية وهي مطابقة لأغراضها"[258] ومن بين هذه الأغراض استقينا أنموذج السلام العالمي لراسل للتعبير عن تجدد اليوتوبيا حتى وبعد الانتقادات التي لاقتها هي الأخيرة من قبل الوضعية.

وفيما يلي نوضح البعد الواقعي لمدينة الإله وكيف تجدد الطرح المثالي للمدينة الفاضلة في الفلسفة المعاصرة بعد الانتقادات التي واجهتها الطوباوية واخترنا لذلك نموذج السلام العالمي لبرتراند راسل وضمنا دور الإوغسطينية في تنمية فكرة انتظار المخلص من خلال العناصر الموالية.

[258]- العروي عبد الله، مفهوم الإيديولوجية، (ط 7؛ المغرب: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003)، ص 47.

1/2 - السلام العالمي عند برتراندراسل

تنعطف الفلسفة الغربية من الخطاب حول المنهج الذي ساد طوال العصور الحديثة أمام الاهتمام بالعالم إلى إعطاء الأولوية للإنسان وإعتباره مركز الدراسة لاسيما في عصر آل إلى الخراب جراء التكالب على الماديات مما ولد الحربين العالميتين، فكانت بذلك بشارة السلام العالمي هي أمل برتراندراسل الذي بحث عن مجتمع السلم والتعايش، وأمام الطبع الإنساني تجسدت أرائه في آمال معلقة على البحث عن كمال القيم، والتوصل عما إذا كان للإنسان مستقبل.

"فكانت يوتوبيا المستقبل هي الحكومة العالمية التي دعا إليها راسل إنطلاقا من السؤال: هل يستطيع الإنسان العلمي أن يعيش؟... ويقصد بالإنسان العلمي الإنسان المعاصر، فهو لن يعيش طويلا إذا ظل الأوضاع الدولية الحالية قائمة"[259] فهذه الأوضاع تتنافي مع متطلبات الإنسان فحالة الحرب تذهب معها الاستقرار والأمان حيث أن :" أسوأ المجتمعات هي تلك التي تعمل على إرغام الناس على قبول نمط واحد من الحياة التي لا تجد فيها دوافع كل إنسان هدفها الخاص والحياة العسكرية"[260].

وفي هذه المجتمعات كما نعتها راسل تغيب القيم إذ السلام والعلاقات بين الدول غير قائمة على متطلبات إنسانية الأمر الذي يجعل البحث عن السلام العالمي وإن كانت أبعاده واقعية أقرب إلى الطوبي لبعد تجليه أمام الطبيعة الإنسانية لتي جعلت المصلحة هي الإله الجديد، والمنفعة تطاولت على حساب الغير إذ كل فرد يتمني دوام الخير لنفسه، وبلغة أقرب نجد نوع من الميكافيلية، فغاية البقاء والتسلط لابد لها من دوام ولو على حساب بعض الأمم، وهذا فيه دعوة لانتشار الشرور التي تدنس الطبيعة الإنسانية والأمر يتطلب العودة إلى التربية الأخلاقية وترويض النفس على محبة الآخرين .

هذا السلام الذي بشر له كانط في مؤلفه الموسوم بمشروع السلام الدائم ودعا من خلاله إلى احترام الإنسان ومعاملته كشخص لا كوسيلة فقد تجدد مع راسل وكان هو أمل ومستقبل المجتمع إذ يحقق له الخلاص فيقول راسل في مؤلفه، الفرد والسلطة! " المشكلة الأساسية التي سأحاول بحثها في الفصول هي كيفية إيجاد الصلة بين حرية الفرد التي هي

---

[259] - سعد فاروق، ثرات الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، ص ص 357-258.

[260]- نصار عبد الله، فلسفة برتراند راسل ، (د ط؛ مصر: الهيئة المصرية للكتاب ، 1987)، ص 103.

إحدى مستلزمات التقدم وبين التفاوت بين الأشخاص الآخرين الذين لا يستطيع الفرد بدونهم أن يستمر في الحياة"[261].

فالحياة إذا مع الآخر التي يحن إليها راسل أمام تأزم الأوضاع الدولية المعاصر تعود بنا إلى سنة القدامى مع أفكار الحقوق الطبيعية، العصر الذهبي، أرض الميعاد وفيها كسر لغل الاستبداد فيذكر راسل قائلا:" لم تتلاشي الشرور و الناتجة عن سوء معاملة الناس لبعضهم بالقوة التي يتلاشي فيها خضوع الإنسان للطبيعة، فلا زالت هناك حروب وإعتداءات وما زال بعض الناس يثورون على حساب الآخرين ولازالت القوة والبطش عاملين يتحكمان في رقاب كثير من الناس كل هذا يمكن التغلب عليه إذا نشر العدل فالشر ليس في طبيعة الإنسان"[262].

وهنا يستبعد راسل الإسقاط الفطري للشر عند الإنسان على غرار ما تحدث عنه هوبز في الحالة الطبيعية القائمة على الفوضى إذ الكل يكيد للكل لذلك ينوي راسل من وراء خطاباته وسط النزاعات المعاصرة إلى إقامة سلام يشمل العلاقات بين الدول، التي يجب أن تؤسس على أصول متينة أخلاقية تستبعد العدوان.

وهذا الطرح قد يصبح حكما معياريا كونه يبحث فيما ينبغي أن يكون على حساب الكائن، وانه يتصور القيم المثالية التي تفر من ارض الواقع، وخلاصة ما تقدم من كلام حول مشروع راسل العالمي للسلام الذي صورة له نجدها من قبل عند كانط فنجده يميل إلى الطرح المثالي الذي يهدف إلى تجاوز الحروب ورجاءه الوحيد: "أن يكون ما يتمناه الإنسان لوطنه أمر لا يتم على حساب الآخرين بل أن يرى في أي تميز تحققه بلاده وميزة للعالم كله، إننا نتمنى أن يأمل كل إنسان في أن يكون لبلاده شان عظيم من الفنون والآداب وفي إقرار السلام وان يكون لها شان في الفكر والعلوم وان تكون معقمة بالعدل والشهامة والكرامة".[263]

وعلى هذا النحو يجب أن تسير الأمم والمجتمعات واغلب ممن اتخذ على عاتقه مهمة البحث عن حياة فاضلة فقد فر من تدهور الأوضاع لكن الإغراق في اليوتوبيا وتأسيس مدينة لا وجود لها إلا في ذهن صاحبها هذا يحمل فساد الأوضاع من المستوى المادي الحضاري

---

[261]- برتراند راسل، السلطة والفرد، تر: نوري جعفر، (ط 1؛ بغداد: ألمانيا، منشورات الجمل، 2005) ، ص21.
[262]- المرجع نفسه، ص 105 .
[263] عبدي الله نصار، فلسفة برتراند راسل، ص ص 115 -116.

إلى المستوى الفكري إذ يقتل الإبداع السياسي ويرهنه بالأحلام ويجعل التنظير شيء والواقع أمر آخر فتجاوز أوغسطين لنكبة روما امتاز بصورة فاضلة مفارقة ليوتوبيا مور لكنها تخدم مقاصد دينية كنسية، أما تصور راسل المعاصر فهو لتجاوز الشرور وعموما روح المدينة الفاضلة تبقى مميزة ومتكاملة بين الفلسفة السياسية والأخلاقية والاجتماعية والجانب الديني.

2/2 ـ الأوغسطينية وفلسفة الانتظار:

هي إذا المدينة الفاضلة تتعدد تسمياتها بين جنة الأحلام، وأرض الميعاد، أو اليوتوبيا، والعصر الذهبي، وزمن الخلاص، أو حسب تعدد مضامينها التي تشيد جسرا مثاليا يقطع الفرد من خلاله طريقه من أرض الواقع التي قذفت به جراء التدهور السياسي، أو الطغيان، أو غياب العدالة بهذا يحاول الفرد الوصول إلى الضفة الأخرى في مدينة قيمها السامية، وأهلها أشبه بالإنسان الخارق على النحول الذي صوره نتشه في فلسفته.

وقد تكون أيضا المدينة الفاضلة ضربا من أضرب سعة الخيال أو الترفيه بتصور مجتمع مثالي، وعلى العموم فإن تعددت المسميات فالمدينة المثالية لا وجود لها على أرض الواقع ، لكنها في حقيقة الأمر ثورة على الواقع لتغيره، وهذا التغيير دوما بين طياته يحمل أمل الأفراد في كسر كل غل، والمهمة موكولة للمخلص أو رائد وحاكم هذه المدينة، وإن تعددت مفاهيمه عبر تنوع الثقافات فكلها تربط الحلول من المشاكل إلى المخلص وإرادة السماء.

فهي إذا عودة مزدك، وماني وبوذا لبث العدالة بعدما دب الظلم في الأرض كما تصوره أهل هذه المعتقدات ، وهي عودة الفيلسوف عند أفلاطون مؤسس العدالة والرجل المناسب للتدبير، وهي عودة المخلص اليسوع عند القديس أوغسطين الذي يرفع الأذى بل وينصر المدينة السماوية، وهي عودة الإمام عند الفارابي في مدينة الفاضلة، وقد تضم عودة المتوحد عند إبن باجة في مؤلفه تدبير المتوحد.

أو قد تشمل العودة مفاهيم جوهرية لا أشخاص ، فعند توماس مور صور اليوتوبيا عودة المساواة، ومع ماركس هي عودة المشاعية في مجتمع الكل فيه يعمل حسب طاقته ويأخذ حسب حاجته، لأن بداية الشر مرهونة بالملكية الفردية، أو قد تضم تحقيقا للمساواة

والقيم المتعالية مثل ما هي الأمور عليه عند كامبانيلا صاحب مدينة الشمس ، أو قد تشمل اليوتوبيا سلام عالمي على التصور الكانطي، أو النحو الذي أراده برتراندراسل.

لكن الأمر ليس متعلق بعودة المخلص أو القيم السامية، بل هذا يجعل الأفراد يأملون ويعلقون الحلول بغد الخلاص، سواء كان الخلاص بصورة فلسفية، أو تاريخية أو دينية، فالجانب الديني في نهاية المطاف يغلب الروحي على المادي ويطفئ الإيمان شرور ويقضي على الشيطان، ويخلد في التعميم كل من صبر، أما من اتبع شهوة النفس والأنانية وارتبط بالماديات فله كل الآثام والآلام والعقاب فمشروع اليوتوبيا وإن انطلق من تجاوز الكائن والبحث عن ما نبغي أن يكون في حياة أفضل فمتى يكون هذا؟

من وراء هذا لا ننوي فصل حلول المدن الفاضلة عن الواقع، أو الخلاص الديني، فهو أمر لابد منه حسب جميع المعتقدات في الديانات الموحدة وغير الموحدة ، فزمن الخلاص والنعيم، وتحقيق شعب الله المختار وأفول الظلمات آت لا ريب فيه سواء في اليهودية أم مع المسيحية أو في الإسلام لكن في إنتظار هذا يجب العمل على التحرر لا الضعف والاستلام للواقع، أو الزهد في الحياة والتعفف والرضوخ وقبول الظلم مقابل إنتظار الخلاص.

وهذا الانتظار نعالجه من نقطتين:

أما **الأولى** فهي إنتظار سلبي يقبل فيه الأفراد الضعف ريثما يحل الخلاص، و**الثانية** إنتظار إيجابي يعمل الفرد على التحرر ورفع الأذى عن نفسه ريثما يحل الخلاص.

أما الانتظار السلبي ينطلق من النشأة الأولى ويأمل بالخلاص إلى يوم الدينوية الاخيرة فلا بد له من مرور على صيرورة التاريخ وتوجيهها نحو مقصد روحي خالص، وهذا ليس بالغريب داخل مدينه أوغسطين الإلهية التي تربط السياسة بالتاريخ واللاهوت.

والأمر يحيلنا إلى نقطة هامة حيث في بداية رواج الديانات يشايعها الضعفاء آملين بالخلاص فلم يجدوا موضعا لهم في عالم الآخر السوسيولوجي، لذلك يبددون الشهوات بالزهد والتضحية والصبر على الاستبداد والعسر في إنتظار أيام اليسر، فخلاص اليهود مع يهوذا وخلاص النصارى مع المسيح ونصرة المسلمين يوم القيامة، ومقابل هذا يتوق كل فرد إلى تشديد الحرص على الجانب الروحي وإعتباره هو الحل ويكون الإعراض عن العمل من

أجل بلوغ التحرر فإنتظار المسيح داخل المدينة الإلهية جعل الأفراد يطيعون الكنيسة بل حتى يشترون ويحجزون أمكنة في الجنة بثمن يأخذه أباء الكنيسة الذين يدّعون أنهم زاهدون.

فولدت هذه الرؤيا عصرا من التيولوجيا والتسلط الكنسي الذي يجعل الحاكم خليفة الله في الأرض وظله يجب طاعته لضمان الخلاص الأخروي.

فكانت الأوغسطينية السياسية بدعوى أوغسطين إلى العادلة والتسامح إنقطاعا عن الاستبداد وطغيان مزود بالعناية الإلهية. وخوف الأفراد من الجانب الروحي الأخروي أشد وقرا من خوفهم من العذاب الزماني الآني لذلك ليست عضلات الفرعون من جعلته يستولي على عرش المصرين بل ارتباطه بالسحرة واعتباره من نسل الآلهة، وما زاد ألواع حمورابي قداسة، هو القول بتلقيها من إله الشمس أيضا الأمر ينطبق على انتظار الإمام عند الفارابي وريثما ينزل وتكون رجعته ينوب الحاكم وإنتظار المسيح ورث أخلاق الجبن التي ثار عليها أعلى الفلاسفة الغربيون رغم تلقيهم تربية دينية، وورث أيضا الطاعة العمياء للكنيسة وهذا إنتظار سلبي للمخلص، بل في الأمل بالخلاص الروحي يجب أيضا أن نلتفت إلى تنظيم شؤوننا على الأرض.

أما الانتظار الايجابي فريثما تتجسد المدينة الفاضلة أو بعبارة أدق قيمها من مساواة وعدالة وتسامح وزوال للشر يجب العمل لتجاوز الظرف الآني، فاليوتوبيا إذا لا بد لها من الإنطلاق من الواقع والدعوة إلى العمل لا الترويج للإرجاء والتأخير أو تخدير الذهن بالأحلام، الأمر الذي يجعل الوضعية تهاجم التصورات الطوباوية، بل الحقيقة الدينية أو القيمة السامية أمر لا ريب فيه لكن يجب العمل والإنهماك بالواقع.

فالناموس الخاص بالمدينة الفاضلة قد لا وجد مكان له وسط الطبيعة البشرية " حيث نجد مع توماس صورة قانون خاص لمدينته المثالية... وله اللامكان، ففيها الأخوة حيث تتجسد لكل فرد من رعيتها ثروة خاصة، حيث تتقدم الملكية ويشعر كل واحد بتحقيق المصلحة العامة"[264].

وعليه فجوهر اليوتوبيا يرفع معه تمنيات الأفراد بزمن العدالة إلى صورة والسماوية والقوة إلى الحياة الأبدية، وهذا ما من شانه أن يرتبط بالنظرة الدينية أين يتجسد كل ما لم

[264]- بيرني ماريا لويزا وآخرون ، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ص 156.

يتحقق وإن كان الأمر على هذا النحو فقد يولد نوعا من التواكل ويضعف سير الفلسفة السياسية إذ تصبح أكثر معيارية بدل انهماكها في تغيير الواقع.

كما قد يتولد عن إنتظار المخلص نوعا من الوسطية سواء للفيلسوف عند أفلاطون أم للفيلسوف الذي ينوب الإمام عند الفارابي أم للكنيسة التي ترعى شؤون البشر في إنتظار نزول المسيح لبث العدالة وتغليب المدينة السماوية، إذ يتولد نوعا من التيولوجيا أو الطاعة العمياء التي تنحرف على مقاصد إستبدادية تبيح مشروعية التسلط على الرعية دونما ثورة ومعارضة وهذا يخدم إيديولوجية صاحب المشاريع الفاضلة.

فتكون هي المدينة الخيالية المعمقة من الشرور تحمل في طياتها شرور، وكما يتصور كارل مانهايم اليوتوبيا " فالطوبى عنده هي نوع من التفكير يتمحور حول تمثل مستقبل واستحقاره بكيفية مستمرة، والإيديولوجية تفكير يهدف إلى استمرار الحاضر وتنفي بذور التغير الموجودة فيه فكل متطوعة فكرية تكتسي صيغة إيديولوجية، والفنية الاجتماعية تستعملها"[265]. فالانتظار يسوق الرعية حسب هوى وادلوجة الراعي كون العيون والآمال كلها معلقة على المخلص، أو على المشروع الذي يرسم خطوط المدينة المثالية السخية.

فإنتظار تحقيق مدينة الله الخالدة الأبدية ولد الضعف الذي ألحق النقد بالديانة المسيحية التي أوقعت الفكر في سبات دغمائي مشروعيته مستمدة من العناية الإلهية، وبعيدا عنا التأسيس الفاضل للدول نجد البعد الواقعي، وهذه الثنائية بين الواقع والمثال تتأرجح داخل الفلسفة السياسية إذ من طغيان الواقع وضيق مساحته يأمل الأفراد، ومن وراء هذا الأمل تغيير مقاصده التي تمس الواقع لكن الأهم من كل هذا، ليس فقط إنجاز الأنساق الطوباوية، فهي قد تتجدد بصورة أو بأخرى لكن الأهم العمل من أجل التغيير وليس تسليم الأمور لسيطرة الشيطان والشر كما وصفه القديس أوغسطين حيث الله هو مصدر السعادة، فيقول في الكتاب الرابع من مدينة الإله: "إلهنا يصنع السعادة ويوزعها الإله الواحد الحقيقي يبين ممالك الأرض الصالحين والأشرار" [266] وجعل النفس حبيسة الزهد لتصل إلى التعفف، بل الأولى هو محاربة الشر والتصدي لتطاول أهل المدينة الأرضية.

---

[265]- العروي عبد الله، مفهوم الايدولوجيا، ص 47.
[266]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الرابع، ص 213.

وما ينطبق على المجتمع الأوغسطيني الذي ينتظر الخلاص في صوره نهائية وروحية، ينطبق على مختلف الشعوب فنصرة الحق على الباطل وقوة الدولة نعيدها بمثلها لا بالأمل وفي إنتظار الخلاص الروحي الديني لصد الضعف، والتغيير ليس التغير والتضارب على مقولة شعب الله المختار الذي يظفر بالنصر في النهاية فآفة الطموح النظري يجب أن تتحول إلى ورم خبيث يتفنن في إرجاء النصر والغلبة والتطور إلى أيام أرض الميعاد والى الغد، والعصر الذهبي بل الأمر لابد منه وفي انتظار ذلك اليوم الموعود يجب العمل والالتفات إلى تنظيم الأمور بكل واقعية.

وفي مقابل هذا الإنتظار نجد القديس أوغسطين يعود إلى الكتاب المقدس وفيه صبر على الأذى مقابل وعد بالنصر الأبدي للأبرار "فمن يسيء إليكم إذ كنتم حريصين على الخير ولو تألمتم في سبيل الحق فهنيئا لكم لا تخافوا من أحد و لا تضطربوا بل قدسوا المسيح في قلوبكم"[267] وهذا التقديس يوكل الأمر إلى التأخير، ويصبح هذا ذريعة لتبرير دبيب الضعف في الوقت الراهن والبحث عن العزاء كله في النهاية الروحية الدينية.

---

[267]- رسالة بطرس الرسول الأولى، الإصحاح الثالث / 13-14.

الخاتمة

الخاتمة:

وراء الطرح الاوغسطيني لمدينة الإله أكثر من ادلوجة تجعل البحث في هذا الميدان مستمرا ومفتوحا، فمن جانب الحضارة هي إعلان عن أحادية البناء المادي للحضارة الذي

يهمش الجانب الروحي مثلما هي تعبير عن سخط الفيلسوف ورفضه لسقوط روما وبحثه عن السبل الكفيلة لإعادة أمجادها وبين أن تدهور الرومان ليس وحده الشغل الشاغل للقديس أوغسطين بل جر معه هذا اتهام المسيحية وغصن شبابها رطيب خصوصا وان الفرد الوثني بقي دوما يتخذ موقف الحذر من الديانة الجديدة كون قلبه ما زال مرهون بإتباع الأوثان وتقديسها، لا سيما وان من شايعوا المسيحية حملوها ضيق الدنيا عنهم واخفوا بداخلها ضعفهم خصوصا بعد انهماك الرومان بالحروب فقط، مما ولد هذا الأمر أزمات سياسية واجتماعية جعلت الأفراد يسأمون من هذا الوضع فرحبت بهم المسيحية بل وأكثر من هذا وعدتهم بالتعويض والخلاص الأخروي، ولاقت قبولا وترحيبا حتى أصبحت الديانة الرسمية.

وخشية من تأزم الوضع وارتداد إتباع المسيحية عنها دافع أوغسطين عن اعتبار المسيحية هي اللعنة متفننا في عرض أسباب سقوط الحضارة بين بطلان الملة وحجب الحكمة بغشاوة الشهوات التي كل من مال إليها يدنو ويصبح من أهل المدينة الأرضية المحكوم عليها بالفناء مثل الحضارات السالفة. أما الخلود فهو روحي مرتبط بالتطهير والإيمان بالخلاص في نهاية التاريخ فمال أوغسطين إلى الجانب الديني وتماشى في هذا مع دعوة المسيح إلى إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله. لكن التقدم الذي رجحه أوغسطين للسلطة الروحية والولاء الأعمى الذي أعطاه للعناية الإلهية ولد استبداد الكنيسة وزاد الطين بلة إذ لم تعتبر المسيحية في العصور الحديثة لعنة فحسب.

بل هي سبب الضعف واغلب الفلاسفة رغم تلقيهم تربية دينية إلا أنهم تمردوا على سلطة الكنيسة وجعلوا الدين والسياسة خطان لا يلتقيان. أما من خلال التوظيف الطوباوي للسياسة داخل مدينة الإله في صورته الثنائية المتعارضة بين الخير والشر، الزهد وإتباع الملذات عالم الأرض والسماء، محبة الله ومحبة الشيطان تجعل المدينة تنحاز إلى ميدان المدن الفاضلة وهذا فيه تهميش للواقع وينحو نحو المعيارية أكثر على حساب ما هو كائن، فلا غرابة أننا نجد الفلسفة المعاصرة تعلن موت الفلسفة السياسية المسرفة في الخيال المعرضة عن الواقع، رغم أن ميل أوغسطين ليس على نحو توماس مور الذي تصور مدينة لإمكانية بل انطلق من بعد واقعي يأمل في أن تكون الحضارة متكاملة شقها الأول ديني

والآخر مادي واكتمل هذا داخل إمبراطورية روما لكنها سقطت، لذلك علل أوغسطين هذا وأرجعه إلى تغليب كفة المادة عن القيم الروحية وعاد إلى مشكلة الشر المرتبطة بحرية الإرادة عند الإنسان نافيا بان يكون الله هو مصدر الشرور لأنه كامل، بل الشر ورم خبيث موجود في الكائن البشري حسب الميل الإرادي وحرية الاختيار.

أما عن سيرورة المدينتين ومنذ النشأة الأولى شخص أوغسطين بداية لكل مدينة بين هابيل وقابيل، رومولوس ورمسيس، إسماعيل وإسحاق، وبين مسارهما في التاريخ العالمي واضعا بذلك الإمبراطورية الرومانية في موضعها الحقيقي أين تكون فيه مجرد مدينة أرضية محكوم عليها بالفناء، والخلود هو مطلب روحي، وينتهي النزاع بين المدينتين بخلاص الشعب السماوي الذي يسلم إدارة شؤونه لصالح الكنيسة التي تنوب عن المسيح ريثما ينزل ليغلب الحق على الباطل.

وهذا ما حول مدينة الإله إلى عقيدة السياسة وتوظيفها امتاز بالتيولوجيا مهد لطغيان مقنن في القرون الوسطى. وحقيقة البناء الفاضل للمجتمع داخل المدينة الاوغسطينية وتصور صاحبها للإنسان الفاضل يجعل أوغسطين وغيره ممن استهوتهم النظرة الطوباوية يكلفون أنفسهم عناء رحلة البحث في اللامكان المفارق لطبيعة البشر، وحتى انتقادات اليوتوبيا بالنظرة الواقعية التي تلتفت إلى مواجهة الضعف بالقوة والقهر بدل الخيال هذا لم يفني الوجود السياسي للمدينة الفاضلة بل بشكل أو بآخر نجدها دوما تتجدد وهذا يدفعنا إلى التساؤل: هل الإنسان بطبعه طوباوي؟

ففي الفلسفة المعاصرة نجد مشروع السلام العالمي لكانط وراسل إضافة إلى تصور العالم قرية صغيرة تميل إلى اليوتوبيا، وبذلك قد يستحيل سلخها عن التدبير السياسي.

أما عن الخلاص فقط ارجع أوغسطين التدهور إلى سبب ديني متبعا سنة القدامى من أصحاب المعتقدات إذ يرون أن أول خطوة نحو الانعتاق من الشرور لا بد أن تتغلب على الظلمة والشيطان والجسد الذي هو حسب أفلاطون مقبرة، والجسد والمادة عند أفلوطين في حديثه عن تراتب الموجودات في دانى مرتبة، أما أوغسطين يرى من مال إلى إتباع الشهوات فهو أسير نفسه صاحب في الموطنة الأرضية، وأما من تحرر من الملذات فهو مواطن في المدينة السماوية الخالدة موطن العدالة.

لكن مقولات العناية الإلهية والحق الإلهي والتفويض الإلهي استخدمت لمقاصد أخرى تجعل الرعية تفضل ظلم أهل المدينة الأرضية على طغيان التيولوجيا والكنسية، ومثل هذا الأمر ليس بالغريب على الفكر السياسي الذي يستخدم من خلاله الأفراد الدين للحفاظ عن دوام السلطة ولكسب المصداقية والمشروعية، فليست عضلات الفرعون هي التي أهلته للظفر بقمة هرم السلطة في مصر، لكن تمسكه بالكهنة وارتباطه بالإلهة زاده قداسة، أيضا ادعاء حمورابي بتلقيه الألواح من اله الشمس زاد نواميسه قداسة، وربط أوغسطين الخلاص بالعناية إلهية زاد الكنيسة قداسة، والسلطة السياسية من وراء الاوغسطينية أو غيرها من المعتقدات التي توظف الدين لخدمتها وتمتص المعارضة، فان أرادت إقصاء الآخر وتهميشه تضربه في معتقده وتتهمه بالردة وتقطع صلته بالإله، فان أرادت السلطة الدينية على أن تقصي الفرد روحيا أو حتى تعمل على تصفيته جسديا، فسقراط وراء إعدامه كثير من سبب لكن المصداقية مأخوذة من انحرافه عن إتباع آلهة أثينا، وأضف إلى ذلك ما عملت به محاكم التفتيش في أوربا.

فدور الوسيط الذي لعبته الكنيسة التي تنوب عن المسيح جعل كل من خالفها خالف الله، وتعالي القيم المثالية داخل المدينة السماوية هذا ما رفعها عن ارض الواقع وجعلها لا تبتعد عن اليوتوبيات هذه اليوتوبيات ما قبله أبدا توماس هوبز وميكيافيلي واسبينوزا في منطق الدولة، وبناءا على هذا نتج عن التصور الاوغسطيني للسياسة مقولتين جوهريتين في تأسيس الدولة أما بالقوة وأما الأمل، إما بالقيم المعيارية والزهد وإما بالطغيان لردع الفساد.
ومن وراء التجاوز الاوغسطيني ودعوته إلى إعادة بناء أمجاد المدينة نجده يحيي القول بالخلاص ويربط التاريخ بالعناية الإلهية.
ويجعل إبادة الغرائز بالتعفف في المقابل نجد النظرة الواقعية تبيد الفساد والغرائز بقوة وشتان بين استخدام القوة الصريح مع كل من مثل الطغيان، وبين تطبيقها الإيديولوجي من وراء التسامح والأخوة يكون طغيان الكنيسة المسؤولة عن شؤون البشر والتي اتسعت سلطتها إلى إقطاع على المستوى الاقتصادي، وتيولوجيا على المستوى السياسي، ودوغمائية على المستوى الفكري.

أما استخدام القوة المعلن مثلما هو الحال لدى ميكيافيلي الذي انتقد النظرة الطوباوية ففيه توضيح بان الضعف لا نعالجه بالعبارات الرقراقة فالعضو المصاب بالداء يجب أن يبتر، أما البحث عن المدينة الفاضلة فهذا بحد ذاته داء يجب التحرر منه.

وأوضاع روما جعلت أوغسطين ابن عصره يبحث عن تجاوز التدهور فلو استمرت الإمبراطورية الرومانية لكتب أوغسطين في التنظيم القانوني والسياسي لها، كما ومن خلال الطرح الاوغسطيني لمدينة الإله فهو تاريخ مجاوز للتاريخ العالمية ومساره مرتبط بالعناية الإلهية ونهايته لا تعني الفناء، بل يبلغ كماله بنزول المسيح لينشر العدل والخلاص وتعم التعاليم المسيحية.

وبالضبط ففكرة الخلاص ترهن الأفراد وتجعلهم تحت اسر الانتظار إذ يقبلون الهزائم مقابل الوعد بالانفراج والحصول على السعادة الأبدية، فأهل المدينة الأرضية لهم السعادة الدنيوية وأهل المدينة السماوية لهم السعادة الأخروية، وعليه فالانتظار هو ذريعة لتخفي الضعفاء ريثما يحل المخلص ليس فقط لأهل المدينة السماوية بل هو من الصفوة المختارة من عند الله.

والشعوب قديما وحديثا نجدهم يقبلون الواقع ويرجئون أهل الخلاص وينتظرون اختيارهم من بين الشعوب ليتغلب في نهاية التاريخ وعلى العموم فالبحث في مدينة الإله عند القديس أوغسطين الذي في مؤلفه الاعترافات اعترف عن تركه للتعاليم المانوية لكنه في فكره أبقى على ثنائية التصنيف الحاضرة بقوة بين محور الخير ومحور الشر، هذه الثنائية تجددت بشكل آخر بين القول باليوتوبيا وبين تجاوزها بالواقع.

الفلسفة السياسية تأخذ شيئا من هذا المثالي وآخر من ذاك الواقعي، إذ جهود الفلاسفة في نسج المدن الفاضلة لو اتجهت إلى الواقع لحققت تقدما، ونقد الفلاسفة للطوباوية لم يستأصلها بل دوما نجدها تتجدد بصورة معيارية تبحث عن كمال القيم.

في مقابل هذا القول بالواقعية أمر لا ريب فيه لتجاوز الضعف والهزال السياسي فانطلاقة أوغسطين كانت واقعية في نسق مثالي وعليه إضافة إلى مدنية الإنسان، وطبعه السياسي فهل هو طوباوي بطبعه؟ وهل اليوتوبيا حالة عرضية أم جوهرية في الفلسفة السياسية؟.

وإذا كانت اليوتوبيا جنة الأحلام وارض الميعاد عند أوغسطين أو غيره من الفلاسفة، أهلها لا حاجة لهم إلى طبيب كونهم بلغوا مرتبة الكمال، ولا حاجة لهم إلى قاضي كون العدالة متوفرة فهل هذا يعني أنها لا تخلو من الطغيان؟ خصوصا وأننا نجد مدينة الإله استخدمت لتبرير سلطان الكنيسة وعليه فتأسيس الدولة يتخذ ازدواجية البنية بين البحث الواقعي عن ما هو كائن، والتصور المثالي لما ينبغي أن يكون وهما صنوان لا يفارقان الفلسفة السياسية.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الكتاب المقدس، العهد القديم والجديد، (ط 3؛ مصر: دار الكتاب المقدس، 2003).

I. قائمة المصادر:

1. بالعربية:

1) القديس أوغسطين، الاعترافات، تعريب الخوري، أسقف يوحنا الحلو، (ط 3؛ بيروت: دار دمشق، 1986).

2) ـــــــــــــ، مدينة الإله، تعريب الخوار أسقف يوحنا الحلو، (ط 1؛ بيروت: دار المشرق، 2002).

2. بالفرنسية:

1) Saint Augustin, Dialogues philosophiques, Tr : R.Jolver, P Delbriolle F.J. Thonnard, (Paris : Desleé Debouwer, 1954)

2) ——————, oeuvres de saint augustin, les deux âmes anti manichéens, TR. R

3) ——————, ouvres de saint augustin, tr. Gafinanert, (Paris : contre national de la recherche scientifique, bibliothèque augustinienne, 1963),

II. قائمة المراجع:

1. بالعربية:

1) إبن خلدون ،المقدمة، (ط1؛ بيروت: دار الفكر اللبناني،2003)،

2) أبوريان محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي، الفلسفة الحديثة، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية ، 1997، د ط

3) ابوليوس لوكيوس، الحمار الذهبي، ترجمة: أبو العيد دودو، (ط 3؛ بيروت: الدار العربية للعلوم، 2004)

4) أحمد عبد الكريم، بحوث في تاريخ النظرية السياسية، قسم البحوث والدراسات العربية، 1972 (د ط) ،

5) أرسطو، السياسة، تر: الأب اوغسطينوس برباراه البوليسي، (ط 2، لبنان، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع)، 1980.

6) أساقفة فرنسا، الإيمان المسيحي، تر: الأب أنطوان موصلي اللعازاري، (د ط؛ باريس: مطبوعات باريس، 2001)،
7) أسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسية، ترجمة:حسن حنفي مراجعة فؤاد زكريا، مكتبة لأنجلو المصرية القاهرة ،ط1981،1
8) اطوني دي كريني وكينيت مينوج، اعلام الفلسفة السياسية، تر نصار عبد الله، (د ط؛ مصر: الهيئة المصرية للكتاب،، 1988)
9) أفلاطون، الجمهورية، تعريب حنا خباز، (د ط؛ لبنان: دار القلم، د س).
10) اندريه ايمار، جاني أجوابه، روما وإمبراطوريتها، تر: فريد داغر، و جورج أبو ريحان، (د ط؛ بيروت: عويدات للنشر، د.س).
11) بروديل فرناند، تاريخ وقواعد الحضارات، تر: حسين شريف، (د ط؛ القاهرة: الهيئة المصرية العامة، 1999).
12) بالبيار إتيان ، اسينوزا والسياسة، تر: منصور القاضي، (ط 1؛ بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1993).
13) بحوش عمار، تطور النظريات والأنظمة السياسية، (ط 2؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984)،
14) برترندراسل، السلطة والفرد، تر: نوري جعفر ، (ط 1؛ بغداد: ألمانيا، منشورات الجمل، 2005).
15) برهيية اميل، تاريخ الفلسفة في العصر الوسيط، تر. جورج طرابشي،(ط 2؛ بيروت: دار الطليعة، 1983)، الجزء 2،
16) ــــــــــــــ ، تاريخ الفلسفة الهلنستية والرومانية، تر: جورج طرابيشي، ط1؛ بيروت: دار الطليعة، 1982)،
17) بيرني ماريا لويزا وآخرون، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، تر عطيات أبو السعود، (د ط؛ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون ، 1998)
18) جيلسون اتيان، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة (ط 3؛ لبنان: مدبولي، 1996).

19) ديوارت ول، قصة الحضارة الرومانية، تر: بدران محمد، (د ط؛ بيروت: دار الجيل، 1998)، الجزء الأول، المجلد الثالث،

20) هارون جوديت، حب الإله في فلسفة اسبينوزا، تر: خليل أحمد خليل، مراجعة معيذ أبو مراد ، دار الفكر اللبناني بيروت، 1998، ط1،

21) زيعور علي، الفلسفة الوسيطية، (ط 3؛ بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1983)،.

22) ـــــــــ، الفلسفة في أوربا الوسيطية وعصري النهضة والإصلاح، (د ط؛ بيروت: المكتب العالمي، 1988).

23) ـــــــــ ، اوغسطينوس، مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية، (ط1؛ بيروت: دار اقرأ 1983)

24) حاروش نورالدين، تاريخ الفكر السياسي، (ط 1؛ الجزائر: دار الأمة، 2004)، [1] الصايغ نوال العراف، المرجع في الفكر السياسي، (د ط؛ لبنان: دار الفكر العربي ، 1988).

25) حنفي حسن، نماذج الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، أوغسطين أنسلم، توما الايكويني، (د ط؛ بيروت: دار التنوير، 1981)،.

26) ـــــــــ ، يحي هويدي وآخرون، تطور الفكر الفلسفي، (د ط؛ الكويت: مطبوعات جامعة الامارات،1991).

27) خليل الجر، حنا الفاخوري، تاريخ الفلسفة العربية، (ط 3؛ لبنان: مقدمات في الفلسفة الإسلامية، دار الجيل، 1963)،

28) طالبي عمار، مدخل الى علم الفلسفة، (د ط؛ الجزائر: دار القصبة، 2006).

29) كامل محمد عويضة، اوغسطين فيلسوف العصور الوسطى، (ط 1؛ بيروت: دار الكتب العالمية، 1994).

30) كريم محمد، تطور الفكر الفلسفي والسياسي، (ط 1؛ بيروت: المكتبة العصرية صيدا، 1994).

31) كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط، (د ط؛ بيروت: دار قلم، د س).
32) لوبون غوستاف ، روح الاجتماع ، (د ط؛ الجزائر: موفم للنشر ، 1988)،
33) ميكافيلي نيكولا، مطارحات ميكيافيلي، تع: خير حماد، (ط 1؛ بيروت: منشورات المكتب التجاري ، 1962).
34) ـــــــــــ، الأمير، تر محمد بن البار، (د ط؛ الجزائر: شركة دار الأمة،1998).
35) النشار مصطفى، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، (د ط؛ مصر: دار قباء 1998).
36) نصار عبد الله، فلسفة برترا ند راسل. (د ط؛ مصر: الهيئة المصرية للكتاب،1987).
37) السامري نعمان عبد الرزاق، اضواء على تفسير التاريخ، (ط 1؛ الرياض: مكتبة لمعارف، 1994)،
38) سباين جورج، تطور الفكر السياسي، تر حسن جلال العروسي، تقديم عثمان خليل عثمان، (ط 4؛ مصر: دار المعارف،الكتاب الأول، 1971)،
39) سبيلا محمد، للسياسة بالسياسة في التشريح السياسي، (د ط؛ لبنان: إفريقيا الشرق، 2000).
40) سلمى الخنساء حمزى ، تاريخ الفكر السياسي في العصور الوسطى والقديمة، (ط 1؛ دون ذكر البلد ودار النشر، 1988).
41) عباس فيصل، الاغتراب، الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، (ط 1؛ بيروت: دار المنهل اللبناني، 2008).
42) عبد المعطي علي، تطور الفكر الغربي، (ط 1؛ الكويت: مكتبة الفلاح، 1987).
43) ـــــــــــ، وآخرون، تطور الفكر الغربي ، مكتبة الفلاح، الكويت ،" ط01، 1987،ص 146.
44) عبيد إسحاق، المدينة الفاضلة، (ط 1؛ مصر: دار الفكر العربي، 2000).
45) العربي محمد، المناهج والمذاهب الفكرية، (د ط؛ بيروت: دار الفكر اللبناني، 1994)،

46) العروي عبد الله، مفهوم الايدولوجيا، (ط 7؛ المغرب: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،2003).
47) ـــــــــــ، مفهوم التاريخ، (ط 3؛ المغرب: المركز الثقافي العربي1997).
48) عمر عبد الحي، الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة، (ط 1؛ لبنان: المؤسسة الجامعية، 1999).
49) فراح عبد العزيز،أنا القديس أوغسطين، أورغ إبن أفرفن من أبناء تاغست، تر : حسين لبرش (د ط؛ الجزائر: منشورات أبيك، 2007)،
50) فاروق سعد، تراث الفكر السياسي قبل الأمير و بعد، (د ط؛ المغرب: دار الآفاق الجديدة، 1991).
51) صبحي احمد محمود، في فلسفة التاريخ،(د ط؛ لبنان: دار النهضة العربية، 1994)،
52) قربان ملحم، قضايا الفكر السياسي: القوة ، (د ط؛ لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 1982).
53) القمودي سالم، سيكولوجية السلطة، (د ط؛ الجزائر: مؤسسة الانتشار العربي، 2000).
54) شاتليه فرنسوا ، تاريخ الأفكار السياسية' تر: خليل احمد خليل (د ط؛ بيروت: دار الفكر العربي، 1984)،
55) شفيق محمد، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الامازيغ، (ط 1؛ الرباط: دار العلم، 1989)،.
56) الشنيتي محمد البشير، سياسة الرومنة في بلاد المغرب،(د ط؛ الجزائر، 1985)،
57) الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي،(د ط؛ بيروت: المكتبة العصرية، 2005).
58) خضر خنافردولة، في الطغيان والاستبداد والديكتاتورية، (ط 1؛ دون بلد: دار المنتخب العربي1995).
59) ضومط ميخائيل، توما الاكويني،(د ط؛ بيروت: المطبعة الكاتوليكية ، 1956.

2. بالفرنسية:

1) Alfred Webers Denis Huisman, Histoire de la philosophie européenne antique, (Paris : médiéval, Fischbacher, 1964).

2) Epusave .Combes , la doctrin politique saint augustin (Paris : Libraire Plon, 1927).

3) Etienne Gilson, Les Metamorphs De La Cite du dieu, (université catholique, 1952).

4) Hobbes Thomas, le Léviathan , trad. François tricaud, (siry, 1971).

5) ——————, les éléments du bruit naturelle et politique, introduction , tra : par louis roux (Lyon l'hermès).

6) Jean Claud Eslin, Dieu et le pouvoir théologie et politique en occident, (Paris : Seuil, 1953).

7) Jean Servier, histoire de l'utopie, (France : Gallimard, 1967).

8) Jolivet, et Mjoutjon (Belgique, Descaleé de brouwer, 1961).

9) Kebir Ammi, THAGASTE ROMAN , (Marsa, de lube 1991).

10) Krierelm Beandine , textes de philosophie politique classique , dépôt légal édition fredonner 1993.

11) Spinoza, tartie de l'autorité politique, tra : notes de François, préface de robert misrhi : (France : Gallimard, 1978).

III. قائمة المعاجم والموسوعات:

1. بالعربية:

1) ابن منظور، لسان العرب (ط 1؛ بيروت: دار صادر، 2000) مج 9.

2) بدوي عبد الرحمن، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، (د ط؛ بيروت: مكتبة لبنان، د س).

3) ـــــــــــ، ملحق موسوعة الفلسفة، (ط 1؛ بيروت: المؤسسة العربية للنشر، 1996).

4) بيتر كوزمان،بيتر جوركار وآخرون، أطلس الفلسفة، ترجمة: جورج كتورة، (ط1؛ لبنان: المكتبة الشرقية، 2001)،

5) وهبة مراد، المعجم الفلسفي (د ط؛ مصر: دار قباء للطباعة والنشر1998).

6) شاتليه فرنسوا، معجم المؤلفات السياسية، (ط 10؛ بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1997)،

7) حنفي عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة (ط 3؛ مصر: مكتبة مدبولي 2000).

8) لالاند اندرية، الموسوعة الفلسفية، تر: خليل احمد خليل، (ط 1؛ لبنان: منشورات عويدات، 1996).

9) غالب معطفي، في سبيل موسوعة فلسفية، أفلوطين، (د ط؛ بيروت: دار مكتبة الهلال، 1983)،

2. بالفرنسية:

1) L'Affite Jacqueline et des autres, dictionnaire de philosophie, (2ème ed ; Paris : ARMOND COLIN, 2002).

IV. المقالات والدور يات:

1. بالعربية:

1) بلعزوقي محمد، الفكر السياسي لدى مارسيليو، مجلة دراسات فلسفية، السنة الثانية، العدد الرابع السداسي الثاني، الجزائر.

2) جيمس باترونس، أفعال البشر تخدم المعتقد الإلهي، أعمال ملتقى القديس أوغسطين افريقية وعالمية، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، 2004، الجزائر
3) اليوسفي على محمد، مقال حول الحياة في منتهى القصر من تاريخ الأفكار إلى تاريخ الممانعة، (جريدة الأسبوع الأدبي)، العدد 961، 11.6.2003،
4) منذور اندريه، أوغسطين من أفلوطين إلى المسيح، الملتقى الدولي الأول حول القديس أوغسطين، الجزائر، عنابة، افريل 2001،
5) اعمال الملتقى الدولي الاول، الفيلسوف الجزائري القديس اوغسطين، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى ج 2.
6) المختار عريب، مقال حول مفهوم الديمقراطية، (مجلة دراسات فلسفية)، العدد الثاني، السداسي الثاني، الجزائر.

2. **بالفرنسية**:

Ettienne Gilson, philosophie et innervation selon saint augustin, conférence Albert le grand, Institut des études médiéval, 1947.

V. الرسائل الجامعية:

1) قايدي علي، رسالة ماجيستير لم تنشر، موقع الحالة الطبيعة بالنسبة للحالة السياسية عند اسبنوزا، الجزائر، 1999، 2000.

فهرس المحتويا ت

فهرس المحتويات

الإهداء

كلمة الشكر

المقدمة 1

الفصل الأول: مفهوم اليوتوبيا وإرهاصاتها عند القديس أوغسطين......... 8

المبحث الأول: مفهوم اليوتوبيا.. 11

5- لغة.. 11

6- **اصطلاحا**.. **12**

7- مفهوم اليوتوبيا في العلوم الاجتماعية 12

3. 1: في علم الاجتماع السياسي 12

3. 2: في العلوم السياسية 12

8- المفهوم الفلسفي لليوتوبيا 13

المبحث الثاني: المدينة الفاضلة عبر الفكر السياسي................................ 16

4- يوتوبيات الحضارة الشرقية 16

5- اليوتوبيات في الفلسفة اليونانية 19

6- يوتوبيات العصور الوسطى 23

المبحث الثالث: إرهاصات اليوتوبيا عند القديس أوغسطين 26

5- المنطلق الفلسفي 26

2. 1 : الموروث الأفلاطوني 26

2. 2: الموروث الشيشروني 29

2. 3: الموروث الافلوطويني 32

2. 4: الموروث المانوي 37

6- المنطلق الديني 41

2. 1: البعد اليهودي المسيحي 41

2. 2: الصراع بين الوثنية والمسيحية 43

3. 3: التوفيق بين الفلسفة والمسيحية 46

7- المنطلق الأدبي والفني: التحولات عند ابوليوس 48

8- المنطلق الواقعي 53

5. 1: قيام وتوسع الإمبراطورية الرومانية 53

5. 2: التراجع الروماني ونمو فكرة المدينة الفاضلة 57

المبحث الرابع: إيديولوجية الدفاع عند القديس أوغسطين 60

3- السياق الديني والواقعي للتبرير الأوغسطيني 60

4- السياق التاريخي للتبرير الأوغسطيني 65

الفصل الثاني: جوهر الصراع بين المدينتين الأرضية والسماوية 67

المبحث الأول: المدينة والتاريخ 69

4- المدينة الأوغسطينية من الواقع إلى المثال 70

5- تزامن سقوط روما مع إنتشار المسيحية 73

6- حقيقة المدينة عند القديس أوغسطين 78

المبحث الثاني : بنية المدينة الإلهية 83

4- محاكاة الملائكة.. 84

5- البنية الأخلاقية 87

6- البنية الاجتماعية والسياسية 90

المبحث الثالث: الصراع بين المدينتين 95

4- نشأة وميلاد المدينتين 96

5- مقياس المدينتين 102

6- جوهر الصراع بين المدينتين 106

الفصل الثالث: تجليات ومستقبل المدينة الإلهية.............................. 114

المبحث الأول: مستقبل المدينة الإلهية 116

4- نصرة مدينة الإله 116

5- اليسوع وخلاص المدينة السماوية 118

6- غائية التاريخ المسيحي 121

المبحث الثاني: الاوغسطينية السياسية 128

4- مفهوم الاوغسطينية السياسية 129

5- السلطة الروحية عند غيريغوري 132

6- السلطة الروحية عند القديس توماس الاكويني 134

المبحث الثالث: المدينة من اليوتوبيا إلى الواقعية ومنطق القوة 137

4- نقد ميكيافيلي للطوباوية 137

5- نقد توماس هوبز للطوباوية 142

6- نقد اسبينوزا للطوباوية 146

المبحث الرابع: بناء وتصور المدينة بين الواقع والمثال 150

3- مدينة الإله في بعدها الواقعي 151

4- تجدد اليوتوبيا في الفلسفة السياسية 154

2. 1- السلام العالمي 156

3. 2 – الاوغسطينية وفلسفة الانتظار 158

خاتمة 164

قائمة المصادر والمراجع 170

فهرس المحتويات 178